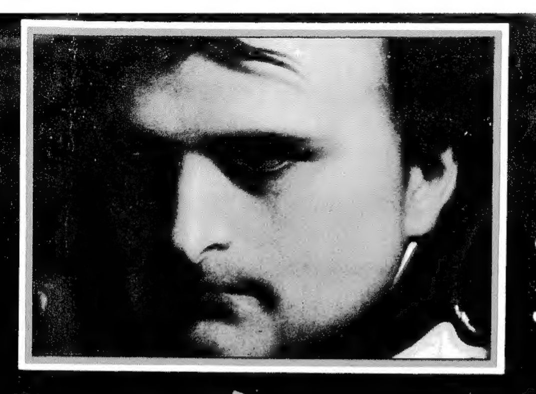


بن وايدر
د. هبغود

من قتل نابليون؟

في جزيرة سانت هيلين .. هل مات نابوليون بالسرطان كما روى التاريخ ؟ أم مات مسموماً بالزرنيخ؟
طبيب سويدي متخصص في علم السموم يثبت بعد عشرين عاماً من البحث المضني أن الزرنيخ كان سبب مقتل الامبراطور.
من هو المجرم ..؟ وكيف تمت الجريمة ..؟ وما هي أسرارها..؟ وأسئلة كثيرة غيرها ،يجيب عنها هذا الكتاب.



دار العلوم العربية
بيروت - لبنان



من قتل نابليون؟

من قتل نابليون؟

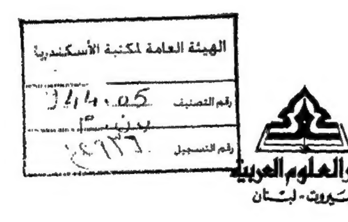
تأليف

بن وايدر — د. هابغود

ترجمة:

أحمد حسن لوله

مجاز في الاقتصاد وعلوم الأعلام في فرنسا



* بن وايدر ـ د. هابغود: من قتل نابليون.

* ترجمة: أحمد حسن لوله

* الطبعة العربية الأولى: ١٩٩٢

* صاحب الامتياز: فوزي الخضري

* الناشر: دار العلوم العربية للطباعة والنشر

ص. ب. ٩٥٣٥ ـ ١١ هاتف: ٣٠٧١٧٣

بيروت ـ لبنان

[الغلاف: تصميم وتنفيذ بوان دار ـ بيروت]



المؤلف بن وايدر يتسلم دبلوم التقدير من الأستاذ فوزي الخضري رئيس الاتحاد العربي

تـقديـم للأستـاذ فـوزي الخضـري

إن الإقبـال الشديـد الذي لقيـه هذا الكتـاب عند صـدوره في طبعتيـه الإنكليزية والفرنسية نظراً لأهمية الموضوع الذي يتناوله من الناحيتين التاريخية والسياسية. وخاصة في المجتمعات الغربية.

ومع إيماني الشديد بأن تأثير نابليون لم يكن مقتصراً على الغرب وحده. بل تعداه إلى العالم بأسره، ومجتمعنا الشرقي منه. حيث نذكر هنا، أنه يعود له الفضل الكبير في إدخال أول مطبعة عربية إلى الشرق والتي أحضرها معه في إحدى فتوحاته من فرنسا.

فقد رأيت من واجبي نشر هذا الكتاب بـاللغة العـربية، وخـاصة بعـد التشجيع الذي لقيته من أخي وصديقي الأستاذ: خالد ناصر صاحب دار العلوم العربية في بيروت ـ الذي تفضل مشكوراً بالمساهمة في نشره ليطلع عليه القراء والبـاحثين العرب. ولنضيف إلى المكتبـة العربيـة عملاً جـديداً يجيب على تساؤلات كثيرة ضاعت في ثنايا التاريخ.

فـوزي الخضـري



International Federation of Body-Builders

MR. BEN WEIDER, C.M., Ph.D.
INTERNATIONAL PRESIDENT
2875 BATES ROAD
MONTREAL, QUE., CANADA H3S 1B7
TELEPHONE: (514) 731-3783
TELEX: 05-827669 WEIDER MTL
FAX: (514) 731-7082

affiliated with: —

General Association of International Sports Federations;
International Council of Sport and Physical Education (UNESCO);
Union of International Associations.

May 6th 1991

TO WHOM IT MAY CONCERN

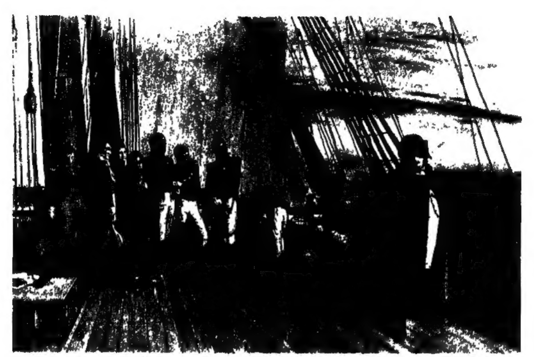
This letter will certify that MR. FAWZI KHODARI of Lebanon has been appointed to be my official representative with regards to the translation, publication and distribution of my book entitled «The Murder of Napoleon», throughout the Arab nations.

Any co-operation and consideration extended to Mr. Khodari will be much appreciated.

Thanking you, I am,

Sincerely yours,

Mr. Ben Weider, C.M. Ph.D.
PRESIDENT



نابليون على ظهر الباخرة بيلروفون، في تموز ١٨١٥



كونت أرتواز، أخ لويس الثامن عشر الذي سيصبح الملك لويس العاشر.



السير هدوسون لو، الحاكم البريطاني لجزيرة سانت هيلين.



منظر عام لجزيرة سانت هيلين، وميناء جيمس تاون.

بعد موتي، الذي لم يعد بعيداً، أرجو أن تفتحوا جثتي (. . . .) وتنزعوا قلبي وتضعوه في الكحول وتحملوه إلى بارم، إلى عزيزتي ماري لويز (. . .). أوصيكم أن تفحصوا أحشائي، بشكل خاص، وتعدوا تقريراً دقيقاً ومفصلاً وتسلموه إلى ابني (. . .). أرجوكم وأكلفكم، أن لا تهملوا شيئاً خلال هذه الفحص (. . .).

إنني أترك لجميع الأسر الحاكمة قصة لحظاتي الأخيرة بكل بشاعتها وقذارتها.

نابليون محدثاً طبيبه

قبل ستة أيام من وفاته

ملاحظة للمؤلفين:

حصلنا على الاستقصاء الذي قام بـه ستين فورشوفود من خلال العديد من المحادثات التي أجريناها معه طيلة سنوات عديدة. يستند عرضنا لقصة حياة وموت نابليون في جزيرة سانت هيلين على وثائق هامة عن تلك الفترة، والتي مصدرها الشهادات المباشرة والتلخيصات التي جرت عليها من قبل الآخرين، لقد كتب الضباط الأربعة الذين رافقوا نابليـون في منفاه مـذكراتهم. وهي، بحسب الترتيب الزمني لتاريخ نشرها كما يلي:

- عمانويل دي لاس كاسس: ذكريات من سانت هيلين، ١٨٢٣
- شارل تريستان دي مونطولون: تاريخ سانت هيلين، ١٨٤٦
- غاسبار غورغو: صحيفة سانت هيلين، ١٨٩٩
- هنري غراسيان برتران: دفاتر سانت هيلين، ١٩٤٩ ـ ١٩٥٩ كما أن طبيبي نابليون قد كتبا مذكراتهما.
- باري أوميرا: نابليون في المنفى، ١٨٢٢
- فرانشيسكو أنطومارشي: اللحظات الأخيرة لنابليون، ١٨٢٥

كما فعل نفس الشيء خادما نابليون، وهما:

- لـويس إتيان سـان دنيس (علي): ذكريـات المملوك علي عن الأمبـراطـور نابليون، ١٩٢٢
- لويس مارشان: مذكرات مارشان، الجزء الثاني ١٩٥٥

وقد قـام بيتسي بالكومب بوصف إقامة نابليون في البريار على شكل رسائل إلى الآنسة ميبل في مؤلفه: تأملات الامبراطور نابليون، ١٩٤٤.

ومن بين الروايات عن تلك السنين، وأحدثها هي:

- أوكتاف أوبري: سانت هيلين، ١٩٣٥

بول غانيير: نابليون في سانت هيلين، ١٩٥٦

- رالف كورنغولد: الأعوام الأخيرة لنابليون، ١٩٥٩

وقد قام جيلبير مارتينو بوصف الجزيرة نفسها في مؤلفه: الحياة اليومية في سانت هيلين أيام نابليون، ١٩٦٦

وأخيراً، فإن الأحداث التي مرت في فرنسا أثنـاء نفي نابليـون، كانت موضوع الكتاب الذي نشره جان لوكاس دو برتون عام ١٩٦٠ تحت عنوان: عبادة نابليون.

المقدمة

«إن القانون الأول للتاريخ هو أن لا تجروء على الكذب، والثاني هو أن لا تخشى قول الحقيقة كاملة»

لويس الثالث عشر

في الساعة ٥,٤٩ من بعد ظهر يوم السبت في ٥ أيار ١٨٢١، وعندما كانت الشمس تغيب في البحر، في سانت هيلين، سلّم نابليون لله «آخر أنفاس الحياة التي أثرت في البشرية ولا تزال»[1]. وقد استغرق وصول هذا الخبر إلى أوروبا، ومن ثم إلى باريس، مدة شهرين، فأسعد البعض، وأراح البعض الآخر، لكنه أحزن الكثيرين.

بالطبع، أعطت صحافة لويس الثامن عشر أهمية قليلة لهذا النبأ، ونشرته بشكل خبر بسيط، كما اكتفت صحيفة المونيتور، ليوم ٧ تموز، بالإشارة إلى أن «الصحف الانكليزية قد أعلنت وفاة نابليون»... وقد تناقلت الخبر معظم الصحف مصحوباً بالتعليقات التي تضمنت العداء أو الاعجاب الذي أثاره نابليون أثناء حياته. كما أن البعض ممن لم يكن مؤيداً له، أشاد بعبقريته.

لكن الصحافة، لم تتناول على الفور الأسباب التي أدت إلى هذه الوفاة نظراً لبعد جزيرة سانت هيلين الواقعة في المحيط الأطلسي بين أفريقيا وأمريكا، مما لا يتيح المجال للإحاطة بمعلومات أكثر مما يرد عبر القنصليات مقطرة بالقطارة نقطة نقطة.

(١) فرانسوا دي شاتوبريان: مذكرات ما وراء القبر - باريس - فلاماريون، ١٩٤٨.

شهود الحادثة، وبعد عودتهم لبلادهم من الجزيرة، كـانوا بخـلاء في إعطاء المعلومات الخاصة، وفضلوا مرور بعض الوقت قبل التصريح للجمهور عن معلوماتهم، وبعضها لم ينشر إلا بعد وفاة كتابها، وقد نالها التشويه أحياناً.

وقد توجب كذلك الانتظار لمعرفة تقارير السلطات الانكليزيـة وممثلي القوى الحليفة في سانت هيلين، أثناء المرض وبعد وفاة نابليون، والمراسلات الخاصة للأطباء الذين عالجوه أو الذين اقتربوا منه، وكذلك الرسائل الشخصية لرفاقه في المنفى. فهؤلاء وأولئك قدموا فيما بعد إيضاحات ضرورية، باعتبار أن تقارير تشريح الجثة التي نشرت بسرعة نسبياً، لا تتيح المجال للتعرف على طبيعة «الداء» الذي ألمّ بالامبراطور في بداياته وأعراضه.

وقد توجب أيضاً مرور سنوات طوال، قبل حصولنا على «إضبارة طبية» وافية إلى حد ما، كي يتمكن المؤرخون من البـدء في البحث عن الأسباب الممكنة لموت نابليون، والتي قيل عنها، أنها بحق «الجثة الأكثر تقطيعاً لجميع الأزمنة»[1]. لكن البحوث التي أجريت لاحقاً، من خلال الوثـائق فقط، أي بدون «الجثة» نفسها، هي التي جاءت بالتشاخيص العديدة.

فبعضها يدعي بأن نابليون قد مات من التهاب الكبد، أو خراج أميبي في الكبد، أو أميبيا معوية مثقبة، أو قرحة التهاب المعدة، حمى مالـطية، سـل رئوي، أو بولي أو عظمي، نوبات صرع، انغلاق معوي، ذات الجنب، حصاة في المرارة، نزيف التهاب، نقرس، ورم نخاعي، سرطان، سفلس هضمي، ملاريا، أو من بعض الأمراض الأخرى ذات العلاقة بقسوة الطقس أو لنوعية الماء السيئة في جزيرة سانت هيلين.

يمكن لهذا الوابل من التشاخيص أن يدعو بالطبع للدهشة، باعتبار أن الوثائق التي نمتلكها تبدو وكأنها «معلومات غنية بشكل استثنائي يمكن بفضلها الوصول إلى الحقيقة بيسر وسهولة»[1].

---

(١) د. بول غانبير: مرض وموت نابليـون في سانت هيلين، أرض المنفى، بـاريس ـ هاشيت، ١٩٧١.

(١) د. بول غانيير: المرض والموت. المصدر السابق.

إلا أنه حسبما لاحظ مؤرخ معروف هو الدكتور بول غانيير «فإن النصوص التي يعتمد عليها لم تكتب دائماً بالدقة المتوخاة، كما أن الأطباء، وبسبب عدم الكفاءة أو اللاوعي، أو من أجل الرغبة في إيجاد المبررات، قد ضاعوا في أغلب الأحيان في متاهات لا فائدة منها، غير دقيقة وعن قصد، بل إنها كانت متناقضة ناهيك عن أن نقل صورة الماضي إلى الحاضر، أمر حساس جداً بسبب التغييرات الحاصلة التي لا محيد عنها في ميدان التأويل والتفكير»[٢]

وينجم عن كل ذلك، أنه وقبل صياغة رأي ما، والذي لا يمكن بأي شكل من الأشكال، تقديمه على أنه الحقيقة فمن المهم أن نزنه مطولاً لمعرفة ما له وما عليه، وأن لا نتخلى عن الحذر المطلوب»[٣].

هذه هي الحقيقة الوحيدة فعلاً، التي تفرض نفسها على كل مؤرخ حيث لا يشكل التردد ضعفاً، وإنما هو تعبير عن شيء من الدقة، إذ أن السؤال «في الواقع سوف يبقى مطروحاً للنقاش.

ومن الخطأ الادعاء بصحة مقولة مرض السرطان، حسبما يقوله اليوم بعض المؤرخين المشهورين، الذين يؤكدون بصدد موت نابليون على أن «السرطان قد تغلب عليه»[٤].

يؤكد الدكتور هيلمان بشكل قاطع على أن «الفرضيات المختلفة لتعليل مرض وموت الامبراطور لا تقوم على أية قاعدة جدية لأنها «لا تقع ضمن إطار تاريخ الأعراض السريرية، ولا مع الملاحظات التشريحية». وإنه «من المستحيل القول، بالاعتماد على الوقائع وقبولها». ويستنتج هذا الطبيب على أنه «ليس لأي من الحجج المأخوذة ضد تشخيص السرطان أية قيمة»[١].

بهذا التأكيد على هذه الحقيقة، قد يبدو النقاش مغلقاً، يضرب بعرض الحائط «بالحذر» الذي يوصي به البعض الآخر من الذين يرون أنه، في حال

(٢) د. بول غانيير: المرض والموت. المصدر السابق.
(٣) د. بول غانير: المرض والموت. المصدر السابق.
(٤) أندريه كاستلو: الساعات العظيمة لنابليون ـ باريس ـ المكتبة الأكاديمية ـ بيران، ١٩٦٦.
(١) د. هيلمان: باتالوجيا نابليون: باريس ـ بالاتين ـ ١٩٧٠

إمكانية وجود سرطان، تطور بشكل ثانوي، من قرحة معدية قديمة، فإن ذلك لا يعدو أن يكون سوى فرضية لا أكثر، يرفضها البعض على أية حال[٢].

ألا يدعو الموضوع، في نهاية الأمر للسخرية كونه، خلافاً بين الأطباء يدور حول «كلمة» يبدو استعمالها سهلاً وخاطئاً، عندما لا يكون بالإمكان تحديد طبيعة «الألم» بدقة، ويصبح من المناسب إخفاء التردد تحت ستار «السرطان» الذي يترك انطباعاً مؤثراً للجمهور، عن القدر الذي لا يرحم، ولما يمثله هذا «المرض المؤلم» حسبما وصفته تراجم الموتى.

إن من السهل فعلاً ادعاء «السرطان» لاعطاء موت نابليون، صفة انفعالية تمكن من وضع حد لكل نقاش. إذ يحوم حول هذا المرض رعب يتمثل في الضعف وعدم القدرة على مقاومته.

لكن هل هناك من شخص جسور يمكن أن يراهن على حياته، دفاعاً عن مقولة المرض بالسرطان؟

وإذا لم تكن مقولة السرطان «على الموضة» اليوم، فإن التسمم مرفوض بالمقابل وبالإجماع، كما لو أن هذه المقولة مرفوضة من حيث المبدأ، وأن القول بها نوع من الجرم في حق «سيادته»، كما أنها مرفوضة لكرامتنا الوطنية خاصة وأن هذا الاحتمال قد تقدم به مؤرخون أجانب عموماً جاءوا يتدخلون في أمور لا تعنيهم، وأن الأمر يخص تاريخنا نحن، وأن التقرير يخصنا نحن حصراً. . .

وبدون شك، إنه بعد وفاة نابليون مباشرة، ، اعتقد الكثير من الفرنسيين بأنه قد دُسّ له السم، وقد نشر العديد من النشرات للكشف عن حقيقة «الجرم» المرتكب.

وقد سجل الجنرال لومارك في مذكراته «بأن الاعتقاد العام هو أن الامبراطور قد دُسَّ له السم من قبل حاكم سانت هيلين السير هودسون لو».

---

(٢) في مجلة معهد نابليون (كانون ثاني ١٩٦٠ عدد ٧٣، ص ١٤٥ ـ ١٥١) عرض د. غودلفسكي الأسباب التي بموجبها يستبعد هذه الإمكانية ويبدي ميلاً لمرض التهاب الكبد الذي شفي منه نابليون، وآفة معدية، ربما مات منها.

إلا أن ذلك ليس سوى انطباع عن مشاعر شعبية ذاتية، حيث أن الاعتقاد السائد آنذاك هو أن الانكليز قادرون على ارتكاب أسوأ الأعمال البشعة، ويمكن أن «يقتلوا» نابليون، بعد أن كانوا «جلاديه».

ولقد توجب الانتظار أكثر من قرن من الزمان، حتى أصبح بالإمكان التخلص من الانفعال عن الترفع في طروحات السم، والعرض بطريقة أكثر دقة، وسحب الاتهام عن الانكليز الذين لم يكن لديهم أية مصلحة سياسية في تصفية «سجينهم» بشكل بطيء.

لقد قام بذلك مؤرخ سويدي هو: ستين فورشوفود، الذي نشر عام ١٩٦١ مع عدد من الأطباء، أول دراسة معمقة حول الموضوع وأعاد تناول الموضوع عام ١٩٦٤ بطرح السؤال:

«هل مات نابليون مسموماً؟» وبالجواب إيجاباً على السؤال أشار إلى الجاني.

لقد أثارت هذه المطبوعة على الأقل في فرنسا، استفسارات وابتسامات ساخرة، وانتقادات حادة. ورأى المؤرخون في ذلك، قصة بوليسية حقيقية[1]، كانت ثمرة خيال مسف.

بدأت القضية تطرق الآذان، بعد أن كان الموضوع قد أغلق نهائياً، ولم يعد بإمكان أحد أن يجروء على تناول فرضية باتت مضحكة، لكن مع الأسف، وجد مؤرخون أجانب لا تقل درجة تفكيرهم العلمي عنا، أعطوا أهمية أكبر لدراسة ستين فورشوفود، فبدت لهم مفتاحاً لإمكانية إجراء أبحاث هامة.

وعليه، قام الكندي (بن وايدر)، وطيلة خمسة عشر عاماً، بإجراء «تحقيق بوليسي» حقيقي تناول فيه النصوص، وقارن الشهادات وراجع التشاخيص مع بعضها، وحلل سلوك الأفراد، واستخلص التناقضات، وبدّد الاستحالات، وبحث في الدوافع ولاحق الجناة المحتملين، وكذلكم استشار المؤرخين وأخصائيي السم مستفيداً بذلك من التقدم العلمي الحاصل منذ عدة سنوات في ميدان لم يكن دقيقاً بعد.

---

(١) جن تولار: نابليون ـ باريس ـ مطابع فايار ١٩٧٧

إن الدراسة التي قام بها بن وايدر، والتي شارك فيها الكاتب الأميركي د. هابغود، ليست «قصة خيال علمي» كتبت بسرعة لإطلاق «الإثـارة» في السوق.

فمن خلال جدية الأعمال الحاصلة، ومصداقية النتائج التي تم التوصل إليها، فإنها تستحق، على العكس، الانتباه والتفحص، ومن الواجب أن تثير النقاش، باعتبار أن موت نابليون «مسألة ما زالت مطروحة للبحث وأن إعطاء التسمم الجرمي بالزرنيخ الذي كان احتمالاً ممكناً، برهن عليها بن وايدر بأنها حقيقة كاملة، فعرض الدليل الذي يشكل أساس هذا النقاش الدائر اليوم. إن دور المؤرخ الحقيقي، ليس مجابهة الفرضيات القائمة، في الواقع، وإنما على العكس، في البحث فيما إذا كانت تتفق فعلاً، مع الواقع، الذي جرى، سواء أرضي من رضي أو أغضب من غضب.

وبهذه المناسبة، فإنه ليس من الواضح، أن أسباب الاعتقاد بموت نابليون مسموماً أمر غير مناسب لشخص من بطانته. ولا يبدو أن مجد هذه الشخصية سيتأثر من تلك النهاية التي تبدو أقل بشاعة من موت ناجم عن المرض.

ولنقض الفرضية التي يدافع عنها (بن وايدرود. هابغود)، فإنه من غير المقبـول الأخذ بـالنفي المتسرع، وغيـر الدقيق الـذي واجهتـه نتـائـج ستين فورشوفود، خاصة وأن علم السموم قد تطور منذ ذلك الوقت، حيث بدأ اليوم يتوضح ما غمض بالأمس.

يطرح (بن وايدرود. هابغود) أسئلة وأجوبة مناسبة لا يمكن أن يقدم لكل منها بكلمة «مستحيل» أو «مضحك»، ذلك أن الإقناع، يجب أن يستند على برهان دقيق بالنقيض. إن التعلق الذي يدعيه الكثيرون إزاء هذا الشخص غير العادي، نابليون، جدير بهذا البحث وهذا النقاش. وكما قال ڤولتير: «إذا كان من الواجب علينا مجاملة الأحيـاء، فالـواجب يقتضي قول الحقيقـة عن الموتى»[1].

---

(١) جان بوسون، مؤلف كتاب: عودة الرفاة. مقدمة الجنرال غرانسين، الحاكم العسكري للأنفاليد ـ جائزة بروكيت غونان، ١٩٧٤، من الأكاديمية الفرنسية.

كان الرجل طويلاً، رفيعاً، ذو شعر أشقر راح يتحول إلى رمادي يحيط بوجه ذي وجنات عالية. جلس في مقعده وفتح الكتاب، وهو آخر مؤلف صدر عن المذكرات. وقد قرأته باهتمام كبير وخاصة الفقرات التي تصف الأيام الأخيرة، حيث أنه بعد قرن ونصف من الزمان، لم يكن يعرف تماماً ما حدث في هذه الجزيرة الصغيرة الضائعة في المحيط الأطلسي.

لـونغوود ، سانت هيلين
أيار ١٨٢١

كانت الشمس تغيب في وهج من ضوء، ومدافع الوحدة البريطانية تطلق قذائفها معلنة الانسحاب. الامبراطور يتنفس، أحد الأطباء ينظر إلى ساعته يعد الثواني حتى النفس القادم. خمسة عشرة ثانية.. ثلاثون.. دقيقة. فجأة، يفتح الامبراطور عينيه، لكن الطبيب الآخر، الموجود بالقرب من السرير، أغمضهما على الفور. توقف النبض. كانت الساعة السادسة إلا إحدى عشرة دقيقة. لقد مات نابليون.

لويس مارشان، خادم الامبراطور الأول، هو الذي قام بغسل الميت. في الثلاثين من عمره، أمضى طيلة شبابه مع نابليون. كان مخلصاً له قلباً وقالباً، ويعتبره بأنه أعظم رجل في جميع الأزمان. خلال سنوات المنفى الطويلة، ظل مارشان بعيداً عن الخلافات التي مزقت المجموعة الفرنسية الصغيرة، ولم يجد أية حجة لمغادرة الجزيرة. مارشان، لم يترك الامبراطور عملياً طيلة الأشهر الأخيـرة العصيبة. وعـرفانـاً منه بـالجميل، أوكله نـابليون بتنفيـذ وصيته مـع الضابطين الأخرين اللذين بقيا معه حتى اللحظة الأخيرة.

غسل مارشان الجثمان بماء الكولونيا، بمساعدة الخادمين الأخرين، ثم نقله إلى غرفة النوم (تسهيلاً للأمور، ثم وضـع سريـر المريض في الصـالون الصغير)، بعد أن تحولت إلى غرفة الميت: أعد المذبح، وضعت عليه الشموع المشتعلة، اكتست الجدران بالسـواد، الكاهن يؤدي الصـلاة. وعلى سريـره العسكري الذي رافقه في جميع معاركه، كان نابليون يبدو أكثر شباباً، وكأنه رجع إلى الوراء عشرين سنة خلت.

طلب نابليون من طبيبه «بعد موتي، الذي لم يعد بعيداً، أرجو أن تعملوا على فتح جثتي (. . . .) أرجوكم، وأكلفكم أن لا تهملوا شيئاً في هذاالفحص». وفي حين كان يتهادى ببطء، من مرضه الغريب، بات تشريح جثته في المستقبل، وسواساً حقيقياً له. قال لطبيبه، قبل ثلاثة أسابيع من وفاته «إنكم لن تعرفوا ما أتألم منه قبل فتح بطني».

تأهب الأطباء للقيام بتشريح الجثة، في الساعة الثانية ظهراً، غداة وفاته. قام مارشان بتحضيرها في الصباح. وضع طاولة التشريح في قاعة البليار. تلك الطاولة، التي كان نابليون يفرد أوراقه عليها ويستعيد معاركه. تم اختيار هذه القاعة، من ثلاث وعشرين غرفة، في لونغوود، لأنها الأكثر إضاءة.

وضع جثمان نابليون على الغطاء الممدود فوق الطاولة. دخل الأطباء والمراقبون إلى قاعة البليار، قبل الساعة الثانية بقليل. كان من بين الأشخاص السبعة عشر الحاضرين، لويس مارشان وبرتران وممثلي الحاكم الإنكليزي وسبعة أطباء.

إن تشريح الجثة الذي سيجري أمام أعينهم، حدث سياسي، والكل يعي ذلك. أرسل السير هدسون لو، حاكم الجزيرة، ضابطاً إلى انكلترا، على جناح السرعة، على متن باخرة سريعة، لإعلان نبأ وفاة نابليون. وقد استغرقت الرحلة مع ذلك، شهرين اثنين.

كان ملوك أوروبا المتوجون، من إنكلترا إلى روسيا، ومن أسبانيا إلى السويد، بانتظار ذلك النبأ منذ ست سنوات.

كان لويس الثامن عشر أكثر الملوك ارتياحاً لدى تلقيه نبأ الوفاة. شكل نابليون الذي نشر حوله أفكار الثورة، خلال عشرين عاماً، كابوساً للأرستقراطيات الأوروبية، التي سحق جيوشها في ميادين القتال، وبموته يبتعد شبح الثورة.

لكن هذا الموت ما زال سراً. إذ كيف يختفي هذا الرجل الذي كان يتمتع بصحة وقوة جسمانية أسطورية، في سن الواحد والخمسين عاماً؟ خلال السنوات الست في منفاه، كانت صحة الامبراطور تسوء تدريجياً، وفي ذلك،

كان مصدر المشاكل الطويلة بين الفرنسيين الموجودين في لونغوود وحراسه الإنكليز. كان المنفيون يردون السبب في ذلك إلى الطقس في سانت هيلين، ويتهمون الحكومة الانكليزية بأنها لم تبعد نابليون إلى هذه الجزيرة إلا لتميته فيها.

شخّص طبيبا الامبراطور «مرضاً يعود للطقس». قدم هدسون لو، الحاكم الانكليزي، الذي كان يخشى فوق ذلك، من اتهامه شخصياً أو اتهام حكومته، بمسؤولية موت الامبراطور، أحد الأطباء الانكليز أمام محكمة عسكرية، لأنه شخّص السبب، «بالتهاب الكبد»، وهو المرض الذي يمكن أن يسببه الطقس.

كان من بين الأطباء السبعة، ستة أطباء إنكليز، جميعهم من العسكريين الخاضعين للنظام، ويعون تماماً الورطة السياسية لاكتشافاتهم المحتملة. أما الطبيب السابع، فهو فرانشيسكو أنطومارشي، شاب كورسيكي في الثلاثين من عمره، كان الطبيب الشخصي للامبراطور، خلال الثمانية عشر شهراً الأخيرة. كان عليه القيام بتشريح الجثة، بناء على طلب نابليون. أما الأطباء الانكليز، فقد حضروا الجلسة بصفة مراقبين. فتح أنطومارشي الصدر لعرض الأجهزة الحيوية أمام أعين الجميع. رفع القلب ووضعه في وعاء فضي مملوء بالكحول (أوصى نابليون بإرسال قلبه إلى ماري لويز، إلا أن الحاكم أمر بوضعه في التابوت مع الجثمان) ثم المعدة. كان الجميع متفقين على رؤية مقر المرض الذي قضى على الامبراطور. اقترح أنطومارشي، بعدها، فحص الدماغ الذي يمثل بالنسبة لشخص، كالامبراطور، أهمية كبرى. إلا أن الأطباء الإنكليز اعترضوا على ذلك بشدة، وأصروا على إجراء التشريح الضروري لتحديد أسباب المرض. بعد أن انتهى الأطباء من فحص الأعضاء، تم غسل القفص الصدري، بسائل ذي رائحة، ذلك أنه كان من المستحيل إيجاد المواد الضرورية للتحنيط. وأخيراً، أعاد أنطومارشي خياطة الجرح بواسطة إبرة جراحية.

غادر الجميع، باستثناء أنطومارشي ومارشان، قاعة البليار. طلب الطبيب من مارشان، مساعدته، لأخذ مقاييس الأمبراطور. ثم قام الخادم الأول بتلبيس

الرجل الذي عاش في خدمته طويلاً. «ألبسناه اللباس العسكري الكامل لفرسان الحرس الملكي. ألبسناه قميصاً أبيض وربطة عنق من الموصلين الأبيض وقبة سوداء من الحرير فوقها ترتبط إلى الخلف بحبسة معدنية. وجوارب من الحرير الأبيض، وبنطالاً من الصوف الناعم الأبيض، وجاكيت من نفس القماش، واللباس العسكري ذي الكتافيات الحمر لفرسان الحرس، وأوسمة جوقة الشرف والتاج الحديدي والريثنيون وصفيحة ووشاح جوقة الشرف. وأحذية الخيال، وقبعته مع شريط بألوان العلم الفرنسي الثلاثية».

وفي الساعة الرابعة، أي بعد ساعتين من بداية تشريح الجثة، أعاد مارشان والخدم الآخرون جثمان الامبراطور إلى الغرفة، مددوه على السرير الحديدي الذي مات عليه، وأخذوا نتفاً من غطاء السرير الملطخ بالدم ذكرى عن الامبراطور.

لم يتمكن الأطباء من الاتفاق على نشر بيان مشترك يحدد أسباب الوفاة، بل تم نشر أربعة بيانات مختلفة. أكد الجميع على وجود قرحة معدية قريبة من البواب والفوهة الواصلة بين المعدة والأمعاء.

تحدث أنطومارشي عن «قرحة سرطانية»، وتحدث الأطباء الإنكليز عن أجزاء جاهزة للتسرطن» وعليه، فإنه على الرغم من أن أياً من الأطباء الحاضرين لم يشخص السرطان بالمعنى الحرفي للكلمة، فإن الاعتقاد السائد هو أن نابليون قد مات من سرطان المعدة أو البواب، وهو المرض الذي قضى على والده أيضاً. لقد نفض هدسون لو والإنكليز أيديهم من أية شبهة، وهم بذلك ليسوا مسؤولين عن وفاة نابليون. فقد سقط بسبب مرض وراثي.

إلا أن أحد الأطباء الانكليز وهو الدكتور توماس شورت وجد أن «الكبد متضخماً» لم يكن هدسون لو، الشكوك دائماً، يرغب في التحدث عن ذلك، فمرض الكبد سوف يشير بالاتهام إلى الشروط الصحية في سانت هيلين. لذا فقد استدعى الطبيب وأمره بسحب هذه الملاحظة من تقريره. امتثل شورت للأمر مكرهاً. إلا أنه بعد مغادرته الجزيرة دوّن الحادثة خطيّاً. وعلى غرار شورت، وجد أنطومارشي أن الكبد متضخم بشكل غير طبيعي بالرغم من علم

وجود آفة ظاهرة. وقد جعل أنطومارشي طقس الجزيرة، وبالتالي الانكليز الذين نفوه إليها، مسؤولين عن موت نابليون.

لم يكن يخفى ذلك، لكن هدسون لو لا يمكنه إسكات الطبيب الشخصي للامبراطور.

بعد ثلاثة أيام، أي في التاسع من أيار دفن نابليون في وادي سانت هيلين. وفي ٢٧ أيار ركب مرافقوه الباخرة «كامل» للعودة إلى إنكلترا. في ٢٥ تموز، وبعد تسعة وأربعين يوماً من الإبحار، استدعى الكونت شارل تريستان دو مونطولون، لويس مارشان إلى مقصورته. أخطره قبطان الباخرة «كامل» بأنهم باتوا في المياة الأوروبية: تلك هي اللحظة التي حددها الامبراطور لقراءة وصاياه الأخيرة.

كان في المقصورة، بالإضافة إلى مونطولون، ومارشان هنري غراسيان برتران من كبار مارشالات القصر الذي عين مع مارشان منفذاً لوصية الامبراطور بالإضافة إلى الأب أنجيلو فيفيالي شاهداً على توقيع الوثيقة.

كان مونطولون وبرتران هما الضابطان الوحيدان اللذان بقيا مع نابليون حتى النهاية. وقد كانا يتنافسان طيلة هذه السنوات على كسب رضى الامبراطور.

خلال الأشهر الأخيرة، وبالرغم من أن برتران كان في خدمته أكثر من سواه، كان مونطولون الأرستقراطي الحاذق والمثقف هو الذي تغلب على المارشال الكبير الصامت المنزوي. لقد تم اختيار مونطولون منفذاً رئيسياً للوصية وقد وضعت الوثيقة في أمانته. لقد بات انتصاره الآن مؤكداً، فهو الذي سوف يقوم بقراءة الوصية، ويستمع إليها منافسه صامتاً.

كسر مونطولون الأختام وبدأ القراءة بصوت ناعم متمدّن. لدى سماع وصية سيده، لم يتوقف مارشان عن التفكير في تلك الأيام والليالي طيلة الأشهر الأربعة الماضية التي كان خلالها نابليون، وهو على فراش الموت يحاول كتابة وصيته. مارشان لم يترك من الناحية العملية، الامبراطور أبداً. وهو يعرف أكثر من أي شخص آخر ما قاساه نابليون طيلة تلك الأيام. وما زال يرى سيده جالساً

في سريره، مغطى بالأوراق المكتوبة التي يصعب قراءتها، والخلجات الفظيعة كانت تقطع عليه الكتابة غالباً، والأغطية المليئة بالحبر والإقياء. لكن نابليون كان يتماسك ويستمر في الكتابة. كانت لديه رسالة يرغب في تسليمها، ليس إلى أقربائه فحسب، وإنما إلى أوروبا البعيدة التي كان قد سيطر عليها في يوم مضى.

لم يكن هناك أي مفاجأة في الوثيقة التي قرأها مونطولون. لقد كان نابليون ينتبه إلى أدق التفاصيل حتى وهو على سرير الموت. أوصى بممتلكاته ووثائقه إلى أصدقائه الذين بقوا معه حتى اللحظات الأخيرة وإلى أولئك الذين خدموه في الأيام الأولى من حياته العملية. العرفان بالجميل لمارشان كان بدون حدود عندما علم ما أوصى به الامبراطور له. فقد بات لديه ما يكفي من المال والجواهر كي لا يعيش في خدمة أي إنسان طيلة حياته. كما كتب الامبراطور «إن الخدمات التي قدمها لي هي خدمات صديق لصديقه». وفي ذلك إطراء لا يقدر بثمن. من ناحية أخرى، فإن نابليون المخلص لعاداته، حاول أن ينظم حياة المقربين إليه، فقد طلب من خادمه الشاب أن يتزوج أرملة أو أختاً أو بنتاً لضابط أو عسكري من حرسه القديم.

لويس مارشان مصمم على التقيد بهذه التعليمات. وسوف يطيع الامبراطور كما أطاعه في حياته. فلديه مسؤوليات أخرى: لقد حمل ثلاث صناديق من الأكاجو تحتوي على الأشياء الشخصية لنابليون وخصلاً من الشعر عليه توزيعها على الأسرة بعد وصوله إلى أوروبا. قبل عدة أيام وخلال عاصفة حملت معها العديد من أشياء المنفيين، تمكن مارشان من إنقاذ مذكراته اليومية التي كتبت في سانت هيلين، إلا أنه تألم لفقدان ذكرى ثمينة، وهو غصن من ثلاث شجرات الصفصاف الحزين التي كان الرجل العظيم يحب الجلوس تحت ظلالها.

لقد كانت وصية نابليون أيضاً سلاحاً موجهاً ضد هذا العالم الذي خلّفه وراءه قبل ست سنوات. فقد نابليون عرشه وجيوشه، لكنه لم يفقد تلك القدرة في الاستفادة من كل الأسلحة التي يمكن أن يمتلكها. تشكل الوصية أيضاً

سهماً مسدداً ضد الانكليز وسجانهم المقيت السير هدسون لو. وقد كتب في هذه الوصية:

«إنني أموت قبل أواني، مقتولاً بيد الأولغارشية الانكليزية وأجيرها القاتل». لقد انتشر هذا الاتهام في أوروبا كالنار في الهشيم.

في الثاني من آب، وبعد أسبوع من قراءة مونطولون للوصية، وصلت الباخرة «كامل» إلى بورت سموث. يروي لويس مارشان أنه لدى وصولها لم يعد فيها من اللحم الطازج سوى خروف واحد. وبفضل باخرة سريعة، فإن نبأ وفاة نابليون بات معروفاً في إنكلترا منذ شهر. لاحظ مارشان في الميناء، أثناء انتظار التصريح لهم بالنزول، الباخرة نورثمبرلاند التي نقلتهم إلى سانت هيلين قبل ست سنوات، كما لاحظ عندما حطت أقدامه على اليابسة، جمعاً من الناس يستفسرون بانفعال عن أخبار سانت هيلين، وعن المنفي الشهير. أدهش هذا الاستقبال مارشان وأثار انفعاله، واستنتج من ذلك أن هؤلاء الناس لا يوافقون على الطريقة التي عومل بها نابليون.

والواقع، أنه في أعتى أيام نابليون، عندما كان يناضل ضد إنكلترا، فقد كان هذا البلد تيار مؤيد للامبراطور، كان يرى فيه استمراراً للثورة الفرنسية. واليوم، يمكن امتداح هذا العدو الذي مات بدون المجازفة بالخطر، لكن ذلك لم يمنع من ارتفاع أسعار سندات الخزينة، لدى إعلان وفاة المنفيّ في سانت هيلين.

حصل مارشان بسرعة على التصريح بالعودة إلى فرنسا. وبعد عشرة أيام ركب الباخرة إلى كالين برفقة ثلاثة خدم قدموا معه من سانت هيلين.

كان مارشان قلقاً لما يمكن أن تفعله الجمارك الفرنسية بالأشياء الثمينة التي يحملها ذكرى من نابليون. اختار رئيس الجمارك صندوقاً لا على التعيين وطلب من مارشان فتحه. كان الصندوق يحتوي على ملابس الامبراطور. كتب مارشان في مذكراته: «(...) كان بإمكان أي شخص أن يرى في الصندوق المفتوح قبعة الامبراطور مزينة بالشريط ذي الألوان الثلاثة الموضوعة على لباس فرسان الحرس الامبراطوري حيث كانت تلاحظ إشارة جوقة الشرف المعدنية».

بالرغم من اعتراض مارشان كان اثنان من العناصر يستعدان للتفتيش بين الأغراض، إلا أن رئيس الجمارك منعهما من ذلك قائلاً: «لا تلمسوا شيئاً، اغلق الصندوق يا سيدي تلك أشياء يجب تركها في سلام». وصل مارشان إلى باريس بعد ثلاثة أيام حيث وجد أسرته بسرور.

لقد وجد المنفيون فرنسا خرساء. ليس لنقص في الانفعال في هذا البلد الذي عرف ساعات طويلة من المجد، فذكرى نابليون ما زالت حية. لكن عودة البوربون إلى الحكم جعلت من الصعب الإعراب عن ذلك علناً. لويس الثامن عشر يعرف جيداً أنه في فرنسا أقل شعبية بكثير من الامبراطور. لقد عاش البوربون خلال السنوات العشر الأخيرة في ظل الخوف من المؤامرات البونابرتية، والتي كانت في معظم الأحيان ثمرة خيالهم. لقد ثبّت موت «المغتصب» على ما يبدو، الملكية. وفي هذا الصدد، كتب أحد رجال نابليون من المحاربين القدامى وهو الكولونيل فانتان ديزودوار، أن البوربون لم يتمكنوا من الشعور باستقرارهم في العرش، حيث أن العظيم المصفد في قلب المحيط الذي كانت ذكراه تجعلهم يرتجفون، لم يتوقف لحظة من ملاحقتهم كالكابوس. ومهما كان شعور البوربون الحقيقي في الارتياح، فقد تحاشوا إظهار سعادتهم علناً. لقد ظهر الخبر في جريدة «المنيتور» في أعقاب تحقيق قضائي: «أعلنت الصحف الإنكليزية وفاة بونابرت».

لويس الثامن عشر، الطيب القلب، وأخوه المتعصب كونت أرتواز، لم يظهرا ردة فعل. فخلال سنين المنفى الطويلة، لم يتوقف كونت أرتواز، الوريث المحقق للملك، عن التآمر ضد حياة الامبراطور. والكونت رجل شؤم وعنيد، لكن كان بارعاً لم يترك لنفسه العنان للتعبير عن رضاه بشكل علني.

خارج إطار أقرباء نابليون، منع الخوف الفرنسيين من إظهار حزنهم. وأولئك الذين عبروا عن حزنهم، عانوا من المتاعب. فالصايغ كوليه حكم عليه بالسجن ثلاثة أشهر لأنه طرح للبيع قطعة ذهبية كتب عليها: «إيك أيها الفرنسي، فقد مات الرجل العظيم». وللدفاع عن نفسه، أعلن هذا الصايغ بأن المقصود «بالرجل العظيم» ليس سوى الدوق دوبيري، ابن أخ الملك الذي قتل

قبل عام من قبل أحد البونابرتيين. والكثيرون، وخاصة في الأرياف، لم يصدقوا النبأ. ذلك أنه منذ ست سنوات، كانت أكثر الإشاعات سوءاً تملأ البلاد: مات نابليون مقتولاً بالرصاص، مخنوقاً، مختنقاً، قذف به من أعلى صخرة، هرب من سانت هيلين، موجود الآن في أمريكا، يشكل جيشاً من الأشداء ضد فرنسا. بعد عام، أعلن عن وجوده في صومعة، فلاحون يؤكدون مشاهدته ممتطياً جواداً في الريف بلباس الرهبان.

انتشر الخبر في أوروبا في أقل من أسبوع، وقد أسعد الملوك، وأصاب الشعوب بالأسى، تلك الشعوب التي كانت ترى في نابليون «الثورة المتمثلة في رجل واحد» وتضع فيه آمالها في التحرر.

في بارم، علمت ماري لويز بالنبأ من الجريدة، مترنيخ الذي رتب زواجها، لم يكلف نفسه مشقة إعلامها بالنبأ. ماري لويز التي كانت محاطة بحاشيتها لم تفكر يوماً بمرافقة زوجها في المنفى سواء في جزيرة إلبا أم في سانت هيلين. وعندما قررت الامبراطورة السابقة في إقامة قداس على روح نابليون انضمت إلى قرار عشيقها الكونت نيبرغ اللذي منع ذكر اسم المرحوم.

في ١٥ آب، وهو اليوم الذي يصادف عيد ميلاد الامبراطور الثاني والخمسين. وضعت (ماري لويز) طفلاً من عشيقها نيبرغ. لدى وفاة والده، بكى إيغلون (ابن نابليون من ماري لويز) وقد كان في العاشرة من عمره، وفاة والده بصمت.

في روما، والدة نابليون، السيدة الأم الشرسة، رفضت في البداية تصديق النبأ، قبل عدة أعوام، أعلمها بصّار بأن ابنها ليس في سانت هيلين وأن روحه قد نقلت إلى جهة مجهولة. وعندما واجهت الحقيقة، أغمي عليها والتزمت الصمت لمدة أسبوعين، ثم كتبت إلى وزير الخارجية البريطاني اللورد كاستل ريغ طالبة جثمان ابنها. إلا أنه لم يجبها.

بولين، الأخت المفضلة لدى نابليون، كانت موجودة في روما أيضاً، كتبت إلى البريطانيين قبل خمسة أيام من معرفتها وفاة أخيها، طالبة السماح لها بالذهاب إلى سانت هيلين لمرافقة الامبراطور وحضور ساعاته الأخيرة. «تاريخ

الرسالة ١١ تموز، في حين أن أخاها قد مات منذ أكثر من شهرين».

بعد عودة المنفيين من سانت هيلين إلى فرنسا، حاولوا العودة إلى حياتهم السابقة. عادت عائلة برتران إلى شاتورو، وحيث أنه كان مراقباً من قبل الشرطة، فلم يستقبل المارشال الكبير إلا القليل من الزوار. مونطولون سافر إلى بروكسل للقاء زوجته وأولاده الذين غادروا سانت هيلين منذ عامين، ثم عاد إلى باريس.

الدكتور أنطومارشي زار أوروبا لتحصيل المال الذي يعود له، حسب اعتقاده، من أسرة بونابرت، ولكن عبثاً.

أقام لويس مارشان في أوكسير. فما زال لديه بعض المهمات الواجب إنجازها لصالح معلمه. ففي الصناديق، حمل ضفيرة من شعر نابليون تم قصها بعد وفاته. وبناء على تعليمات الامبراطور، جمع مارشان ضفيرة من الشعر لماري لويز وسلسال ساعة لابنه، كما أن لديه خصلاً، من الشعر في ميداليات ذهبية أرسلها إلى جماعة بونابرت، وخشية استبدال شعر نابليون بشعر آخر، قام مارشان بأعمال الضم بنفسه. بعد الانتهاء من هذا العمل، أراد تنفيذ وصية أخرى للامبراطور: «الزواج من أرملة أو اخت أو ابنة ضابط أو جندي من الحرس القديم». في سانت هيلين امتثل لأمر نابليون عندما منعه من الزواج من خادمة حامل منه. تزوج مارشان بعد عامين من عودته إلى فرنسا من ميشيل ماتيلد باير ابنة أحد جنرالات الحرس.

لم يستعمل مارشان الشعر الموجود لديه للميداليات التي أرسلها إلى جماعة نابليون، فقد احتفظ بخصلة لنفسه ورثها لابنته مع مخطوطة من مذكراته.

غوتبورغ، السويد
خريف عام ١٩٥٥

ميناء غوتبورغ، نافذة السويد على العالم. هـذه المدينة التي يقطنهـا نصف مليون نسمة تنظر ما وراء كاتغيث، نحو الدانمارك، وأوروبا الغربية. وقد بنى البناؤون الذين قدم معظمهم من هولندا، في القرن السابع عشر، قنـوات عديدة لهذا الميناء، تعطي انطباعاً لنموذج هولندي.

تعود أطراف المدينة لما بعد الحرب العالمية الثانية، ولا تتميز كثيراً عن مثيلاتها في العالم الغربي. وعليه، فإن البيت المؤلف من ثلاث طوابق في ٩ شارع أولف ليدن، لا يتميز عن سواه من البيوت المجاورة المبنيـة من ذات الـطراز بشيء يذكـر. بالمقـابل، فـإن الرجـل الذي يسكنه ليس عـادياً على الإطلاق.

ستين فورشوفود، رجل طويل القامة، قـاسي القسمات، بلغ الخـامسة والخمسين في خريف عام ١٩٥٥. الشعر أشقر بدأ الشيب يدب فيه، الوجنات عالية، العينان زرقاوان تعلوهما حواجب كثيفة تكمل الصورة النموذجية للرجل الاسكنديناڤي. وفورشوفود، رجل بشوش أرستقراطي تقريباً، يتكلم عدة لغات ويستعمل، غالباً، تعابير قديمة، يحسن استقبال زائريه، لولا أنه يبدي مزاجاً ساخراً دون أذى، يحيـر أحيانـاً. والرجـل يذكـرك بذلـك الجيل من السـادة الأوروبيين الذين رحلوا خلال إعصار ما بين الحربين العالميتين.

بالرغم من موقفه التقليـدي، فإن فـورشوفـود لم يتوقف عن التصـرف «كمنشق» في جميع الميادين التي مارس فيها كفاءته، فبـالإضافـة إلى مهنته كطبيب أسنان، التي تتيح له العيش الرغيد، يتابع أبحاثه في علم المصـول

والدم وعلم السموم وأنواعها. وقد قادته أبحاثه إلى الاستنتاج بأن ميناء الأسنان هو نسيج حي وليس خامل ويتغذى من خلال أوعية صغيرة سماها «الشعريات الدقيقة». وبالتالي، فإن التغذية المناسبة قد تتيح الشفاء من تسوس أسنان الأطفال. إن نظريات فورشوفود تسير في الاتجاه المعاكس لتلك المقبولة عادة في مهنته، وهذا لا يزعجه إطلاقاً. من ناحية أخرى، فإن الجمهور العريض يجهله وهو لا ينشر أعماله، إلا في المجلات الاختصاصية مثل: مجلة مداواة الأسنان وحوليات التشريح المرضي. إن البحث العلمي لا يشكل الهواية الوحيدة لدى ستين فورشوفود. فالأشياء داخل بيته تشهد على ذلك. في الصالون، نابليون موجود في كل زاوية، فوق المدخنة يجلس تمثال صغير للامبراطور لابساً رداء التتويج. بعدها بقليل، توجد مرآة مذهبة ومزينة بصورة نصفية لبونابرت الشاب عندما كان القنصل الأول، في تلك الفترة وله شعر «كأذني الكلب». الساعة مزينة بتمثال صغير يمثل نابليون على جواد. صحون البورسلين مزينة بصورة النحلة وهو الشعار الشخصي للامبراطور. على الجدران، منحوتات لمشاهد نابليونية يمثل أكبرها «الوداع في فونتين بلو»، قبل السفر إلى جزيرة إلبا. وقد روى لينارت ابن فورشوفورد بأن هذه اللوحة تجعله يحلم. في الطابق الثالث، مكتب فورشفورد يغص بالكتب عن نابليون وزمانه، حيث يبرهن تجليدها الممزق على أنها قد قرأت مراراً.

إن هذا الاهتمام بنابليون، وكذلك اهتمامه بالعلم قد ورثه فورشوفود من والده، في منزل العائلة، نابليون كان موضوع عبادة حقيقية. فعندما كان طفلاً، كان يسرد لوالده جملاً عن الامبراطور، وفي سن الرابعة عشرة، كتب موضوعاً قصيراً عن نابليون في أحد الامتحانات واصفاً إياه بأنه «أحد أعظم الرجالات في تاريخ الإنسانية». وفي تلك السنة، قال لوالده: لقد أمضيت وقتاً طويلاً وراء مقعد الدراسة. وركب إحدى البواخر المسافرة، ولم يعترض عليه والده.

وصل الفتى فورشوفود إلى البحر الأسود، أثناء الحرب الأهلية فقبض عليه البلاشفة وسجنوه. وقد اكتشف نفسه بأنه لم يخلق لحياة البحار، وقرر العودة إلى بلده، آسفاً، واستئناف الدراسة. وحيث أن والده كان طبيباً، طلب الفتى فورشفود منه الموافقة على الدخول في ذات المهنة، فرفض الوالد قائلاً:

يوجد في العائلة الكثير من الأطباء «المشعوذين». وبالرغم من أنه كان يحترم العلوم الطبية، فإن العجوز الممارس، كان يحذر الطرق المتبعة من قبل زملائه، وخاصة في استعمال الأدوية الكيميائية التي، نادراً، ما كان يصنعها.

نابليون، من جهته، كان يشجع التقدم العلمي، فقد طور استخدام عربات الإسعاف العسكرية، ولم يكن يثق بالأطباء، ويرفض تناول أي دواء في حياته.

طلب الشاب فورشوفود فيما إذا كان يستطيع أن يصبح طبيب أسنان، أجابه والده بالموافقة، لأن طبيب الأسنان، فنان، لكن فورشوفود، سوف يكتشف مستقبلاً، بأن هناك مشعوذين من بين أطباء الأسنان.

في تلك الليلة من خريف عام ١٩٥٥، وتحت أنظار العديد من صور نابليون، التي تملأ الصالون، كان ستين فورشوفود، يقرأ مذكرات مارشان، وهي الشهادة الأخيرة التي نشرت لرفاق سانت هيلين.

كتب مارشان هذه المذكرات لابنته «ذلك لأعلمك ما الذي حدث لي وفيما بعد لأولادك، فإنني أترك إليك هذه الذكريات». ولقد توجب انتظار أكثر من قرن من الزمان كي يأذن حفيد مارشان، وهو الابن الوحيد لابنته، بنشر هذه المذكرات. في تلك الفترة، صدر الجزء الثاني الذي يغطي فترة سانت هيلين في فرنسا.

فورشوفود انتظر بفارغ الصبر الرواية التي سيعطيها مارشان عن المرض الأخير لنابليون. لقد بقي الخادم الأمين، أكثر من سواه، بجانب نابليون وانزوى بعيداً عن المؤامرات التي كانت تملأ الأيام الثقيلة للمجموعة الفرنسية الصغيرة. لم يكن مارشان يبحث عن تصفية أي حساب في مذكراته، التي لم تكن معدة للنشر على أية حال.

لقد اعتبر فورشوفود دائماً بأن الموت المبكر للامبراطور كان أحد أعظم المآسي في التاريخ. كان عمر نابليون عند مغادرته إلى المنفى خمسة وأربعون عاماً، كان بإمكانه الاستمرار في قيادة فرنسا وأوروبا لمدة عشرين عاماً أخرى. قد كان بإمكانه أن يحقق حلمه في أوروبا موحدة، هذا الحلم الذي تحدث عنه

بالعبارات التالية: «إن قدري لم يكتمل بعد. أريد أن أتمم ما ابتدأ. أريد قانوناً أوروبياً واحداً، محكمة إستئناف أوروبية واحدة، عملة واحدة، نفس الأوزان والمقاييس، نفس القوانين. عليّ أن أجمع كل أمم أوروبا في أمة واحدة...» وبعد قرن ونصف من الزمان لم يتحقق سوى نصف هذا الحلم. ولو أتم نابليون عمله، لاستغنت أوروبا عن حربين عالميتين مزقتها بشكل مفزع.

كان فورشوفود يتابع باهتمام نقاشات الاخصائيين حول مسألة موت الامبراطور. عشرات النظريات التي قدمها الأطباء والمؤرخين تتصارع، لكنها كانت كلها تستند إلى تقارير تشريح الجثة، ونفس الروايات لشهود العيان. لم يكن يؤمن كثيراً بالسرطان، لكن لم يكن هناك أي دليل جدي يدعم التفسيرات المطروحة. ربما يمتلك مارشان مفتاح اللغز. ذاك المساء، وصل فورشوفود إلى المقطع الذي يصف العلاقة اليومية التي يعطيها مارشان للأشهر ما بين كانون ثاني وأيار ١٨٢١، أي الأشهر الأخيرة لحياة نابليون. يكتشف بعض التفاصيل التي لا توجد في أي من الروايات الأخرى. مارشان يلقي ضوءاً جديداً على الألم الذي كان يعاني منه نابليون في أيامه الأخيرة ويقدم الدليل عن ألمه الشخصي للموت المرتقب للرجل الذي كان يخدمه.

بدت هذه الفقرات مؤثرة لفورشوفود الذي أعجب بقوة شخصية هذا الخادم الشاب خلال الأيام الأخيرة، لكنها لا تقدم شيئاً جديداً بالفعل عن احتضار الامبراطور.

لم يضف مارشان سوى بعض التفاصيل من خلال تسلسل زمني جيد للأحداث، تدعو ببساطة إلى الإقناع. يروي مارشان ما كان يحس به نابليون هذا اليوم أو ذاك، والطريقة التي كان يصف فيها المريض نفسه، هذه الأعراض، الطعام الذي تناوله في ذلك التاريخ وردود الفعل التي حدثت، طريقة ردة فعل الامبراطور على الأدوية التي كان يتناولها مكرهاً وكذلك مظهر جسم المريض. كان مارشان الشخص الوحيد، الذي لازم فيها المريض أربعاً وعشرين من أربع وعشرين ساعة خلال الأشهر الأخيرة.

وبقدر ما كان فورشوفود يتقدم في القراءة، بقدر ما كان يشعر بأن منطقاً

يظهر من خلال تراكم التفاصيل التي كان يعطيها مارشان، إلا أنه لم يكن قادراً بعد على تحديده.

يذكر مارشان تواتر الأرق والنعاس، انتفاخ القدمين وشكايات الامبراطور: «إن رجلاي لم تعد قادرة على حملي». يلاحظ كذلك أنه باستثناء شعرالرأس فقد نابليون كل شعر جسمه، ثم يصف مارشان ردود فعل الامبراطور على الأدوية الموصوفة خلال الأيام الأخيرة.

فجأة يقفز سؤال إلى تفكيره: هل مات نابليون مسموماً؟ درس فورشوفود علم السموم وهو يعلم أن الأمر لا يتعلق بجرعة وحيدة مميتة: فشهود العيان كان بإمكانهم وصف أعراض أخرى، وآثار السم كانت ستظهر لدى تشريح الجثة. لكن موت نابليون سيكون أمراً محققاً إثر تناول تدريجي للسم، شهراً بعد آخر، وعاماً إثر عام في فترة لم يكن هذا السم سوى الزرنيخ.

إن مذكرات مارشان تلقي الضوء مجدداً. فتناوب الأرق والنعاس والأقدام المتنفخة وسقوط الشعر عن الجسم: كلها أعراض تشير إلى التسمم المزمن بالزرنيخ. يتذكر فورشوفود ملاحظات الدكتور أنطومارشي، طبيب نابليون (وملاحظات الدكتور شورت قبل دعوته لالتزام النظام) بخصوص الكبد المتضخم أكثر من المعتاد لكن دون أن تظهر عليه آفة ظاهرية، وهذا بالتحديد ما يظهر على كبد شخص تسمم بالزرنيخ.

كان الزرنيخ قبل قرون عديدة من حياة نابليون، مستعملاً في فرنسا. ويفضل قدرته على تعجيل الحصول على الارث، كان يدعى «بودرة الإرث». ولأسباب عديدة، كان الزرنيخ السم المثالي. فقد كان يستعمل بصفته قاتلاً وبصفته دواء، لذا كان الحصول عليه سهلاً. فهو مستساغ المذاق، بدون رائحة خاصة ويمكن خلطه بسهولة مع الشراب أو الطعام. يكفي خمس الغرام لقتل شخص خلال أربع وعشرين ساعة، وهو فعال أيضاً بجرعات صغيرة طيلة أشهر أو سنوات. لكن التسمم خلال فترة طويلة يقدم ميزة وهي: أن أعراضه تشبه أعراض العديد من الأمراض الشائعة، وتشخيصه مستحيل عملياً في فترة نابليون، بل وبعد موته بفترة طويلة.

من ناحية أخرى، إذا أعطي الشخص المرغوب تسميمه بعض الأدوية مثل الكالوميل (مسهل) أو طرطرات البوتاسيوم والأنتيمون فإنه لا يمكن الكشف عن أي أثر له عند تشريح الجثة. وحيث أن هذين الدوائين كانا شائعا الاستعمال في تلك الفترة، فإن ذلك يتيح للطبيب معالجة الضحية والقضاء عليها في آن واحد دون أن يترك أثراً. أي الجريمة الكاملة تقريباً.

وبقدر ما كان يستمر في القراءة، كان الحماس يزداد لدى فورشوفود. فالأطباء الذين كانوا يعالجون نابليون لم يكن لديهم أي سبب للتفكير في الزرنيخ لأن الأعراض مماثلة لأعراض أمراض أخرى. وعلى أية حال، فإن الأطباء الإنكليز لم يكن لديهم أية رغبة في طرح هذه الفرضية. وحيث أنه خلال الأيام الأخيرة أعطي الامبراطور الكالوميل وطرطرات البوتاسيوم والأنتيمون فقد اختفى أي أثر للزرنيخ أثناء التشريح.

أدرك فورشوفود أيضاً أن التسمم بالزرنيخ يحل تناقضاً طرحه البعض وهو: كيف أن نابليون لم يتوقف عن التورم حتى اللحظة الأخيرة تقريباً في حين أن المرضى بالسرطان (رسمياً مات الامبراطور من سرطان في المعدة) ينحفون مع تقدم المرض؟ والواقع، أن البدانة تشكل أحد أعراض التسمم التدريجي بالزرنيخ.

استدار فورشوفود عندها إلى زوجته أولابريتا، وبلهجة حازمة غير مألوفة، وصاح: إذن هو كذلك! لقد سمّوه بالزرنيخ. أمر لا يعقل! أبشع جريمة في الأزمنة الحديثة! الدليل ههنا في مذكرات مارشان». وضرب الكتاب براحة كفه وكأنه أراد أن يهنيء مؤلفه.

أدهش حماس فورشوفود زوجته أولابريتا، وبدأت تطرح عليه الأسئلة. ولأنه كان مضطراً على ترتيب أفكاره للإجابة على أسئلتها، أدرك فورشوفود أن جميع الوقائع المعروفة تتفق تماماً. عندها سأل زوجته: من الذي تمكن من ارتكاب هذه الجريمة؟» إلا أن فورشوفود الذي لم ينكب على هذه المسألة، ليست لديه أية فكرة عن الإجابة على هذا السؤال.

ـ وهل ستكتب شيئاً عن ذلك؟

كلا. فورشوفود لن يكتب شيئاً. على أية حال، فهذا ليس دوره، فهو باحث وليس محققاً. على أية حال التسمم واضح، فأي طبيب أو خبير في السموم سوف يفهم ذلك؟ فورشوفود كان مخطئاً. بعدها بأربعة أعوام كرّس حياته للبحث عن قاتل نابليون.



الكونت دو مونطولون.

ألبين دو مونطولون.

على ظهر الباخرة بيلروفون
تموز ١٨١٥

بعد خمسة أسابيع من هزيمة واترلو، استسلم نابليون للإنكليز بعد أن حاربهم طيلة عشرين سنة. واليوم، في صبيحة ٣١ تموز، وعلى ظهر إحدى سفنهم الراسية في ميناء بلايموث، ينتظر نابليون قرار المنتصرين، بشأن مصيره.

أصبح الامبراطور المخلوع موضوع فضول شعبي. فالسياح بدأوا يتوافدون حول بيلروفون، منذ عدة أيام، في حين أن الباخرة كانت ما تزال راسية في ميناء توربای. توافد المتنفذون، فور علمهم بوجود نابليون على الباخرة، إلى الأميرالية، للحصول على إذن بزيارتها. كانت الأرصفة مليئة بالناس الآملين برؤية «بوني» الرهيب (اللقب الذي أعطاه الانكليز لنابليون)، الوحش الكورسيكي. لم يكن الطالب الضابط البحري جورج هوم يضع قدمه على اليابسة، حتى واجهه سيل من الأسئلة من مجموعة فتيات: ماذا يشبه نابليون؟ هل هو إنسان فعلاً؟ هل يداه ملطختان بالدماء، عندما صعد إلى الباخرة؟ هل فزعت منه؟... كان الناس يأتون من لندن، مشياً على الأقدام، أو راكبين الخيول في محاولة لرؤية الامبراطور. لم تبق أية غرفة شاغرة في فنادق توربای. سألت امرأة كانت واقفة على الرصيف: هل ستسمحون لنا بمشاهدته؟ أهو مصفد بالأغلال؟ بعدها أحاط الباخرة بيلروفون، عدد كبير من القوارب المستأجرة للمناسبة. كان البحارة على ظهر الباخرة، يبثون الأخبار للجمهور، من خلال الكتابة بالطباشير على لوح: إنه يتناول طعام الإفطار، لقد عاد إلى مقصورته.

في بلايموث، تتكرر نفس المشاهد على شكل أوسع، فقد امتلأ الخليج

بالقوارب بلغ سعر استئجار القارب ستين جنيهاً (وتلك كـانت تعادل الأجـرة السنوية لمنزل) في القوارب، ولإثارة انتباه الامبراطور، كـانت تعزف ألحـان شعبية فرنسية. كتب فريدريك ميتلاند، قبطان بيلروفون، في ٣٠ تمـوز: لم أشاهد مثيلاً لعدد القوارب الموجودة اليوم. وبدون شطط، يوجد حوالي ألف قارب، على كل واحد منها، ثمانية أشخاص وسطياً. وبغية تفريق الفضوليين، قام حرس الشواطىء بإغراق قارب ممـا تسبب بغرق أحـد الأشخاص. وقـد تحدث لويس مارشان عن «الوحشية المثيرة» لهذه المداخلة.

نابليون، وقد أصابه الإطراء لهذا الاهتمام الذي يحاط به، لم يشأ أن يخيب آمال الفضوليين، ففي كل يوم، وبالرغم من القلق الذي أخذ يساوره حول مصيره، كان يصعد ظهر الباخرة ويبقى لمدة ساعة أو أكثر أحياناً. كان يصعـد السلم وهو يلبس اللبـاس الرسمي العسكـري الأخضر لضـابط برتبـة كولونيل في الحرس الامبراطوري، يتأمل جمهور الفضوليين الذين كانوا ينظرون إليه، ويبتسم إليهم أحياناً أو يرفع قبعته للسيدات». كان يكرر القول: «ما أجمل هؤلاء الفتيات، ما أجمل هؤلاء السيدات».

لقد أصبح الامبراطور في حياته، أسطورة. هذه القامة المربوعة، ومظهر النسر، وتلك القبعة المزينة بالشارة الوطنية، مشهـورة في أوروبا كلهـا. ولم يعرف أحد غيره تلك الكراهية والعبادة في آن واحد. فالكـل يعرف التـاريخ العجيب لهذا الكورسيكي المغمور الذي أصبح امبراطـور الفرنسيين وواجـه أوروبا القديمة المتحالفة ضده طيلة أعوام عديدة، وأعطى فرنسا لائحة القوانين المدنية والمدارس والجامعات والإدارة، وهو الذي فقد امبراطوريته في جبال إسبانيا وثلوج روسيا، ثم استعادها لمدة مائة يوم قبل أن يضيعها مجدداً في سهل واترلو. عمر هذا الرجل اليوم ستة وأربعون عاماً.

لقد انتهت حياته النجومية على ما يبدو. لكن لم ينته كل شيء بعد. فقد وقع نابليون قبلاً في أوضاع ميئوسة وفي تلك اللحظات، قاتل بأفضل ما يكون. وفي تلك الفترة التي كانت الولادة فيها تحدد برتبة المرء، كان عليه أن يمتلك إرادة حديدية كي يصبح سيد أوروبا. لقد نجح أثناء المعارك، في سحق عدو متفوق عددياً بعد أن درس وضعه بعناية.

لقد فكر طويلاً قبل أن يتخذ قراره بالاستسلام للإنكليز. أثناء الفوضى التي تلت خلعه سافر نابليون إلى لاروشيل بعد أن مرّ تحت قوس النصر الذي ما زال قيد البنيان، برفقة عدد من المخلصين له. وفي الطريق توقف في لامالميزون، وهو القصر الذي تركه لجوزفين بعد طلاقه منها. بقي وحيداً بضع لحظات في الغرفة التي ماتت فيها العام الماضي، ثم ودع السيدة الوالدة وأقرباءه بمن فيهم ولديه غير الشرعيين، وتابع طريقه. عمت الفوضى فرنسا. لويس الثامن عشر ينتظر الجيوش الأجنبية لتعيده إلى عرشه، والجيش كان فاقد المعنويات.

كان نابليون يعي أن عليه مغادرة فرنسا قبل عودة البوربون الذين لم يتوقفوا عن التآمر ضده في منفاهم. اقترح عليه قبطان السفينة اختراق الحصار الانكليزي والإبحار به إلى أميركا، فالولايات المتحدة الفتية، التي قارعت الانكليز تستقبله بالتأكيد وسوف ينفتح عالم جديد أمامه. عرض عليه أخوه جوزيف الذي يشبهه قليلاً أن يأخذ مكانه لتسهيل الهرب. الباخرة جاهزة لكن نابليون، الذي لم يتردد مطلقاً في أرض المعركة، لم يتمكن من اتخاذ القرار. وأي عار فيما لو قبض عليه الانكليز مختبئاً في سفينة، يبحث عن الهرب من خلال الحصار البحري. في هذا الوقت، وصل نابليون وصحبه إلى جزيرة اكس في مصب نهر الجيروند. سكن الامبراطور بيتاً رمادياً بائساً كان قد أمر بإنشائه قبل عدة سنوات للقيادة البحرية المحلية. الكماشة كانت تطبق فكيها حوله. من غرفته في الطابق الثاني، كان نابليون يرقب بيلروفون، الباخرة الانكليزية التي كانت تقود الحصار وتقوم بالجولات في مصب النهر. لقد سقطت باريس في أيدي الحلفاء وعاد البوربون إلى فرنسا.

قذف نابليون الرسالة التي تعلن النبأ على الأرض، بحركة عصبية، في مصب النهر، أطلقت بيلروفون رشقة من مدافعها تحية لفتح باريس.

لقد بات مؤكداً بأن أعداءه سوف يستولون قريباً على الجزيرة ويسلموه للانكليز كسجين حرب. القريبون منه، كان لهم رأي مختلف حول ما يتوجب فعله: الهروب إلى أميركا أو الاستسلام للانكليز أو النضال الشديد في فرنسا.

وكالعادة، لم يكشف شيئاً من أفكاره، لكن اتخذ قراره في منتصف الليل: فقد أرسل رسالةً إلى القبطان الذي اقترح عليه خرق الحصار لإعلامه بأنه لن يصعد إلى سفينته. وفي ١٤ تموز تقدم موفد الامبراطور إلى قبطان بيلروفون وأعلن له عن استسلامه. في اليوم التالي، صعد نابليون مع أتباعه ظهر الباخرة الانكليزية. في رسالته التي وجهها إلى الأمير الحاكم، قال نابليون: منعاً للمؤامرات التي تقسم بلادي، وأمام عداء القوى العظمى في أوروبا، فقد وضعت حداً لحياتي السياسية، وإنني ذاهب إلى مثل تيميستوكل، لأستقر في بلد الشعب الانكليزي. إنني أضع نفسي في حماية قوانينها وهو ما أطلبه من سعادتكم الملكية الأقوى والأوفى والأكرم من بين أعدائي».

إن الإشارة إلى تيميستوكل فيها براعة. فبعد انتصاره على الفرس، التجأ هذا الجنرال اليوناني إلى أعدائه القدامى فهل يكون الانكليز أقل كرماً من الفرس؟

خلال الأيام الأولى التي أمضاها على ظهر الباخرة بيلروفون، حيث استقبل بجميع مظاهر التكريم، أعد نابليون خططه للمستقبل. سوف يتخذ اسماً مستعاراً هو الكولونيل دوروك أو الكولونيل مويرون (مرافقان قتلا قريباً منه) وسوف يعيش حياة هادئة في الريف على بعد عشرة إلى اثني عشر ميلاً من لندن. ومن المشكوك فيه أن يقرر نابليون العيش في حياة هادئة «كمزارع جنتلمان». فمنذ أن كان عمره خمساً وعشرون سنة، أدمن حياة السلطة ودخان المعارك. وهو ما زال قوياً شديد الحيوية، فلماذا إذاً ينسحب في سن الخامسة والأربعين؟

ومهما كان تفكير نابليون، فلن يصدق أحد إيمانه الجديد كمالك أرض زراعية. إن طلبه في اللجوء، وضع الحكومة الانكليزية في حرج كبير. فلدى الانكليز الأسباب الموجبة للخشية منه. فلقد كاد أن يركع إنكلترا وحتى قبل ستة أسابيع في واترلو، فإن غلطة الجنرال غروشي هي التي أنقذت الجيوش الانكليزية والبروسية من الهزيمة. إذن، نابليون يجب أن لا يكون قادراً على إحداث الضرر، وبشكل نهائي هذه المرة. والأمر لا يقتضي إرساله إلى جزيرة

إلبا التي سبق أن هرب منها، ولا إلى أميركا حيث حارب المستوطنون الانكليز عام ١٨١٢، ويمكن أن يستقبلوه بحماس، كما يستحيل السماح له بالعيش في إنكلترا، القريبة جداً من القارة الأوروبية. وكما علق اللورد ليفربول رئيس الوزراء: «إذا بقي نابليون في إنكلترا فإنه سوف يتحول فوراً إلى موضوع للفضول وبعد أشهر سيكون موضوعاً يثير الشفقة».

خلال الأسبوعين الماضيين شاهد الانكليز التأثير الواسع لنابليون على الناس. أصبح الامبراطور، مع مرور الأيام، السيد الحقيقي للباخرة بيلروفون. فهو بارع في السياسة كما في ساحات الحروب، وقد تمكن أن يبرهن للانكليز أن الوحش الكورسيكي إنساني بشكل عميق. كان بشوشاً على الدوام، مرحاً، ولم يتعكر مزاجه إلا ليوم واحد عندما غادرت الباخرة المياه الفرنسية، بقي يومها صامتاً ينظر إلى الأفق وقد ابتعدت عنه أطراف اليابسة لهاتيك الامبراطورية التي فقدها إلى الأبد.

في الباخرة، أعطى الامبراطور كل التسهيلات لجعل الرحلة مريحة وبالرغم من أن الامبراطور كان قليل الطعام، فإن القبطان ميتلاند كان يبذل جهده لتقديم وجبات فرنسية. كان يمضي يومه في التجوال في الباخرة يراقب التجهيزات والزوايا الصغيرة، وحتى المخازن وغرف التمريض، ويتحدث مع الجميع عن كل ما يشاهده. كان حب الإطلاع لديه واسعاً. فقد كان يسأل الضباط عن معاركهم ويستعلم عن القادات الانكليزية، مشيراً بذلك إلى أنه قد يمضي بقية حياته في إنكلترا. كان يراقب عمل طاقم السفينة ويشرح الفوارق القائمة بين البحرية الفرنسية والبحرية الانكليزية. كانت معلوماته البحرية تذهل القبطان ميتلاند. لم تكن اللغة تشكل عائقاً: فالعديد من الضباط الانكليز كانوا يتحدثون الفرنسية أو الإيطالية (اللغتان اللتان يتحدثهما نابليون) وهيئة الامبراطور كانت ترفع الحواجز. روى ضابط مرشح شاب فيما بعد بأن نابليون العظيم «قد ابتسم له وربّت على خده وقرص أذنه».

كان نابليون يعامل هؤلاء الرجال بشكل شعبي لم يعهدوه من ضباطهم القادمين من الطبقة الارستقراطية. ونابليون، كان يعرف أكثر من سواه حياة

الجنود وبالانتباه إلى حاجاتهم الأولية (الطعام والشراب واللباس) تمكن من إيقاظ المشاعر بالإخلاص له داخل الجيش العظيم. وكان يقاسمهم حياتهم الصعبة، وكان معهم في أرض المعركة في واترلو، في حين أن الجنرال الانكليزي كان محتمياً وراء التلّة. كان يتحدث إليهم ببساطة ويناقش المتذمرين. مساء في المشرب، كان يستعلم عن سنوات الخدمة لديهم ويسألهم عن معاركهم. سأل جراحاً: كم ذراعاً قطعت؟ وسأل أمين صندوق: «كم سرقت»؟ وعندما استفسر من شخص كبير السن ذو شعر رمادي: منذ كم سنة لم يترق، كان يعلم بأنه يصيب بذلك نقطة حساسة، ذلك أن الانكليز لا يجهلون بأن الجدارة هي الأهم في الجيش الفرنسي، في حين أن ذلك يعتمد لديهم على أصل الشخص. لدى استعراض ثلة من الجنود كانوا في السفينة، دخل بين الصفوف، أبعد الحراب بيديه العاريتين، وأمسك ببندقية أحد الجنود وأعطى تمريناً عن تقديم السلاح في الجيش الفرنسي.

وعلى ما يبدو، فإن أسابيع معدودة، سوف تكفيه لكسب إخلاص الجنود الانكليز، كما كسب الحرس الامبراطوري. قال لأحد ضباطه «ما أكثر ما يمكن أن يفعل المرء بمئتي ألف فتى قوي أمثالهم». بعد سماع هذه الكلمات، كتب الضابط المرشح: «يا إلهي! يمكنك أن تقول ذلك، أيها الامبراطور المهيب! لو كان لديك مائتا ألف جندي جيد، ولو أتيح لك التحكم في روشفور، فإنني أقسم بأنك سوف تتمكن من هزيمة وتمزيق ويلنغتون وحلفائه المقدسين في كل الاتجاهات (. . . .) لكنك لم تتمكن من ذلك».

لم يكن بالامكان الموافقة لهذا الرجل أن يبقى في إنكلترا. فقد تقرر إبعاده وبشكل نهائي هذه المرة. لكنه لن يستسلم للجلاد. كان نابليون عدواً لدوداً لكنه كان دائماً شريفاً، وكان يتمتع حتى في إنكلترا، بهالة لا تنكر لدى أولئك الذين يشاطرونه مُثل الثورة الفرنسية. ومع ذلك فالمستقبل في السياسة، ليس مضموناً دائماً، والمغلوب اليوم قد يصبح في الغد منتصراً، والقادة الذين يرسلون شعوبهم إلى المعركة بسهولة يضمنون أمنهم الشخصي بالحفاظ على أعدائهم. يرى الدوق ويلنغتون نفسه بأن إعدامه يشكل «جنوناً». ورئيس الوزراء البريطاني لا يزعجه أن يقوم بالمهمة شخص آخر سواه: «إن شنق أو

رمي بونابرت بالرصاص، أمر يمكن لملك فرنسا أن يقوم به أفضل من سواه».

لكن لويس الثامن عشر ليس مستعداً لمثل هذا التطرف. فهو لا يرغب سوى شيئاً واحداً بالطبع هـو إبعاد الخـطر الذي يمثله نـابليون وإلى الأبـد، فالملك رجل ضعيف ووضعـه هش. والبوربـون لم يكونـوا شعبيين حتى أن الملك لم يتمكن من دخول باريس إلا في عربة الأجـانب، والجيش ما زال مخلصاً لذاك الرجل الذي أعطاه المجد، وعندما يهدد بطله بالموت منذ بداية حكمه، فإن الملك سوف يعرض الملكية للخطر. لذا فإن نوايا لويس الثامن عشر ليست سراً: «على الانكليز أن يتكفلوا بأمر الغاصب. وعلى نابليون أن لا يتمكن من تكرار الهرب كما فعل من جزيرة إلبا تحت أية حجة من الحجج، ويجب أن يكون منفاه بعيداً ومحروساً بشدة.

في صبيحة يوم ٣١ تموز، علم نابليون بمصيره الذي ينتظره. فقد قدم الأميرال الانكليزي اللورد كيث إلى ظهر الباخرة بيلروفون وقرأ عليه مترجماً بلغة فرنسية مترددة، نص القرار الذي يحكم عليه بالابعاد إلى سانت هيلين. لقد كـانت المهمة بـالنسبة للورد كيث مـزعجة: إذ بفضـل تـدخـل شخصي من الامبراطور، أنقذ حياة ابن أخيه في واترلو. أصغى نابليون للقرار، ثم انفجر غاضباً: «هذا أسوأ من القفص الحديدي لتامرلان! أفضل تسليمي إلى البوربون (. . . .) لقد وضعت نفسي تحت حمايـة قوانين بلدكم، والحكـومة تخـرق القوانين المقدسة للضيافة (. . .) والأولى توقيع قرار موتي!».

بالرغم من شعوره بالمرارة فإن نابليون لم يدهش كثيراً. إنكلترا لا يمكن أن تسمح له بالعودة ثانية إلى أوروبا. لقد كان يتلقى في جزيرة إلبا التقارير، فأعداؤه المجتمعون في ڤيينا، خططوا لنفيه إلى جزيرة بعيدة، وبهذه المناسبة جرى الحديث عن سانت هيلين. إن هذا الاختيار يشكل إحدى الأمور العجيبة في التاريخ. في عام ١٨٠٤ عندما كان في أوج قوته، فكر نابليون في إرسال حملة لإحتلال الجزيرة، وقد قال في حينها بأنه «يلزم ألف ومائتان إلى ألف وخمسماية رجل». واليوم، أرسل الانكليز ضعف هذا العدد، لمراقبته. بعد أن انفجر نابليون غاضباً، استعاد هدوءه بسرعة وصعد إلى ظهر الباخرة وقام بنزهته اليومية القصيرة قبل أن يعود إلى مقصورتـه الصغيرة، كـل ذلك تحت أنـظار

ميتلاند المندهشة. يروي مارشان: «عندما دخلت، وجدت ستائر النوافذ مغلقة بإحكام، وحيث أن هذه الستائر كانت من الحرير الأحمر فقد أعطت لوناً غريباً للمقصورة. كان الامبراطور قد خلع بذته معرباً عن رغبته في الاستراحة قليلاً. وبينما كان يخلع ملابسه طلب مني متابعة القراءة من كتاب: حياة الرجال الشهيرين، الذي كان على الطاولة، حيث كانت الإشارة: «نام نابليون بعدها وأغلق الستائر الحريرية الخضراء بشكل يحجبه عن الأنظار. كان مارشان قلقاً؛ فقد كان الامبراطور يحمل معه دائما ما يغيبه عن أعدائه إلى الأبد». وورد فجأة إلى ذهني تفكير بالدمار، وقد أحسست للحظة قصيرة نوعاً من الضيق الغامض (. . .) وعندما طلب مني الامبراطور أن أقرأ ودون أن أفتح الستائر، أخذت الكتاب وقرأت بصوت ثابت كي لا يشك بما جال في خاطري. بعد نصف ساعة من القراءة التي انتهت بموت كانتون، خرج الامبراطور من تحت الستائر بهدوء، أطاح بمخاوفي، ولبس الروب دي شامبر».

بعد لحظات، أرسل مارشان في طلب المارشال الكبير. انكب الامبراطور على العمل مع برتران، ولم يشر إطلاقاً إلى فشل مشاريعه. لقد أعلمه الانكليز أن بإمكانه أن يأخذ معه ثلاثة ضباط وحوالي عشرة من الخدم. لقد بات الوقت متأخراً كي يطلب من مرافقيه المخلصين الذين بقوا في فرنسا كي يرافقوه إلى منفاه؛ إذن عليه الاختيار من بين أولئك الذين ركبوا معه الباخرة بيلروفون.

كان اختيار برتران طبيعياً: فهو ضابط هندسة، بات مارشالاً كبيراً في القصر، خدم نابليون منذ معركة مصر. هادىء، كتوم، دقيق أكثر من اللزوم أحياناً، وقد برهن دائماً على ولائه للامبراطور، ورافقه في منفاه الأول إلى جزيرة إلبا. زوجته فاني، أقل حماساً منه للنفي الجديد. لقد كانت طويلة شقراء، ذات عينين سوداوين، من أصل إنكليزي من طرف والدها. كانت تأمل من انكلترا العودة إلى حياتها البراقة التي عرفتها في باريس، خاصة وأن برتران قد نقل قسماً كبيراً من ثروته إلى انكلترا. عندما علمت بأن الامبراطور قد نفي إلى سانت هيلين، هرعت إليه وارتمت على قدميه ورجته أن يسمح لزوجها بالبقاء في أوروبا. اكتفى نابليون بالإجابة أن برتران حر في أفعاله. بعد أن

فقدت الأمل، حاولت فاني برتران أن ترمي بنفسها في البحر. سأل نـابليون مبتسماً «وهل تعتقدون بأن محاولتها كانت جادة» لقد تقرر: برتران سوف يذهب إلى سانت هيلين مع زوجته وأولاده الثلاثة.

للوهلة الأولى يبدو اختيار الضباط الأخرين أقل وضوحاً. إذ لم يرافقه أي منهم إلى جزيرة إلبا، كما أن اثنين من أولئك الذين قاسموه النفي الأول حاولوا بعدها العودة وحصلوا على العفو من البوربون. هذه المرة، هنـاك اثنان من ضباطه ينتمون إلى الارستقراطية القديمة. الكونت شارل تريستان دو مونطولون لم يكن في يوم من الأيام قريباً من الامبراطور الذي يكاد لا يعرفه. عمره اثنان وثلاثون عاماً، رجل وسيم بضفائر شعره يتصرف كرجـال المصارف وبفضـل أسرته نجح في الحصول على عدد من المراتب العسكرية والدبلوماسية، لم يسطع نجمه فيها. بالرغم من أنه بـرتبة جنـرال، وبالـرغم من حالـة الحرب الدائمة، أيام الامبراطورية، فقد نجح في أن لا يخوض غمار الحروب إطلاقاً. قبل ثلاثة أعوام، وفي عام ١٨١٢، عندما كان وزيراً مطلق الصـلاحية لـدى الـدوق الأكبر فـورزبورغ، تـزوج مونـطولون ضـد رغبـة الامبـراطـور، ألبين دوفاسال، التي تطلقت من زوجها الثاني. كان نابليون عندها في موسكو، لكنه حتى في تلك الساعات المؤلمة كان يـدير امبـراطوريتـه، وينظم بنفسـه أدق التفاصيل. لذا فإن مونطولون نال غضب نابليون بسبب هذا الزواج الذي اعتبره لا يتوافق «مع وظائفه الدبلوماسيـة». بعد واتـرلو، يـظهر مـونطولـون بالـزي العسكري حاجباً كبيراً، يدعي ولاءه للامبراطور وتمكن من الالتحاق بالحاشية برفقة زوجته. وقد وصلا إلى سانت هيلين مع ابنهما.

الماركيز دو لاس كاسس (عمانويل أوغست ديوردونيه ماريوس جوزيف، للدقة) رفيق الساعة الأخيرة أيضاً. يعود أصله، على غرار مونطولون، لطبقة النبلاء القديمة، لديه ورقتان: فهو يتحدث الانكليزية بطلاقة ويكتبها جيداً. قال للامبراطور، أننا نحن الاثنان سنكتب معاً التاريخ الذي صنعته. وعلى ما يبدو، فإن الرغبة في جمع ذكريات نابليون هي التي دفعته إلى مرافقتـه إلى سانت هيلين. وبالاضافة إلى صفته كاتباً، فـإن لاس كاسس كـان الضابط الـوحيد الأقصر من نابليون (أقل بثلاث سنتيمترات) وأكبر منه (بأربع سنوات). وقد أخذ

معه ابنه وعمره خمسة عشر عاماً.

تم اختيار الضباط الثلاثة الذين صرح بهم الانكليز، لكن غورغو ليس مقتنعاً. عمره اثنان وثلاثون عاماً، ضابط مدفعية (كالامبراطور)، غورغو رجل شجاع، فقد أنقذ حياة نابليون في روسيا (على الأقل هذا ما يدعيه) وقاتل في واترلو، عندما علم غورغو بأنه ليس في قائمة الذين تم اختيارهم، ملأ الباخرة صراخاً واحتجاجاً حتى اضطر نابليون لأخذه من ضمن الضباط بعد أن سجل لاس كاسس سكرتيراً. وسوف يأتي غورغو وحيداً دون عائلة.

لويس مارشان، الخادم الأول، يشغل مركز الثقة. فهو المرافق، ينام في مقصورة الامبراطور، على فراش، ويمسك بحياة الامبراطور بين يديه. عمره أربع وعشرون سنة، عازب، لا يعرف في حياته سوى خدمة نابليون.

من بين الخدم، نجد شخصاً غامضاً مقلقاً؛ فرانشيسكي سيبرياني. هذا الرجل يعرف نابليون منذ فترة طويلة، إذ كان في شبابه ينظف طناجر أسرة بونابرت في كورسيكا. كان دوره لدى الامبراطور غامضاً خاصة وأن أحداً لا يفهمها عندما يتكلم الاثنان اللهجة الكورسيكية.

أرسل نابليون في جزيرة إلبا سيبرياني، للتجسس على الحلفاء، وقد جاءه ليقول له بأن أعداءه يفكرون في ترحيله إلى مكان بعيد. وقد دعا هذا التقرير نابليون لاتخاذ قراره في العودة إلى فرنسا. سيبرياني، على غرار لويس مارشان، سوف يأتي وحيداً إلى سانت هيلين.

صرح الانكليز لنابليون بأخذ طبيب معه، على ظهر الباخرة بيلروفون وجد الدكتور باري أوميرا، لطيفاً، وهو بروتستانتي إيرلندي عمره تسع وعشرون عاماً، يتكلم الإيطالية بطلاقة وخدم في مصر بعد سفر الفرنسيين. قبل أوميرا مرافقة الامبراطور إلى سانت هيلين، ورضي الانكليز في ذلك أملاً في جعله جاسوساً لهم في حاشية نابليون.

لم يعرض الانكليز عليه استقدام الامبراطورة وملك روما. على أية حال، فإن نابليون لم يفكر في ذلك. عادت ماري لويز إلى النمسا مع ابنها قبل السفر إلى جزيرة إلبا ورفضت الالتحاق به خلال المائة يوم.

لم يعرض عليه أي شخص من جماعة بونابرت مرافقته إلى سانت هيلين، علماً بأنهم يدينون له بجميع الثروات والمراكز.

في ٧ آب ترك نابليون مرافقاً بسبع وعشرين شخصاً الباخرة بيلروفون ليستقل الباخرة نورثمبرلاند التي ستقلهم إلى سانت هيلين. وقبل أن يفتح مارشان السرير العسكري للامبراطور في المقصورة كتب إلى أهله ليعلمهم بالمقصد الجديد.



زوجة المارشال برتران.

غوتنبورغ ـ تشرين ثاني ١٩٥٩

نحن في عام ١٩٥٩، بعد عدة أشهر من قراره بتكريس وقته من أجل حل لغز موت الامبراطور، اكتشف ستين فورشوفود في مكتبة غـوتبرغ مقـالاً كتبه هاملتون سميث؛ سيكون حاسماً في متابعة أعماله.

لقد مرت أربعة أعوام منذ ذلك المساء الذي اكتشف في مذكرات مارشان ما دعاه للاعتقاد أنه الدليل على التسمم بالزرنيخ. في تلك اللحظة، فكر فورشوفود، أن أحد الأخصائيين في تاريخ نابليون قد يتوصل إلى نفس النتائج التي حصل عليها من خلال هذه المذكرات. وهل يتوجب عليه، وهو الهاوي، أن يشير بالدليل إلى الأخصائيين؟ لذلك فقد استمر طيلة السنوات الأربع في أبحاثه في المخبر، وفي عمله كطبيب أسنان. وباعتباره يحب الأصالة، لم تكن ممارسته لطب الأسنان تقليدية. كان يكتفي بإصلاح الأضرار الناجمة عن أخطاء زملائه، وذلك يقتضي في حد ذاته الكثير من العمل، لكنه كان يترك لنفسه الوقت لقراءة الأدبيات الغزيرة التي تظهر عن نابليون، من المقالات الجامعية وحتى السير الشعبية، كان ينتظر عبثاً، أن يقرأ ما يعتقد بأنه الكشف الأكبر.

إلا أن هذا الكشف لم يأت. فهل سيضطر للانطلاق في الحلبة؟ وكم لديه من الأعمال في مخبره! لقد قام ببحث طليعي لم ينته بعد، وإذا غاص في مشروع نابليون، فإنه يعلم سلفاً بأنه لن يتوقف في منتصف الطريق، لأنه ليس من هذه الشاكلة. لكنه سوف يخرج من مخبره وسوف يكرس القليل من الوقت لأسرته. وأخيراً ـ ألم يصبح مسناً وقد اقترب من الستين ـ للانطلاق في مثل هذه المغامرة؟ وإذا فشل، فسوف يوصف بالجنـون. باختصـار إن منطق الحجج تتراكم ضد المشروع.

إلا أن فورشوفود وإن كان رجل علم، فقد كان أيضاً رجل أحلام. ففي أبحاثه لم يبق في يوم من الأيام أسير الأفكار السائدة؛ وهذا ما يعطيه قيمة في حد ذاته. لقد كان تفكير فورشوفود مشدوداً نحو الرجل العظيم الذي كان مركز مشروعه. ولم يتوان هذا الرجل عن متابعة حلمه. وهل كان الأمر سيختلف فيما لو بقي نابليون بونابرت أحد الضباط الفرنسيين المغمورين أو رجل سياسة كورسيكي عادي؟

نشرت مقالتان حول موت نابليون في المجلات السويدية دفعته لاتخاذ قراره. لم تتضمن أية واحدة منها احتمال التسمم بالزرنيخ كما لم تتحدث عن الدلائل التي قدمها مارشان. كل شيء يسير وكأن مذكرات خادم الامبراطور لم تظهر إلى الوجود. تعيد المقالتان طرح النظريات القديمة؛ السرطان ـ التهاب الكبد ودزينة أخرى من الأمراض المعروفة في العالم منذ مائة عام.

في ذلك اليوم، أعلن فورشوفود لأسرته: لقد قررت، سوف أعمل بنفسي. زوجته أولبريتا باتت تراه أقل فأقل. لقد عاشت معه طويلاً كي تعلم بأنه عندما يضع هدفاً، فإنه لا يتوقف قبل الوصول إليه. بدأ فورشوفود بالغوص في دراسة ما أسماه «قضية نابليون». وحيث أن تأهيله علمياً، فقد انطلق في هذا البحث الجديد مستخدماً طرقه المعتادة. راح يعيد قراءة الأدبيات الكثيرة المخصصة عن الزرنيخ، ويستعرض الأعراض الملاحظة على الضحايا، وكذلك الاستعمالات (الطبية والإجرامية) لهذا السم في زمن نابليون. قرأ وأعاد قراءة روايات الشهود والتقارير الطبية للتشخيص، وقارن الشهادات بتفاصيل أعطت فجأة معنى جديداً. راح يعيش في خصوصيات الموتى منذ زمن طويل. في عالم بعيد في الزمان والمكان عن منزله السويدي المريح.

العالم البائس في لونغوود، معزول على هضبة متطرفة في سانت هيلين محاط بالجنود الانكليز، وسجين للمحيط، حيث كان الامبراطور يحتضر في ربيع ١٨٢١. كان فورشوفود ينظر إلى جميع أولئك الذين يحيطون بنابليون، سواء المحيطين مباشرة أو السجانين الانكليز، والطريقة التي يلعب بها كل دوره في تلك الأيام الحاسمة. وإذا كان فورشوفود على حق، فإن أحدهم قد دس

السم للامبراطور وأكمل عمله البشع. نعم، لكن مَنْ مِن هؤلاء فعل ذلك؟

وبتنظيمه الشخصي المعتاد، قرر فورشوفود إبعاد هذا السؤال مؤقتاً عن ذهنه. لم يقدم بعد الدليل على أن نابليون قد سُمّم. وبدون جريمة، فمن العبث البحث عن المجرم. وإذا كان على حق في الموضوع، فقد حان الوقت للقيام بهذا البحث.

تقوم الطريقة العلمية بالبرهان على شيء واحد في كل مرة. لقد كان فورشوفود يعمل دائماً بطريقة علمية بحتة. وبقدر ما كان يدقق في الوثائق المتعلقة بالأشهر الأخيرة لاحتضار نابليون، بقدر ما كان فورشوفود يقتنع بأنه يسير في الطريق الصحيح. إن الإلهام الذي أحس به لدى قراءة مذكرات مارشان منذ أربع سنوات ينطوي تماماً على تفسير موت الامبراطور. الاستنتاج ليس سهلاً لأن التسمم بالزرنيخ صعب التشخيص. إذ تتقاطع أعراضه مع أعراض العديد من الأمراض الشائعة، ولتعقيد التشخيص أكثر، فإن بعض الأعراض تبدو متناقضة. فالأرق يتناوب مع النعاس، وفقدان الشهية، يتبعه فترات تبدو الضحية أثناءها وكأنها مصابة بالشراهة. لذا فإن عرضاً واحداً أو عدة أعراض لا يمكن أن تكون قاطعة. وعلى أية حال، فإن الدلائل التي تراكمت لدى فورشوفود باتت قوية؛ فهو يلاحظ من تقرير تشريح الجثة ورواية أنطومارشي، الطبيب الشخصي لنابليون، والرواية المفصلة يوماً فيوماً عن حالة المريض التي سطرها المخلص مارشان بأن الأيام الأخيرة لنابليون لم تظهر أقل من اثنين وعشرين عرضاً للتسمم بالزرنيخ من أصل ثلاثين عارضاً معروف لدى الطب الشرعي. وإن كان أياً من الشهود الذين سجّلوا هذه الأعراض لم يخطر بباله إمكانية التسمم، فإن ذلك يجعل هذه الشهادات أكثر إقناعاً.

كذلك فهناك أمر آخر، بنفس الأهمية، هو أن أياً من هذه الشهادات لم يأت مناقضاً لفرضية الزرنيخ. وإذا لم يفكر أي من قراء مذكرات مارشان في الموضوع، فذلك لأن أحداً لم يفكر بهذه الفرضية. كان كل واحد يريد الدفاع عن نظرياته المطروحة. وهذا لا يدهش فورشوفود. لقد تركت له تجربته في العلوم والطب قليلاً من الاحترام لزملائه. والمؤرخون ليسوا بأفضل من ذلك.

فالكل كان يتبع القطيع.

كان فورشوفود يعلم، بعد عدة أشهر من الأبحاث، أن الطريق ما زالت أمامه طويلة قبل أن يتمكن من تقديم الدليل على ما يقول، والواقع ليس لديه أي دليل. فالوسيلة الواضحة للحصول على دليل هو في تحليل رفات نابليون. لقد أعيد جثمان الامبراطور إلى باريس بعد تسعة عشر عاماً من وفاته وهو موجود اليوم في القبر الكبير في الأنفاليد تحت خمسة وثلاثين طناً من الرخام السماخي الأحمر ومن التراب الأصفر المحمص. لقد وجد فورشوفود أن التوجه إلى السلطات الفرنسية والطلب منها فتح القبر لباحث مغمور، وأجنبي، من أجل القيام بتحليل رفاة البطل الوطني، أمر صعب. من هذه الناحية، ليس هناك أي أمل، فورشوفود لا يمكن أن يقدم جثمان الضحية شاهداً.

فكر فورشوفود أن هناك طريقاً آخر أمامه. شعر نابليون. في تلك الفترة، كان إعطاء ضفيرة من شعر الرجال البارزين، عادة متبعة، وهي تشبه اليوم، تواقيع الرجال المشهورين. ومن المعلوم، أن نابليون قدم خصلاً من شعره مراراً. يقول مارشان في مذكراته، بأنه قد حمل إلى فرنسا، كمية كبيرة من الشعر المقصوص من رأس سيده، قبل موته بقليل، وأنه وزع الجزء الأكبر منها إلى عائلة بونابرت، عدا خصلة واحدة أورثها لابنته. ولقد علم فورشوفود، أثناء أبحاثه الطبية، بأن الشعرة تشكل مقياساً رائعاً للزرنيخ، في الجسم البشري. وطريقة تحليل الشعر، للكشف عن الزرنيخ، معروفة ومطبقة، منذ أجيال عديدة.

وعليه، إذا تعذر استخدام جثمان نابليون، كشهادة مباشرة، تبقى إمكانية تحليل شعره.

هناك عقبة أخرى لا يمكن تجاوزها، فالطريقة الشائعة في التحليل، تتطلب كمية كبيرة من الشعر، بحدود خمسة غرامات، أي ما يعادل /٥٠٠٠/ شعرة. فإذا كان بالإمكان إيجاد خصلة أو خصلتين ـ وهذا محتمل إن لم يكن ممكناً ـ فإن الحصول على خمسة آلاف شعرة من شعر الامبراطور، يبدو أمراً صعباً، صعوبة الكشف عن جثمان نابليون. إن الدليل الفيزيائي لوجود

الزرنيخ، يبدو، إذن، بعيد المنال. لكن فورشوفود ليس بالرجل الذي يعرف التراجع، فإذا قرر إتمام أمر، تابعه حتى النهاية. وهذا ما يعمد إليه العلماء غالباً، أملاً في انبلاج النور عن مصدر ما زال مجهولاً حتى الآن.

لقد جاءه ذلك النور، ذات مساء من أيام تشرين الثاني في مكتبة بلدية غوتبرغ، حيث كان يأتي لمطالعة الصحف العلمية التي صدرت أخيراً ويمكن أن تقدم له بعض الفائدة. اكتشف ما كان يبحث عنه في مقالة عن الكيمياء التحليلية، التي تصف طريقة جديدة للكشف عن وجود الزرنيخ في الشعر. وهذه الطريقة لا تتطلب سوى شعرة واحدة. في قاعة المجلات الدورية في مكتبة البلدية، أحس فورشوفود بالإثارة في ذلك اليوم، وهو الذي يبحث منذ أربعة أعوام عن مسألة السم لدى قراءة مذكرات مارشان. واليوم جاءه ضوء الأمل. لكن هل سيتمكن من الحصول على تلك الشعرة الوحيدة والمطلوب من شعر الامبراطور؟

مخترع الطريقة الجديدة وكاتب المقالة التي ظهرت في مجلة الكيمياء هو الدكتور هاملتون سميث، الملحق بالطب الشرعي في جامعة غلاسكو في سكوتلانده. سميث، أخصائي معروف في علم السموم ودراسة المواد السامة. وقد اهتم بآثار الزرنيخ على الوسط المحيط، وخاصة مخاطر سرطان الرئة، باعتبار أن الزرنيخ يستخدم بشكل واسع كمبيد حشري لنبات التبغ.

بحث سميث عن وسيلة عملية وأمينة لاختبار كمية صغيرة جداً من الشعر، واكتشفها بفضل إحدى الإسقاطات الشعاعية للحرب العالمية الثانية لاستخدام الطاقة النووية في ميدان البحث العلمي. وقد عمل سميث على اتصال مباشر مع مركز الأبحاث النووية في هارويل قرب لندن، ووضع طريقة يمكن من خلالها، للقذف النووي، لشعرة وحيدة أن ينشط الزرنيخ الموجود فيها بشكل يسمح بقياس الكمية بسهولة.

لدى مغادرة المكتبة، شعر ستين فورشوفود بالارتياح: هاملتون سميث لا يمكن أن يرفض طلبه في تحليل شعرة واحدة، وعليه أن يبدأ بالبحث عن هذه الشعرة. قرر فورشوفود بالكتابة إلى الأمير نابليون، وهو أحد أحفاد الأخ الأصغر للامبراطور، جيروم بونابرت، والوريث المحتمل للعرش الامبراطوري.

سانت هيلين ـ تشرين أول ١٨١٥

بعد الانتهاء من تقديم وجبة العشاء، صرخ الراصد صرخته التقليدية المنتظرة: اليابسة! اقتاد الأميرال، نابليون وضباطه إلى الجسر العلوي. لقد غادرت الباخرة نورثمبرلاند ميناء بلايموث منذ واحد وسبعين يوماً. حاول المنفيون رؤية الجزيرة التي سوف تستقبلهم. شاهد نابليون من خلال منظاره، قمة جبل «ديان» كما قال الأميرال. أسدل الليل ظلامه، ولم يعد بالإمكان رؤية أي شيء، طيلة تلك الليلة كان المنفيون يتخيلون سانت هيلين، وهي التي كانوا يحلمون بها مراراً، أثناء رحلتهم الطويلة في جنوب الأطلسي.

كانت حياة المبعدين على الباخرة الانكليزية، وهي باخرة نظامية ذات ٧٤ مدفعاً، تكراراً لما سيجري في سانت هيلين، فقد عاش الفرنسيون في حالة غريبة وسيطة بين السجن والحرية. لم توضع عليهم الحراسة ولم تغلق مقراتهم أثناء الليل، وكانت لديهم الحرية الكاملة في التنقل في كل مكان في الباخرة. ومع ذلك، كانوا يرون في كل منعطف جسر أو ما بين الجسور السترة الحمراء وبنادق المئات من الجنود الموجودين على ظهر الباخرة لمنع أية محاولة للهرب. وعندما كانوا يتوجهون بأنظارهم إلى المحيط، كانوا يرون إحدى السفن التسعة المرافقة المحملة بالجنود، الذين سيدعمون الحامية الموجودة في سانت هيلين.

كانت حياة الفرنسيين والانكليز على ظهر الباخرة تدور حول شخصية نابليون الغامضة؛ نصف سجين، نصف امبراطور.

كانت الحكومة الانكليزية منقسمة حول الطريقة التي يتوجب فيها معاملة سيد أوروبا السابق، وقد قررت مؤخراً، ولأسباب بروتوكولية، اعتباره «جنرالاً

بدون تكليف»، الجنرال بونابرت. وقد استقبل نابليون هذا اللقب بمرارة، وبات هذا الإزعاج الرخيص مصدراً للنزاعات الدائمة بين الانكليز والفرنسيين، ذلك أن نابليون لم يكن يتمسك كثيراً بالألقاب، فقد كانت واقعيته تضعه فوق كل هذه الترهات. لقد وزع طيلة سنواته في السلطة، الكثير من هذه التسليات، ومات الآلاف من الناس من أجل قطعة من شريط قماشي. وعندما يدور الحديث أمامه عن الأوسمة، الأقرب إلى الدمى، يجيب: «إن البشرية تدار بمثل هذه الدمى». لكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لتاجه. فقد منحه إياه الشعب الفرنسي في استفتاء ١٨٠٤. يؤمن نابليون بالموهبة والجدارة، ويحتقر أولئك الذين يدينون بسلطتهم للحظ وحده أو لأصولهم الأسروية.

في فرنسا، نال البوربون لقبهم من بعض «الرهبان والقساوسة» وليس من الشعب. ولم ينل أي من الملوك الذين قاتلهم نابليون، حق الملكية من استفتاء شعبي. لقد بات بإمكان أمثال هؤلاء الرجال سجنه أو حتى قتله، لكن لا يمكنهم حرمانه من التاج. فشعب فرنسا وحده له هذا الحق. وبالنسبة له ولرفاقه، لن يكون «الجنرال بونابرت» وإنما «الامبراطور» أبداً، حتى ولو لم يكن في مملكته سوى سبعة وعشرون شخصاً من الرجال والنساء والأطفال.

في الباخرة نورثمبرلاند، وقع نابليون في الروتين اليومي البعيد كثيراً عن أيام العمل التي كانت تستمر ست عشرة ساعة يومياً في قصر التويلري. أعطى الامبراطور أحدى أفضل المقصورتين في أعلى السفينة ذات الاتجاهات الثلاث، خلف صاري السفينة. وكانت المقصورة الثانية للأميرال جورج كوكبورن، آمر الأسطول المسافر إلى سانت هيلين. كان المسافرون الآخرون يتكومون في مقصورات صغيرة بدون تهوية، وتلك هي الحال دائماً في السفن العسكرية. استبدل مارشان سرير النوم بأحد السريرين الحديديين للامبراطور، وهما سريران ضيقان بستائر من الحرير الأخضر رافقا نابليون في جميع معاركه. بقية الأثاث كان عبارة عن تواليت، طاولة صغيرة ومقعد وبعض اللوحات التي علقها مارشان ـ هاوي الرسم ـ في بعض الأماكن لإعطاء مظهر مقبول لسكن سيده. كان مارشان ينام على فراش، موضوع على أرض المقصورة. كان نابليون يقطع نومه، عند أرقه، ليطلب منه فانوسه المغطى وكتاباً وريشة وحبراً

وورقاً، يتناول مارشان كتاباً من بين مجموعة الكتب التي جمعها على عجل قبل مغادرة مالميزون. تشكل هذه المجموعة بديلاً عن «مكتبة الميدان»، التي كانت تحتوي على ستمائة كتاب، موضوعة في ستة صناديق من الأكاجو، وترافق، كالسريرين الامبراطور دائماً في معاركه. كان نابليون يقرأ في سريره ويضع الملاحظات على ضوء الفانوس، في حين كان الخادم الشاب يبقى يقظاً في فراشه. طيلة تلك الساعات الليلية كان نابليون لا يتكلم إلا لإعطاء أمر إلى مارشان. وكان مارشان يحمل القهوة السوداء إلى نابليون، وفي حوالي العاشرة يحمل إليه طعام الإفطار الذي يتضمن: اللحم والقليل من الخمرة. وكان يمضي في المقصورة أكثر أوقاته، يطلب مراراً من مارشان استدعاء أحد ضباطه، وغالباً ما يكون الكاتب الارستقراطي عمانويل دو لاس كاسس. كان لاس كاسس رجلاً قصير القامة، معتداً بنفسه، يكره الضباط الآخرين الذين يسمونه «بالجزويت» ويغارون من هذا القادم الجديد الذي يبحث جاهداً للحصول على حظوة لدى نابليون. بدأ الامبراطور مع لاس كاسس معركته الأخيرة: دفاعه عن نفسه أمام محكمة التاريخ. كان الامبراطور، يصعد مقصورته في رداء الغرفة، مثل النمر في قفص يغرف من ذاكرته الرائعة، رواية سنوات مجده، «ويملي بسرعة كبيرة، كسرعة الكلام». كتب لاس كاسس «كان علي إيجاد نوع من الكتابة الهيروغليفية، وكنت أسرع للاملاء بدوري على ولدي. . .» وفي اليوم التالي، كان لاس كاسس يعيد قراءة ما كتبه هو وابنه مساء البارحة، يراجعه نابليون ويعيد إملاء مقطع عدة مرات ـ حتى المرة العاشرة أحياناً ـ كي يأخذ الشكل المرغوب.

بعد الظهر، يهيىء مارشان السترة الرسمية الخضراء لكولونيل الحراسة التي كان يلبسها نابليون قبل الذهاب إلى اجتماع الضباط. يلعب الشطرنج كل يوم تقريباً، لمدة ساعتين، مع أحد رفاق المنفى، إلا أن الاستراتيجي الكبير كان لاعباً رديئاً للشطرنج. كان يخسر في معظم الأحيان، تفكيره كان يسرح في أشياء أخرى. العشاء، كان يقدم في الساعة الخامسة، في مقصورة أخرى من القسم العلوي، حيث كان نابليون يرأس الطاولة المربعة الأخرى. يقف اثنان من الخدم وراءه، إلى اليمين كانت تجلس فاني برتران زوجة مارشال القصر

الكبير الشقراء، وهو أقدم الضباط المرافقين لنابليون إلى المنفى. إلى اليسار، كان يجلس الأميرال، ثم الضباط الآخرون من الفرنسيين والانكليز وكذلك ألبين دو مونطولون، بحسب رتبهم. وبناء على أمر الأميرال، كان الحديث يدور بالفرنسية، لاس كاسس كان يقوم بدور المترجم، إذا لزم الأمر، كانت موسيقى الفوج الثالث والخمسين أثناء العشاء بالرغم من انزعاج الفرنسيين. كان نابليون يتحدث قليلاً أثناء الطعام، غالباً ما يستخدم أصابعه في الأكل، ويترك الطاولة فجأة في حين كان الانكليز يستمرون في الثرثرة والشراب. في إحدى الأمسيات، شاهد نابليون وجهاً جديداً هو القبطان رايت الذي كان يقود قلعية ترافق الباخرة نورثمبرلاند. سأله نابليون: هل أنت قريب للقبطان رايت الذي اتهمني الساخرون بخنقه؟ أجاب القبطان: نعم يا سيدي، ويسرني أن أعلم كيف تمكن هذا الشيطان المسكين من الانتحار، ذلك انني لم أصدق يوماً أنه بإمكانك إعدامه بدون سبب وجيه».

ابتدأ نابليون الكلام: سأقول لك، وراح يسرد كيف أن ذلك القبطان كان يقود باخرة انكليزية مكلفة بالوصول إلى الجانب الفرنسي لإيصال متآمرين مما دعي «بمؤامرة الماكينة العجيبة» كانت محاولة قتل جرت عام ١٨٠٠، من قبل مهاجرين ملكيين وقد فشلت لأن عربة نابليون قد عبرت مكان الاعتداء عندما حدث الانفجار. أضاف نابليون لقد تعبت من هذه المؤامرات، وقررت وضع حد لها». أمرت بتوقيف رايت وحبسه في السجن لحين توقيع السلام مع بلدكم. إلا أن الحرب وعذاب الضمير دفعاه إلى الانتحار. إن مثل هذه القضية يجب أن لا تؤثر عليكم أنتم معشر الانكليز، فالانتحار عادة عامة لديكم». بعدها وقف نابليون وترك الطاولة فجأة دون أن يضيف أية كلمة.

بعد العشاء، كان نابليون يصعد ظهر الباخرة، برفقة أحد ضباطه أو الأميرال نفسه. كان الامبراطور المخلوع، القصير الذي بات بديناً، يشكل تبايناً غريباً مع سجانه الطويل النحيل. يمشي الاثنان معاً على ظهر السفينة متأبطاً أحدهما ذراع الآخر، يتحدثا عن مغامراتهما العسكرية. كان نائب الأميرال كوكبورن، الذي يصغر نابليون بأربع سنوات رجلاً قاسياً، شديد القسمات، غيوراً على سلطته، لكنه معروف بانضباطه. حارب الفرنسيين في طولون حيث

حقق نابليون انتصاره الأول، وقاد القوات الانكليزية التي فتحت مدينة واشنطن عام ١٨١٢. بدأ كوكبورن الرحلة إلى سانت هيلين مصمماً على أن يدع سجين إنكلترا «يتصرف كالامبراطور». إلا أن صبر وعظمة نابليون في مواجهة العداء، قد انتصرت عليه. في نهاية الرحلة وبالرغم من انتباه كوكبورن، أصبح نابليون شديد الشعبية على ظهر الباخرة، كما كان عليه الأمر قبل أسابيع، في الباخرة بيلروفون. فالضباط الشباب كانوا يحملقون في وجهه لدى مروره، ويقفون وقفة الاستعداد بالقرب منه عندما يستند إلى المدفع الذي سموه «مدفع الامبراطور».

بعد نزهته المسائية على ظهر السفينة، يعود نابليون إلى صالون الضباط ويلعب الورق مع مجموعة كانت تتضمن عادة كوكبورن وعدداً من مرافقي نابليون وزوجتي الضابطين فاني برتران وألبين مونطولون.

كانوا يلعبون الويست و٢١ وكانت القطع النقدية في اللعبة الليرة النابليونية ترمز إلى التاريخ الحديث لفرنسا. نابليون يلعب بشكل ميكانيكي، بنوع من عدم الاكتراث، وكأن اللعب بقطعة ذهبية لدى إعطاء ورقة اللعب لا تثير الاهتمام، عند رجل كان يلعب بمصير الأمم، بعد انتهاء المعركة. كان يخسر دائماً تقريباً، عدا يوم ١٥ آب، يوم عيد ميلاده السادس والأربعين، رفعت بعض الكؤوس لصحته بهذه المناسبة، رافقها حظ استثنائي بلعبة الواحد والعشرين.

قال نابليون لمارشان عندما رجع إلى مقصورته: «لقد كان حظي اليوم كبيراً فقد ربحت ٨٠ ليرة نابليونية».

لقد بدا هذ الحظ استثنائياً لمارشان الذي كان يضطر لتعويض الليرات التي كان يخسرها سيده كل ليلة.

كانت مثل التسليات نادرة، والزمن يمر ثقيلاً على المبعدين، في حين كانت السفينة تبحر ببطء، إلى هدفها النهائي.

تم اجتياز خط الاستواء، اختفت نجمة القطب من السماء وحل محلها صليب الجنوب الذي لم يره فرنسي من قبل، وراح المبعدون يستذكرون التفاصيل، لجعل الأيام مختلفة فيما بينها. في أحد الأيام شوهدت أسماك

طائرة، وفي يوم آخر سقط رجل في البحر. وفي صبيحة أحد الأيام صعد نابليون ظهر الباخرة ليشاهد سمكة قرش مضرجة بالدم وقد اصطادها البحارة. وبفضل أحد البحارة الذي سمح له بالنزول إلى اليابسة في ماديرا، تمكن مارشان من الحصول على علبه ألوان مائية «للتسلية بها في سانت هيلين». حضر مارشان جلد أحد البحارة المذنبين، فاندهش من المشهد، وتساءل كيف لا يثور من هذه المعاملة البربرية؟ فالتأثير كبير على الانسان الذي يلقى مثل هذا العقاب. ومن الصعب الاعتقاد أنه سيشعر بأي إحساس بالكرامة بعد ذلك.

كان المبعدون يعتريهم الضجر وتنفجر بينهم المشاحنات فاني برتران تتشاجر مع ألبين دو مونطولون، المرأة الجميلة المغناج، التي كان لها جمال حقيقي في شبابها. غورغو، ضابط المدفعية الشاب والمتهور، كان لا يطيق عزوبته، ويتشاجر أثناء الطعام مع مونطولون، والذي كان يجاريه كثيراً. كان يمسك بجريدة ويسجل عليها ملاحظات ماكرة عن ألبين الجميلة. فقد كان لا يجدها بذلك الجمال الذي تتصوره، كانت لديها عادة بشعة في حك رقبتها والغنج. وفي ذلك ما يثير غورغو. إلا أن لاس كاسس كان يغيظه أكثر. لا أحد يحب لاس كاسس، فالمؤرخ الصغير يعطي نفسه أكثر من قدرها. والجميع كانوا يتذمرون من عادات الانكليز «التي تختلف عن عاداتنا» حسبما ذكر لاس كاسس في مذكراته.

كان الفرنسيون لا يعرفون شيئاً عما ينتظرهم في سانت هيلين، إلا أنهم كانوا مقتنعين بأن منفاهم لن يكون أبدياً. فمنذ عام مضى، كان نابليون في جزيرة إلبا، ومعه برتران ومارشان في المنفى الذي لم يدم سوى ستة أشهر. فرنسا، يمكن أن تطرد البوربون وأن تستدعي الامبراطور إلى التويلري، وربما يكون هنا من يأتي لتخليصهم فقد شاهدوا خلال الأيام الأولى من إبحارهم، سفناً حربية فرنسية، وسرت إشاعات - تم تكذيبها بسرعة - بأنها أسطول الانقاذ. والانكليز في أسوأ الأحوال، سوف يضعونهم في نهاية الأمر في منفى قريب من أوروبا. كان معظمهم ينتظر نهاية هذه الرحلة الطويلة. كتب مارشان «بالنسبة لي، تعبت من هذا المنزل العائم، وتعبت من ألقاب الجنرال وصاحب السعادة التي تقال للامبراطور ومهما كان المكان الذي سنسكنه، فإنه أفضل من

الباخرة نورثمبرلاند شريطة أن لا نكون لوحدنا. لقد وصلنا أخيراً، وفي الصباح سوف نشاهد سانت هيلين».

في اليوم التالي، ألقت نورثمبرلاند مراسيها في جيمس تاون، الميناء الوحيد في الجزيرة. لبس نابليون بسرعة وصعد ظهر السفينة يرافقه مارشان. أخذ نابليون ومرافقوه يتأملون مكان إقامتهم. شاهدوا سوراً عالياً من البازلت، لا يحتوي على أي نوع من النبات، يرتفع وكأنه حصن طبيعي بين جبلين رماديين. أمامهما، ينتصب عدد من البيوت الصفراء التي تتميز عن الصخرة الداكنة. تلك هي منازل ميناء جيمس تاون الصغير. مشهد كئيب ومنظر شديد الاختلاف عن المناظر اللطيفة في فرنسا أو الجمال الطبيعي في كورسيكا. «إنه الشيطان الذي يسكن هذه الجزيرة بعد أن طار من العالم الآخر»، حسبما قالت إحدى السيدات المرافقة لنابليون. والانكليز أنفسهم تقززوا من هذا المكان الذي وصفه الطبيب الجراح العسكري ولتر هنري بأنه «أبشع وأحزن صخرة يمكن تخيلها على سطح خشن ومصفح، تبرز من قاع الحفر البحرية كنتوءات سوداء بشعة».

بدت الجزيرة بالنسبة لمارشان وكأنها قبر. كان نابليون يتأملها بصمت. كتب مارشان أن «الأمبراطور بعد تفحص لعدة ثوان عاد إلى مقصورته بدون أن يعطي أية ملاحظة، ولم يترك أثراً يدعو للتكهن بما يجول في خاطره». بعدها قال نابليون أمام غورغو بأنها «ليست إقامة جميلة. لو بقيت في مصر، لكنت اليوم امبراطور الشرق كله». ثم طلب من لاس كاسس اللحاق به للعمل كالمعتاد.

كان الأميرال كوكبورن أول من نزل إلى اليابسة وعاد بعد عدة ساعات برفقة حاكم الجزيرة الكولونيل مارك وايلكس الذي قدمه إلى نابليون أمام تشكيلة الضباط. وايلكس، رجل متميز في الخمسين من العمر، ذو شعر رمادي مضفر وحواجب كثيفة سوداء أقرب إلى المثقف منه إلى العسكري، ملامحه مريحة ولطيفة. وباعتبار أن كوكبورن سوف يحل محله حاكماً للجزيرة، فقد كان يتحدث بحرية. تفاهم الأثنان جيداً. وبسرعته المعتادة راح نابليون يطرح عليه الأسئلة عن الجزيرة التي كان يحكمها منذ عامين، وراح يقيس مدى عزلته

في سانت هيلين. اكتشف البرتغاليون هذه الجزيرة عام ١٥٠٢، واليوم، هي ملك لشركة الهند الشرقية وهي على بعد ١٧٥٠ ميل من مدينة الكاب في جنوب أفريقيا وعلى بعد ١٨٠٠ ميل من أميركا الجنوبية و٤٠٠٠ ميل من أوروبا، وأقرب يابسة إليها هي جزيرة أسانسيون على مسافة ٧٠٠ ميل، وهي عبارة عن جبل بركاني ضائع في المحيط الواسع وملك للإنكليز. إنه من غير المفيد إنكار الحقيقة؛ فقد اختار الانكليز سانت هيلين منفى ثانياً لنابليون لعزلتها الكبيرة.

من يعيش في سانت هيلين؟ أجاب وايلكس أن عرض الجزيرة (ثلاثة عشر كيلومتراً وطولها تسعة عشر كيلومتراً) يسكنها حوالي /٤٠٠٠/ نسمة بمن فيهم الحامية المكونة من ألف رجل والتي سوف تتضاعف ثلاثة مرات، بسبب وجود نابليون. المدنيون؟ أقل من ثمانية مائة من الأوروبيين، والآخرين من السود والصينيين ولاسكار. ثلاثة أرباع السود ما زالوا من العبيد.

كان نابليون يهز رأسه بعد كل جواب، ثم يطرح سؤالاً آخر. يعيش السكان المحليون «البامستوك» من التجارة البحرية القائمة بسبب وضع الجزيرة في الطريق ما بين إنكلترا وأفريقيا الجنوبية والهند. فالبواخر المسافرة إلى الشرق أو العائدة منه تتوقف في سانت هيلين للتزود بالماء، وتستريح الطواقم خلال ساعات، في مشارب جيمس تاون. يجب استيراد كل شيء من المحروقات واللحم والمنتجات الصناعية، مما يفسر غلاء المعيشة فيها. وبشكل عام، فإن ما يحدث في العالم لا يهم كثيراً «البامستوك». لا تصل أخبار أوروبا إلا بعد ثلاثة أشهر ونادراً ما تخص الجزيرة. فالثرثرة المحلية هي ما يهم السكان. ومع ذلك فإنهم سوف يعرفون الحدث الكبير في تاريخ سانت هيلين. قبل خمسة أيام علموا ما سيحدث لهم بفضل الباخرة إيكاروس، إحدى البواخر العسكرية لأسطول كوكبورن التي انفصلت عن نورثمبرلاند في عرض مياه مادير واتخذت طريقاً مختلفاً إلى الغرب.

والواقع، أن سانت هيلين تتلقى جميع الأحداث الكبرى في أوروبا خلال الأشهر الأخيرة مختلطة: عودة نابليون من جزيرة إلبا، المائة يوم، واترلو وأخيراً إبعاد نابليون إلى جزيرتهم الصغيرة.

بالرغم من عدم اكتراثهم الأسطوري بأحداث العالم الخارجي، يظهر

سكان سانت هيلين نوعاً من الإثارة منذ إعلان الخبر الذي جاء مع إيكاروس. وقد أصاب الجزيرة نوع من الرهبة والفضول. فسمعة نابليون قد وصلت إلى الجزيرة البعيدة كالصدى. وقد بات نوعاً من الأسطورة المخيفة، وبُعْدَاً يتجاوز حدود البشر. فهو الوحش الذي تتحدث عنه المربيات الإنكليزيات إلى الأولاد، لإفزاعهم.

مثلاً، تروي بيتسي بالكومب في مذكراتها أنه عندما كان عمرها أربعة عشرة عاماً، فإن الفكرة الأولى التي كانت لديّ عن نابليون هي صورة وحش أو عملاق مخيف بعين كبيرة لماعة في وسط الجبهة وأسنان كبيرة ناتئة يمزق بها البنات الصعبات ويلتهمهن وخاصة أولئك اللواتي لا يحفظن دروسهن».

في كل يوم كان يتوجه سكان الجزيرة إلى أرصفة ميناء جيمس تاون أملاً في رؤية العملاق المصفد. لم ينزل نابليون من الباخرة إلا بعد يومين، في قارب شراعي ومنه نزل إلى اليابسة. كان الجنود يبعدون الجمهور بالعصي، وكان الوقت ليلاً، أشعل الناس الفوانيس كي يتمكنوا من مشاهدته، كان من بين المتفرجين بيتسي بالكومب وأسرتها، وقد رجعوا خائبين. تروي بيتسي «أن الظلام كان دامساً فلم نتمكن من مشاهدته بوضوح. شاهدناه يمشي بين الأميرال والجنرال برتران. كأنه كان ملحفاً بقفطان. رأيت إشعاع نجم من الجواهر كان يحملها فوق قلبه... عدنا إلى البريار ليلاً لنتحدث عن نابليون ونحلم به...»

يشير أرشيف سانت هيلين بتاريخ ١٧ تشرين أول ١٨١٥ إلى: «وصول الجنرال نابليون بونابرت وبعض الأفراد بصفة سجناء دولة بالباخرة نورثمبرلاند». تلك كانت حقيقة وضعهم.

باريس ـ أيار ١٩٦٠

وافق المقدم لاشوك على الالتقاء مع ستين فورشوفود، فأخذت القضية مجراها. وقد آن الأوان!

وصل السويدي إلى العاصمة الفرنسية منذ أسبوع (خلال نهاية الأسبوع التي سبقت عيد الصعود) أملاً في رؤية الأمير نابليون. وقد طلب منه وريث الأسرة الامبراطورية، الذي كتب له من غوتبورغ، وتلقى منه جواباً، وطلب منه الاتصال به هاتفياً عندما يصل إلى باريس. اتصل فورشوفود بالأمير من غرفته في الفندق، يوم الاثنين الذي تلى وصوله، وقد أجابته معاونة سكرتير الأمير، ووعدته أن يتصل به السيد فلوري سكرتير الأمير. انتظر فورشوفود طيلة اليوم في غرفته، في حين قامت زوجته بزيارة باريس بإعتبار أنها تزور باريس للمرة الأولى. لم تعد السكرتيرة الاتصال. وفي الساعة ١٩,٣٠ قرر فورشوفود مغادرة غرفته لتناول العشاء. في صبيحة اليوم التالي، أعاد الاتصال مع معاونة السكرتير التي أعربت عن دهشتها لعدم الاتصال من قبل سيدها، وأنه سوف يتصل بالتأكيد هذا اليوم، تلا ذلك يوم آخر من الانتظار. وفي اليوم التالي، الأربعاء كرر فورشوفود اتصاله وحصل على نفس الجواب، ولم يتصل السكرتير هذه المرة أيضاً.

في الغد، يوم الخميس، هو عيد الصعود، وهو يوم عطلة. والصمت الموجود في الطرف الآخر للهاتف أقنع فورشوفود بأن الأمير نابليون ليست لديه أية رغبة في رؤية هذا الأجنبي، الذي وصل من السويد البعيدة لفتح قضية موت جده الشهير. عندها بدأ فورشوفورد يفهم تردد الأمير بسبب التفكير في طرح الموضوع. وباعتباره أحد أبناء بونابرت، وبحكم المطالبة بالعرش الامبراطوري، كان عليه أن يتصرف بأناة في فرنسا حتى في النصف الثاني من

القرن العشرين. فالحكومة الفرنسية لم تلغ قانون النفي لآل بونابرت إلا منذ عشرة أعوام. وقضية التسميم يمكن أن تثير عاصفة سياسية وتدفع بالحكومة إلى العودة عن تصريحها بالإقامة. إذن، لدى الأمير أسباب وجيهة في أن يبقي رفاة الامبراطور في سلام. وفورشوفود لا يأمل في أية مساعدة من هذه الناحية.

وبينما كان فورشوفود مغلقاً على نفسه الغرفة في الفندق، كان يفكر في الاستقصاء الذي جاء من أجله إلى باريس. لقد بدأ يشعر بالانزعاج، وانتابه شعور الأبله في دوره الجديد كمحقق هاوٍ، لم يحظ بأي تقدم. فهو لم ير من باريس المدينة التي طالما حلم برؤيتها سوى طرف الشارع من نافذة الفندق ولديه عمله في غوتبورغ، وأبحاث علمية يتوجب إنهاؤها. لقد حان الوقت للعودة إلى بلاده، بعد كل هذا الوقت الضائع، بات مستعداً للتراجع. لكنه عنيد وقد خصص الكثير من الجهد لقضية نابليون خلال الأشهر الأخيرة. لذا، أعطى لنفسه بضعة أيام أخرى، للتفكير بعد أن تجاوز مرحلة التثبيط، بدأ يفكر في خطة الانتقام. فقد تذكر أنه في مذكرات مارشان، تحت الإشارة إلى سيدة تدعى «سيلفستر» يعتقد بأنها تمتلك ضفيرة شعر لنابليون. راجع فورشوفود دليل هواتف باريس في الفندق، لكنه اكتشف بأن هناك على الأقل خمسين اسماً «سيلفستر» في باريس. فمن أين يبدأ؟ وهل أن السيدة سيلفستر المذكورة في الحواشي المضافة إلى المذكرات ما زالت على قيد الحياة؟ وهل تسكن باريس؟ ربما يستطيع التوجه إلى شخص آخر، ورد في ذهنه اسم لاشوك. ولحسن الحظ لا يوجد سوى شخص واحد بهذا الاسم في دليل باريس، ربما يكون المقدم الشهير لاشوك، الأخصائي الكبير في تاريخ نابليون ومدير المتحف الحربي سابقاً، والمشارك في إعادة طباعة مذكرات مارشان. أدار فورشوفود قرص الهاتف، ومنذ المحاولة الأولى حصل على المقدم لاشوك شخصياً. وهل يمكن المجيء للحديث في موضوع يخص نابليون؟ كان الصوت الذي يحدثه حميماً: الموعد غداً. الرجل الذي استقبل السويدي وزوجته في صالون منزله في موغارتر كان مربوعاً، أصلعاً، متقدماً في السن، فرنسياً. كان لطيفاً مع زوجة فورشوفود بحيث أن الزوج كاد يصدق بالحب منذ النظرة الأولى. بناء على دعوة لاشوك، بدأ السويدي يعرض نظريته، وراح

يشرح له كيف أنه اطلع منذ عدة أشهر على طريقة اكتشفها البروفسور هاملتون سميث، من جامعة غلاسكو، تسمح بإختبار وجود الزرنيخ من خلال شعرة واحدة. وأنهى كلامه«بأن ذلك هو الذي قاده إلى باريس بحثاً عن شعرة واحدة من شعر الامبرطور».

شعر الامبراطور؟ لديّ قليل منه، تعال معي. أجاب لاشوك. دخل الاثنان غرفة هي عبارة عن متحف خاص للمقدم. غرفة مليئة بآثار نابليونية، سيوف ورماح معلقة على الجدران. في إحدى الزوايا شيء يشبه المذبح مغطى بالأغطية النازلة من السقف. على المذبح، تمثال من الحص الأبيض للقناع الجنائزي لنابليون. شرح لاشوك بأنه «آخر وجه للامبراطور» وهنا، يوجد ما جاء فورشوفود للبحث عنه في باريس. صندوق «آثار» مارشان وهو الصندوق الخشبي الذي وضع فيه الخادم ذكريات سانت هيلين. في الصندوق رسوم رسمها مارشان أثناء مراسم الدفن، وورق اللعب التي كتب عليها المحتضر في الغرفة المظلمة آخر وصايا الامبراطور.

بين الموجودات كان هناك مغلف صغير كتب عليه مارشان بخط يده: «شعر الامبراطور»، وهو يحتوي على خصلة الشعر التي قصت في اليوم التالي لوفاة نابليون. تأمل فورشوفود الخصلة بصمت. كانت بنية ـ حمراء، ملساء كالحرير. ربما تكشف سرها، بعد أكثر من قرن من الزمان.

أخذ المقدم لاشوك المغلف من الصندوق، وقدمه باحترام إلى زوجة فورشوفود. وبشكل حاذق (كانت مساعدة سيئة لفورشوفود قبل أن تصبح زوجته)، أخذت أولابريتا شعرة واحدة بواسطة ملقط ووضعتها في العلبة المعدنية الصغيرة التي قدمها لها زوجها.

قال لاشوك: خذي يا سيدتي شعرات أخرى، لكنها رفضت العرض بتهذيب، وزوجها لم يلح في ذلك. وقد ندم على ذلك فيما بعد. أغلق فورشوفود غطاء العلبة بهدوء. هذه الشعرة يمكن أن تؤكد(أو تنفي) فرضيته.

عندها سأل المقدم لاشوك: ربما ترغبين في رؤية نحلة؟ أجاب فورشوفود بسرعة بأنها ستكون مسرورة. أشار الفرنسي إلى نحلة تبلغ أطوالها

حوالي ١٠ × ١٥ سنتيمترات منسوجة من خيط ذهبي مطرز بدقة، كانت تزين ثوب التتويج لنابليون. لقد اختار الامبراطور، كما هو معروف، النحلة شعاراً شخصياً ـ والنسر كان يمثل الامبراطور ـ. كان فورشوفود يعتقد دائماً بأن ذلك شعار مناسب تماماً لشخص كانت قدرته على العمل أسطورية. لم يكن فورشوفود حساساً للشعارات، إلا أن تقديم هذه النحلة، رمز الامبراطور، في نفس الوقت مع الشعرة الثمينة، أعطاه الشعور، كأن نابليون شخصياً قد كلفه بكشف سر موته. قال فورشوفود للمقدم لاشوك لدى مغادرته المنزل: «هذا أجمل يوم في حياتي».



المارشال برتران. الجنرال غورغو.

البريار، سانت هيلين
كانون أول ١٨١٥

في اليوم الذي غادر فيه نابليون البريار، هرعت بيتسي بالكومب إلى بيتها وأغلقت باب غرفتها، لتبكي. فالحياة في سانت هيلين مزعجة في أغلب الأحيان، لفتاة جذابة وكيسة في الرابعة عشر ربيعاً. لكن الشهرين الأخيرين، ومنذ وصول نابليون كانا مليئين باللحظات الرائعة. وعلى أية حال، فأية فتاة يمكنها الادعاء، أن رفيقها في اللعب، كان سيد الدنيا؟

عادت بيتسي وأختها، التي تكبرها بعامين، في العام الماضي، من مدرستهما في إنكلترا، حيث تعلمتا اللغة الفرنسية. والدهما، ويليام بالكومب، هو الممثل البحري والمورد لشركة الهند الشرقية، وهذا عمل مربح مادياً يضع الأسرة بين الأسر المحظية في الجزيرة. تعيش أسرة بالكومب حياة مريحة مع الخدم والعبيد، في بيت مبني على تلة تبعد عن ميناء المدينة الصغير أقل من كيلومترين. وعلى مسافة خمسين متراً من البيت، لديهم جناح للضيوف. لا يوجد شيء جميل في البريار، لكنها كما كتبت بيتسي فيما بعد «محاطة، كسائر أنحاء هذا المكان المخضر، بجبال جرداء، حيث يبدو المكان وكأنه جنة عدن وسط تلك المنطقة الجرداء. ممر رائع من شجر تين البنغال يفضي إلى ذلك المكان، وكل طرف محاط بشجر اللاكو تتناوب مع شجر الآس والرمان، مع أحواض من الورود البيضاء تشبه زهر النسرين في إنكلترا. ومن هنا جاء اسم البيت الريفي*. درب مظلل بشجر الرمان يرتفع عشرة إلى اثني عشر متراً ويفضي إلى الحديقة.»

(*) البريار: تعني زهر النسرين باللغة الانكليزية.

لاحظ نابليون منذ اليوم التالي لوصوله إلى سانت هيلين ممر شجر تين البنغال كان الامبراطور عائداً من زيارة لونغوود ، المكان الموجود في داخل الأراضي التي اختارها الانكليز لإقامته، وجد لونغوود في حالة بائسة، ولاحظ بأنه ليس بإمكانه السكن فيها قبل فترة طويلة. وعندما كان عائداً من جيمس تاون متعباً، شاهد مدخل البريار. كان نابليون يكره سكنه المؤقت في المدينة بسبب الفضوليين الذين كانوا يأتون لمشاهدته من خلف النافذة. لذا اقترح على الأميرال كوكبورن، المكلف بتنظيم الإقامة، أن يدعه يقيم في البيت الريفي في البريار بانتظار ترتيب لونغوود، لاستقباله.

روت بيتسي بالكومب، بعد سنوات عديدة في لندن «بعد تفتح الآمال البراقة لشبابي الأول حيث أزهرت وذبلت، قصة تلك الأيام التي لا تنسى في البريار، عندما كان عمرها أربعة عشر عاماً، وكان نابليون ضيف الأسرة». تدخل تلك القصة بشكل غريب وعاطفي في الحياة المضطربة لنابليون والصورة التي رسمتها عنه بيتسي بالكومب لا تشبه أية واحدة أخرى سواها. وتضيف:

«كنت أرى مشاعر الرهبة المختلطة بالإعجاب بوضوح عندما شاهدته للمرة الأولى، راكباً على الحصان نبيلاً ومؤثراً. كان الحيوان الذي يركبه رائعاً، أسود داكناً. يصعد الشارع محني الرأس يعلك رسنه، فخوراً بفارسه الذي كان سيد أوروبا كلها تقريباً. . . كان نابليون يجلس على أحد مقاعد بيتنا، بعد أن يتملاه بعيون النسر، ويهنيء والدتي على هذا المنزل الساحر. عندما يبدأ الكلام، كانت الابتسامة الساحرة وطريقته المحببة، تمحو كل أثر للرعب أحمله عنه.

وعندما يتحدث إلى والدتي، كنت ألاحظ ما يميزه باهتمام. وبالتأكيد، فإنني لم أشاهد أحداً من قبل بهذا الجسم الرائع المؤثر. إن صورته تعطي فكرة عامة جيدة عن هذه القسمات، لكن ابتسامته وتعبير عينيه لا يمكن نقلها في لوحة، وفي ذلك سحر نابليون الرئيسي».

الفتاة التي يراها نابليون جميلة شقراء متوردة الوجنتين، في جسم مراهقة نحيلة، بدأت منذ قليل تأخذ شكل المرأة. تحمل قبعة فوق شعرها الفوضوي، وحمالة النهدين من الدانتيل وخراطة قصيرة فوق بنطال ينزل حتى الكعبين -

وتلك الموضة التي كان يكرهها نابليون كثيراً. سيقول لها نابليون فيما بعد، بأنه سوف يمنع هذه الموضة إن إصبح حاكماً للمدينة. كان نظر الفتاة بعينين زرقاوين ثاقبتين مباشراً، مستفسراً، كنظر الامبراطور. دعا بيتسي للجلوس قريباً منه. وقد كتبت عن هذا اللقاء: . . . «كم كان قلبي يخفق. سألني بعدها: هل تتكلمين الفرنسية؟ أجبته نعم، فسألني من الذي علمني إياها. فأجبته. وراح يطرح عليّ أسئلة عديدة عن دراستي وبشكل خاص عن الجغرافيا. كان يسألني عن عواصم بلدان أوروبا المختلفة. ما هي عاصمة فرنسا؟ باريس. إيطاليا؟ روما. روسيا؟ في الوقت الحاضر بطرسبورغ، موسكو سابقاً. عندما قلت له ذلك، التفت فجأة ونظر إليّ بعينين ثاقبتين، وسألني بحدة! من أحرقها؟ عندما رأيت تعبير نظراته وتغيير صوته، تملكني الرعب القديم ولم أتمكن من النطق بأي مقطع.

سمعت الكثير عن حريق موسكو وحضرت مناقشات حول هذه النقطة لمعرفة من حرقها، الفرنسيون أم الروس؟ لذا فقد خفت من إمكانية الإساءة إليه، في حال الإشارة إلى الموضوع. لكنه كرر سؤاله فأجبت مضطربة: لا أعلم يا سيدي. نعم. . نعم، أجابني ضاحكاً بحدة. أنت تعرفين جيداً. بأنني قد أحرقتها! استعدت شجاعتي عندما رأيته يضحك وقلت له: أعتقد يا سيدي بأن الروس هم الذين أحرقوها للتخلص من الفرنسيين. ضحك مجدداً وبدا مرتاحاً لأنني أعرف شيئاً عن الموضوع».

كبرت صداقة رائعة بسرعة بين الامبراطور المخلوع والفتاة الشابة، في سانت هيلين. لقد توفر الوقت للمرة الأولى لدى نابليون؛ فليس هناك امبراطورية لادارتها، ولا جيش لقيادته. وعلى ما يبدو فإنه يكتشف الآن مع المراهقة بيتسي أنه لم يعش بعد.

عندما ترك أسرته في كورسيكا ليلتحق بالمدرسة العسكرية في بريان انتقل الفتى الصغير النحيل الذي يتحدث الفرنسية بصعوبة، مباشرة، من الطفولة إلى حياة الرجال. ومن هنا جاءت الهوة في العمر والجنسية. يكتشف نابليون وبيتسي بسرعة بأنهما يقتسمان نفس الروح العفوية في المرح. وأن نكاتهم كانت غالباً على حساب الآخرين. كتبت بيتسي:

«بعد وصوله بقليل، الآنسة الصغيرة ليغ، ابنة أحد أصدقائنا جاءت تزورنا في البريار. سمعت الصغيرة قصصاً مفزعة عن بونابرت، وعندما أعلمتها بأنه سوف يأتي للجلوس على العشب، جلست القرفصاء وصرخت من الفزع.

كنت قاسية. فقد ذهبت إلى نابليون بعد أن نسيت، أنا، خوفي القديم منه، وحدثته عن فزع البنت الصغيرة ورجوته أن يأتي معي إلى البيت. قام ومشى نحو البنت وهو يتلمس شعره بيده، هز رأسه، باتت هيأته مرعبة، وصرخ كالوحش. صرخت البنت الصغيرة بعنف حتى أن والدتي خافت عليها أن تصاب بالهيستريا واقتادتها بسرعة خارج الغرفة. انفجر نابليون ضاحكاً من الفكرة الموجودة لدى الانكليز عنه، ولم يصدقني عندما قلت له، بأنني كنت أرتعب منه قبلاً.

عندما اعترفت له بذلك، حاول أن يخيفني كما فعل للبنت الصغيرة ليغ بخربطة شعره وتعديل قسماته، وقد بدا لي مضحكاً وليس مخيفاً، فانفجرت ضاحكة معه، عندها حاول أن يطلق صرخته الوحشية دون أن يتمكن من ذلك بالقرب مني. قال بأن ذلك صراخ قوزاقي. قد يكون ذلك صحيحاً. كان ذلك بربرياً وكأنه حقيقي».

سحر مزاج بيتسي الخصامي نابليون ومن ناحيتها كانت سعيدة لأنها وجدت شخصاً كبيراً أعجبته عفرتتها، ولا يعاقبها كما يفعل عادة والدها. كانت تشعر بالفخار لأنها لم تكن تترك أياً من نكات نابليون دون أن ترد عليها. اكتشف نابليون بأنه قد نجح في استفزازها عندما هددها بتزويجها من ابن لاس كاسس، وهو فتى هادىء في نفس عمرها تقريباً، لكنه بالنسبة لها، أصغر منها بكثير.

«لا شيء كان يغيظني أكثر من هذا الموضوع. فلم أكن أحتمل أن أعامل كطفلة وخاصة في تلك الفترة حيث كانت الاستعدادت تجري لتنظيم حفلة رقص، كنت آمل الحصول على موافقة والدي لحضورها، وإن كنت أعرف سلفاً بأنه سوف يعترض، لصغر سني.

نابليون الذي كان شاهداً على ضجري، طلب من الشاب لاس كاسس

أن يقبلني، وأمسك بيدي في حين كان الفتى يقدم اعتذاره. بذلت كل جهدي للهرب، لكن عبثاً. بعد أن مررت يداي، ضربت بقسوة أذني «الصغير» لاس كاسس، وقررت الانتقام من نابليون. ولدى عودتي إلى المنزل، سنحت الفرصة وقررت على الفور اقتناصها. لم يكن هناك ممرات داخلية بين المنزل الذي يشغله الامبراطور وبيتنا، فالطريق النازل وعراً وضيقاً. ولا يمكن لأكثر من شخص واحد اجتيازه. كان نابليون يمشي في المقدمة، يتبعه لاس كاسس ثم ابنه وكانت أختي جان الأخيرة. تركت المجموعة تتقدم باطمئنان، في حين كنت وراءهم بحوالي عشرة أمتار. إندفعت بأقصى سرعة نحو أختي التي سقطت على الغلام الصغير، الذي سقط بدوره على والده، حيث اندفع هذا الأخير مضطرباً على الامبراطور.

بالرغم من تخفيف حدة الصدمة بسبب التدافع المتلاحق تمكن الامبراطور من البقاء واقفاً في الدرب الضيق. سعدت للاضطراب الذي أحدثته واعتقدت بأنني قد انتقمت للقبلة الإجبارية. لكن توجب عليّ أن أكتم هذا الانتصار: فقد وقع لاس كاسس أرضاً من الإهانة التي ألحقها بالامبراطور، وثار جنونه عندما سمع ضحكتي المجلجلة. أمسك بكتفي ودفعني بقوة الى الصخرة، مما أثار جنوني هذه المرة. أخذت في البكاء والتفت إلى نابليون قائلة: ـ لقد دفعني ياسيدي ـ قال الامبراطور: لا عليك، لا تبكي سوف أمسك به كي تعاقبيه. عاقبته فعلاً وضربته على أذنيه حتى طلب مني أن أسامحه، لكنني رفضت. تعب نابليون من الأمر وتركه طالباً منه الركض، وإذا لم يتمكن من الركض أسرع مني فسوف يعاقب ثانية. هرب بعدها وأنا أتابعه بنظري. كان نابليون يضرب يديه ويضحك بشدة. منذ ذلك الحادث، لم يعد لاس كاسس يحبني، وبات يناديني «بالصبي».

كان لاس كاسس والضباط الفرنسيون الآخرون يشعرون بشيء من السخط، بل حتى بالغيرة من تلك الفتاة الانكليزية المتحررة. فالبروتوكول القاسي كان ينظم علاقاتهم مع نابليون. إذ لا يمكن لأي ضابط الاقتراب من الامبراطور دون أن يستدعى لذلك من قبل أحد الخدم، ولا يمكن الحديث أو حتى الجلوس دون أن يدعى لذلك، وفي بعض الأحيان تتأخر هذه الدعوات.

وبالطبع، لا يجوز التوجه إلى نابليون إلا بعبارة «صاحب الجلالة». لكن أياً من هذه القواعد لم تكن تنطبق على بيتسي، فلم تكن تدعو رفيقها إلا بعبارة «بوني» وعلى الرغم من أنه لم يكن يسمح لأي شخص بالدخول إلى الحديقة حيث كان يمضي ساعات طوال في العمل. . . «فقد كنت مستثناة من هذا المنع بناءً على رغبة الامبراطور نفسه. كنت أعتبر شخصاً متميزاً. حتى عندما كان يملي جملة على لاس كاسس، كان يأتي ويستجيب لندائي». كان يقول لي «افتحي باب الحديقة وادخلي. وكان يستقبلني دائماً بابتسامة».

كان لاس كاسس يشهد دائماً لعب الامبراطور مع بيتسي، ويشعر بشيء من الغيظ إزاءها. كان هذا الضابط الأرستقراطي ذو الخمسين عاماً من العمر قليل الحفاوة، والوحيد الأكبر سناً من نابليون. كان مزهـواً من لقب المؤرخ والوحيد من مرافقي نابليون في المنفى الذين يسكنون البريار. لقد كتب في مذكراته: «كنت الوحيد الذي أختلي مع نابليـون في هذه الصحـراء لأبادلـه الحديث دون تكلف مع الرجل الذي قاد العالم، مع نابليون». لكن هذه الفتاة الصاخبة تدخل ضمن هذه الحاشية ببشاشة. وبالطبع، فإن هذا الانسان الطيب لاس كاسس المتقدم في السن نسبياً قد أصابه الهلع من ذلك الحادث الغريب الذي جرى عندما عرض نابليون سيفاً جميلاً على بيتسي. فقد روت القصة على النحو التالي:

«طلبت من نابليون أن يسمح لي بمشاهدته عن قرب. في تلك اللحظة خطر في ذهني الحادث الذي جرى صباح اليوم وأثارني فيه تصرف الامبراطور. كانت رغبتي شديدة في معاقبته على فعلته. سحبت السيف من غمده بسرعة وبدأت بالتلويح به فوق رأس الامبراطور، أخذ نابليون في التراجع حتى أوصلته إلى زاوية الغرفة. أوقفته هناك وطلبت منه أن يصلي لروحه قبل أن أقتله. أثارت صرخاتي أختي التي جاءت لنجدة نابليون. أنّبتني بشدة وقالت بأنها سوف تخبر والدي إن لم أتوقف فوراً. لكنني سخرت منها وبقيت على حالي والامبراطور أمامي حتى سقطت يدي من التعب». إنني أرى اليوم صورة رأس لاس كاسس ووجهه يرتجف خوفاً على الامبراطور، وقد استشاط غيـظاً من الإهانـة التي وجهتها له.

كان ينظر إلي وكأنه يريد أن يمحوني من الوجود فوراً، لكنه كان يعلم قوة يدي التي أمسكت بأذنيه قبلاً، مما جعله يتركني في أمان. عندما وضعت السيف، أمسك نابليون بأذني ـ نفس الأذن التي أمسك بها البارحة ـ قرصها مسبباً لي ألماً شديداً. طلبت المساعدة. أمسك بأنفي وشدّه بقسوة، على سبيل المداعبة. وطيلة الوقت، لم يفارقه حسن المزاج.

«لم يكن للحادث أن يتم لولا أن نابليون قد أغاظني صباح ذلك اليوم. كان والدي قاسياً، بشأن دراستي. وكان يرغمني على ترجمة نص بالفرنسية كل يوم، يراجعه نابليون أحياناً ويصحح أخطاءه. وفي أحد الأيام، لم أجد الرغبة في كتابة واجبي اليومي كالمعتاد. عندما وصل نابليون إلى البيت وطلب مني الترجمة، لكن لم أكن قد بدأتها بعد. وعندما لاحظ ذلك، أخذ الورقة ونزل إلى الحديقة فوجد والدي يستعد لركوب الحصان، فقال له: «أنظر يا بالكومب، واجب الآنسة بيتسي. أنظر مقدار ما درسته! ورفع الورقة البيضاء. لم يستوعب والدي تماماً ما قاله الامبراطور. لكنه شاهد الورقة وفهم من ابتسامة الامبراطور بأنني أستحق التوبيخ. غضب والدي وهددني بعقاب شديد إن لم أنتهِ من واجبي قبل العشاء. ثم ركب حصانه كما تركني نابليون وهو يضحك من هيأتي، وأنا جامدة في مكاني خائفة.

كانت ذكرى ذلك المشهد هي التي أثارتني كي أرعبه بسيفه. .«انتشرت قضية السيف بسرعة، ووصلت إلى أسماع نابليون حيث يلتقط الناس أية إشاعة عن الامبراطور.

كتب الماركيز دو مونشينو، الذي وصل إلى سانت هيلين بعد عدة أشهر بصفته ممثلاً للبوربون، في مذكراته بعد لقائه الأول مع أسرة بالكومب: «تتحدث الفتاتان الفرنسية. الصغرى، وتسمى بيتسي، فتاة صعبة، تقوم بكل ما يخطر ببالها. نابليون يغازلها حسبما قيل لنا في أوروبا». في ذلك اليوم، أرادت بيتسي أن تفخر بنفسها أمام مونشينو بأنها نجحت في تخويف نابليون، بسيفه هو. وعندما سألها هل كانت تريد أن تقتل نابليون، أجابت: «لا، كل ما كنت أريده هو أن أصيبه بشكل بسيط للدعابة». وعلى الرغم من عدم وجود أي دليل على أن نابليون كان يغازل فعلاً بيتسي، فإنه من الواضح بأنه كان يظهر

أمامها كشاب يبحث عن إعطاء إنطباع جيد أمام صديقته الصغيرة. . .

«سألني في أحد الأيام فيما إذا كنت أعتقد بأنه يركب الحصان جيداً. أجبته بإخلاص، بأنني أعتقد أنه أفضل من يركب الحصان. بدا سعيداً للجواب، وطلب إحضار حصانه، ركب ودار عدة مرات في الحديقة وجعل الحيوان يدور في دائرة صغيرة كفارس متمكن.

«في إحدى المرات، كان مربي الأحصنة أرشامبو، يدرب حصاناً عربياً فتياً تم شراؤه خصيصاً للامبراطور. تقدم الحصان بسرعة ثم توقف فجأة ورفض اجتياز حاجز من القماش الأبيض وضع على العشب لمنعه من الخروج. قلت لنابليون بأنه لن يتمكن من ركوب هذا الحصان لأنه سيء. إبتسم وأشار إلى أرشامبو بالنزول. رغم فزعي وخوفي، قفز على الحصان ونجح لا في القفز على القماش الأبيض فحسب وإنما دفعه لوضع رجله عليه. وفيما بعد، كان الامبراطور يركب هذا الحصان في أغلب الأحيان».

قالت بيتسي لنابليون: «كان بإمكانك أن تكون مدرباً للأحصنة». فأجابها «إن للرجال والأحصنة عقليات متشابهة».

إن الأمور تجري وفق قواعد غير مكتوبة بحيث يفهمها الفرقاء بالغريزة. كان نابليون يشعر أن عليه أن لا يظهر أية مخاوف أو انزعاج أمام شيطنة بيتسي: « . . . فقد كان يمتلك أختاماً جميلة جداً وقطعاً نقدية نادرة، كان يستخدمها لاجراء أختام من الشمع. وفي أحد الأيام كنا منشغلين بصنع الأختام، قمت بحركة عاثرة وصدمت كتفه وسال الشمع الساخن على أصابعه. كان مؤلماً جداً وسبب له بقعاً حمراء. لكنه كان متفهماً تماماً، مما دعاني إلى الاعتذار له عن سوء تصرفي. ولو أنه أظهر التذمر، لكانت ردة فعلي مختلفة: لكان أسعدني ذلك. . . ».

إن قواعد اللعبة غير المكتوبة أتاحت لنابليون أن يرد على شيطنة بيتسي بأخرى مماثلة. عندما اتهمته بيتسي في أحد الأيام، بأنه يغش في لعبة الورق عشية الحفلة الأولى التي شهدتها في حياتها ـ والتي لم تحصل على حضورها إلا بفضل مداخلة نابليون ـ أخذ الامبراطور لباس الحفلة وخبأه في غرفته. بكت

بيتسي وأرسلت إليه رسلاً عديدين طيلة اليوم التالي. لكنه كان يجيب بأنه مريض ولا يريد رؤيتها، وأرسل إليها لباس الحفلة قبل الحفلة بقليل. كان يلعب ألاعيب مراهق مع رجل كان يعرف بإسم أولد هوف، الذي كان يلعب معلماً لأحد إخوة بيتسي الصغار (لم يكن في الجزيرة مدرسة). بعد وصول نابليون، جن الرجل العجوز: فقد كان يعلن في كل مكان بأن مهمته هي مساعدة نابليون على الهرب. انتحر هوف ودفن على مفرق ثلاثة طرق تصل إحداها البريار:

«من بين الحماقات الأخرى، كنت أخاف الأشباح، وهذا الضعف كان يعرفه الامبراطور الذي كان يخيفني بعد انتحار هوف لفترة طويلة، كي يثيرني. في بعض الأمسيات، وقبل الذهاب إلى غرفتي، كان يصيح: «آنسة بيتسي، أنا هوف، أنا هوف!» والرعب الذي كنت أحسه، لا أنساه أبداً. كنت أقفز من سريري في الليل وأركض إلى غرفة أمي حتى طلوع ضوء الفجر حيث يزول خوفي من ظلام الليل.

«في إحدى الأمسيات، كنت جالسة مع أمي وأختي بأمان، عند مدخل المنزل، نستمتع بالنسمات اللطيفة. فجأة سمعت ضجة، التفتنا، وفجأة لاحظنا شخصاً يلبس لباساً أبيض وكأنه الكفن. صرخت. عندها، سمعنا ضحكة مخنوقة. كانت أمي أول من عرف أن الأمر من ألاعيب الامبراطور.

ضربت الشخص الملفح بالقماش الأبيض وكشفت عن وجهه، فوجدت بأنه أحد الخدم الصغار الذي دفعه نابليون لإفزاعي، في حين كان يختبيء وراء شجرة يراقب آثار لعبته بنفسه. بعد أن كبرت بيتسي، روت بدقة معظم هذه الألعاب الطفولية مع نابليون. اعترفت، في حالة واحدة، على الأقل، بأنها قد تصرفت بطياشة. «. . . أذكر أنني قدمت لنابليون صورة كاريكاتورية تمثله وهو يصعد سلماً. وقد سجل على كل درجة من درجات السلم إسم أحد البلدان المفتوحة. وفي أعلى السلم، يجلس نابليون على عرش العالم. كان ذلك إشارة إلى لعبة معروفة في إنكلترا حيث يسقط نابليون بحركة ميكانيكية، من أعلى السلم إلى الطرف الآخر. . . ليصل إلى سانت هيلين. كان عليّ أن لا أقدم هذه الصورة، ذات الإشارة السيئة، في هذا الوقت العصيب عليه. لكنني

لم أكن واعية، في تلك الفترة، وكنت قادرة على القيام بأي عمل طائش دون القصد في إلحاق الأذى لأحد.

واليوم، أرى بأنني قد ذهبت بعيداً في الأمر، آنذاك. علم والدي بما فعلت، فحبسني في البيت، لم أخرج منه، لمدة أسبوع على الأقل. وقد نقلت من غرفة الدراسة إلى الكهف، وبقيت وحيدة أعيش الندم. لم أنسى تلك العقوبة. فقد كان الكهف مليئاً بالجرذان التي كانت تقفز، من كل طرف حولي.

أسف نابليون لهذه العقوبة الشديدة، عن غلطة ليست ذات أهمية كبيرة، لكنه كان يستمتع بحديثي عن المعركة ضد الجرذان. وقد ذكر لي، بأنه ارتعب مرة من جرذ كبير، قفز من قبعته، عندما أراد وضعها على رأسه.

«وفي مناسبة أخرى، حبسني والدي، طيلة يوم كامل، في نفس الكهف. فقد أثرت غضبه لأمر لم أعد أذكره، وحكم عليّ بالسجن لمدة أسبوع، بالرغم من شفاعة نابليون. كنت أذهب إلى الكهف صباح كل يوم، ولا أخرج منه إلا في المساء، للذهاب إلى النوم. كانت تسلية الامبراطور، خلال الأسبوع، في زيارتي والحديث معي من النافذة، كان يضحكني أحياناً وهو يقلدني في وضعي المؤلم، ويقول: كلانا سجينان يا بيتسي. أنت تبكين، وأنا لا أبكي. فأجيب لقد بكيت قبلاً؟ نعم هذا صحيح، لكن لم يمنع من إستمرار سجني، فالأفضل الترويح عن النفس بأي شيء. أثناء الإقامة في البريار، كان نابليون يشفق على عامل حديقة بالكومب، وهو عبد مسنّ من مالي اسمه طوبي، قبض عليه ووضع عنوة في باخرة إنكليزية وبيع منذ عدة سنوات في سانت هيلين. عندما كان نابليون يتمشى في الحديقة، كان يحب التوقف والتحدث مع طوبي. كان العبد يبتسم من هذا الاهتمام غير المعتاد ويجيب، وهو متكىء على المجرفة، على الأسئلة السريعة التي كان يطرحها نابليون عليه، من خلال ترجمة لاس كاسس، عن بلده الأصلي وعن حياته كعبد... وبناء على طلب بيتسي، طلب الامبراطور من ويليام بالكومب إعتاق الرجل العجوز، لكن الحاكم رفض الطلب قائلاً: «إن الجنرال بونابرت لا يرغب في تحرير طوبي لوحده، إرضاء للآنسة بالكومب، ولكن يبحث عن إرضاء عبيد الجزيرة كلهم وتحريرهم».

لمّح نابليون إلى لاس كاسس بأن هذا المسكين طوبي رجل سرق من أسرته وأرضه بل حتى من نفسه وبيع، فهل هناك أسى أكبر من ذلك بالنسبة له؟ وهل هناك جريمة أكبر بالنسبة للآخرين؟ فإذا كان هذا الجرم قد اقترف من قبل القبطان الانكليزي لوحده، فإنه بالتأكيد رجل سيء. لكن إذا كان الجرم قد ارتكب من قبل طاقم السفينة كلها، فإنه من فعل أناس ليسوا سيئين بقدر ما نعتقد، لأن الاعوجاج فردي دائماً ونادراً ما يكون جماعياً.

كتبت بيتسي: «. . . عندما كان القمر المداري الجميل ينير الليل، غالباً ما كان ينهض في الساعة الثالثة صباحاً، يتمشى في الحديقة قبل أن يستيقظ طوبي، وكان يقطف بعض الفاكهة من الأشجار الكثيرة في حديقتنا. كان العبد العجوز يحب كثيراً «بوني» ـ كما كان يسمي الامبراطور ـ وكان يضع مفتاح الحديقة في مكان تحت الباب يعرفه نابليون. ولم يكن أحد يطمع في مثل هذه الحظوة من طوبي، لكن نابليون كسب قلب هذا الرجل العجوز وسحره.

«كان هذا العبد يشعر بامتنان كبير لطيبة نابليون نحوه، ولم يكن هناك ما يشرفه أكثر من تكليفه بجمع أفضل الفواكه وترتيب أجمل باقات الزهور لإرسالها إلى لونغوود كان يقول: «بأنها سوف ترسل إلى ذلك الرجل الطيب«بوني»(وهو يقصدالامبراطور). وفي كل مرة كنت أشاهد فيها الامبراطور في لونفوود، كان يسأل عن صحة العجوز طوبي، وعندما تركنا، أعطاه عشرين ليرة ذهبية نابليونية . . .»

بعد عدة أعوام، سوف تتحدث بيتسي في لندن عن ذلك الرجل الذي كانت تتخيله فيما مضى «وحشاً بشعاً»، ذا عين حمراء تقدح الشرر من وسط جبهته». . . واللذي بات المرافق الجذاب في الألعاب.

«. . . لم أجد في حياتي من يتحمل ألعاب الطفولة مثل نابليون. فقد كان يقبل كل مزحة أو مداعبة بقلب طفل. وعلى الرغم من أنني امتحنت صبره أكثر من مرة فإنني لم أره يفقد دمه البارد إطلاقاً، ولم ينزل عن مستوى عمره أو قدره ليحتمي من نتائج تعودي عليه وتراخيَّ معه. عندما أكون معه، كنت أعتبر نفسي مع أخ أو مع رفيق من سني. كانت كل التحذيرات التي كنت أتلقاها، وكذلك قراراتي أنا في أن أعامله من الآن فصاعداً بإحترام وحسبَ المراسيم،

تذهب أدراج الرياح عندما ألتقيه وأقع تحت تأثير ابتسامته وضحكته الخبيثة. وإذا اقتربت منه برصانة أكثر من المعتاد وبهيئة رسمية، كان يبدأني بالقول: «نعم ما بك ياآنسة بيتسي؟ إذا جاءت الحالة المهيبة، أرسليها إلي. . .» أو كلمات مداعبة أخرى كانت تسعدني أو تغيظني حسب الحال، لكنها في جميع الاحوال، كانت تنسيني على الفور قراراتي الأولى بالتصرف معه «كآنسة حقاً. .»

بقي نابليون في البريار مدة شهرين، ثم إنتقل إلى لونغوود، مقر الإقامة الرهيب الذي خصص له، على مسافة ثمانية كيلومترات من البريار والذي بات جاهزاً لاستقباله. كان نابليون يلعب مع أولاد بالكومب عندما وصل الخبر. لقد انتهت اللحظات السعيدة القليلة لسنوات منفاه، وسوف يغادر البريار وصديقته الشابة خلال يومين. . . .

«. . . صباح المغادرة، والذي كان حزيناً بالنسبة لي، وصل السير جورج كوكبورن مع حاشية الامبراطور إلى البريار لأخذه إلى مقر إقامته الجديدة. بكيت بمرارة. جاء ليقول لي: «لا تبكِ يا آنسة بيتسي. سوف تأتين لمشاهدتي في الأسبوع القادم، ويجب العودة مراراً. أجبته بأن ذلك يعتمد على والدي. التفت نحوه وقال: «بالكومب، يجب إرسال جان وبيتسي لمشاهدتي في الأسبوع القادم، أليس كذلك، عندما تأتي إلى لونغوود؟» أعطاني علبة من السكاكر اللذيذة التي كنت أحبها، وقال لي «يمكنك أن تعطيها عربوناً للمحبة إلى الصغير لاس كاسس». انفجرت في البكاء وتركت الغرفة. وقفت وراء النافذة لأشاهده وهو يغادر المكان. كان قلبي حزيناً فلم أستطع النظر إليه. فسقطت على السرير وبكيت طويلاً.

غوتنبرغ ـ تموز ١٩٦٠

عندما شاهد الطابع الانكليزي وعبارة «قسم الطب الشرعي ـ جامعة غلاسكو»، فتح فورشوفود المغلف بسرعة. فهو بالتأكيد جواب هاملتون سميث الذي ينتظره بفارغ الصبر منذ تسعة عشر يوماً.

بالرغم من عجالته، ضبط انفعاله الأول وراح يمشي بهدوء في الصالون وهو يمسك بالمغلف المغلق في يده. جلس في مقعده المفضل الموجود تحت اللوحة المحفورة التي تمثل وداع فونتين بلو.

لقد مضى شهر على عودة فورشوفود من باريس ومعه شعرة نابليون الثمينة التي أعطاه إياها الكومندان لاشوك. في البداية، توجه إلى مختبر السموم في ستوكهولم لكن الجواب تأخر. بعدها قرر التوجه إلى هاملتون سميث في غلاسكو.

كان السويدي مصمماً على أن لا يكشف اسم صاحب الشعرة. ولحسن الحظ قبل هاملتون إجراء التحاليل دون أن يطلب منه شيئاً.

بعد تغليف الشعرة جيداً، أرسلها إلى سكوتلنده في طرد مسجل. فكر مرة فورشوفود في حمل الشعرة الثمينة بنفسه إلى غلاسكو، لكن ظروف عمله وكسب لقمة العيش، منعته من ذلك. وعلى أية حال، فإن الكوماندون لاشوك يمتلك عدداً لا بأس به من شعرات الامبراطور، وفقدان إحداها ليس بالأمر الخطير. وبدل الانتظار، خاطر بإرسالها بواسطة البريد.

فتح فورشوفود المغلف وقرأ الكلمات التالية المكتوبة بخط يد هاملتون سميث: «بعد التحليل بحسب طريقة التنشيط، فإن العينة ذات الإشارة «هـ . س» التي أرسلتها إليّ تكشف عن احتواء كمية ١٠,٣٨ ميكروغرام من الزرنيخ

لكل غرام من الشعرة. يظهر، هذا المحتوى، بأن الشخص قد ابتلع كميات كبيرة نسبياً، من الزرنيخ».

إذن ١٠,٣٨ من المليـون.. في حين أن المحتوى من الـزرنيـخ في الشعرة البشرية عادة بحدود ٠,٨ من المليون، على الأقل في وقتنا الحاضر.

وفي عهـد نابليـون حيث كان المحتـوى في الوسط المحيط أقـل فإن المتوسط يجب أن يكون أقل. وعليه، فإن شعرة نابليون كانت تحتوي، بتاريخ وفاته، ثلاث عشرة مرة من النسبة الطبيعية من الزرنيخ!

شعر فورشوفود بنشوة الظفر. فهو يمسك بيده التأكيد المادي لنـظريته، وباتت شكوكه مبررة.

لكن هناك طريق طويل أمامه. فهو يسمع، منذ الآن صوت المشككين، صوت المكبلين بالنظريات القائمة. فالعينة محدودة جداً.. والزرنيخ قد يكون مصدره الوسيط المحيط والماء والألبسة والأصبغـة وأي شيء آخر... وليس هناك تسمم مقصود.. وما الذي يدل على أن الشعرة هي لنابليون...

إذن، يجب الحصول على شعرات أخرى، وإجراء تجارب أخرى. عليه أن يكون متأكداً من النتائج. وقبل كل شيء عليه أن يلتقي مع هاملتون سميث. وفي أقرب فرصة، سافر فورشوفود إلى غلاسكو.

لونغوود- سانت هيلين

كانون ثاني - حزيران ١٨٦١

يوم في لونغوود.

مع الفجر يوقظ نابليون خادمه، فقد أمضى ليلة باهتة لم يتمكن من النوم فيها. هذا الرجل الذي كان ينام متى يشاء ويجد الفرصة لينام ساعتين صبيحة المعركة، بعد ليلة كاملة مخصصة لوضع الخطط، هذا الرجل لم يعد قادراً على التحكم في نومه. طيلة الليل، كان يتنقل من سرير لآخر في الغرفتين المتجاورتين.

دخل الخادم وهو يحمل القهوة من الغرفة الصغيرة المجاورة حيث أمضى ليلة فيها. قال له نابليون: «دع هواء الرب يدخل». فتح الخادم الباب على مصراعيه. لبس الامبراطور رداء النوم وجلس أمام الطاولة المستديرة الصغيرة.

كشف ضياء الصباح لنابليون بؤس لباسه. فالغرفة أشبه ما تكون بمخيم. والشيء الشخصي الوحيد هو وجود بعض اللوحات التي علقها مارشان على الجدران: صور جوزفين، ماري لويز، ملك روما الصغير. . . تقع غرفتا نابليون في إحدى زوايا البناء المكون من ثلاثة وعشرين غرفة.

البناء أصفر شاحب اللون، مبني من الخشب المطلي بالكلس، يدعى: لونغوود هاوس يسكن معظم الضباط في الطرف الآخر من البيت. أما الخدم، وهم أكثر من الأسياد بكثير، فيسكنون في السقيفة. وبالإجمال، يوجد أكثر من خمسين شخصاً يسكنون لونغوود. خلال سبعين عاماً من وجود هذا البناء، جرت عليه إضافات عدة. فبعد أن كان اسطبلاً وعنبراً، تحول إلى مقر إقامة صيفي لنائب الحاكم. ومن أجل استقبال نابليون وحاشيته، أضاف الانكليز مؤخراً جناحاً جديداً وحولوا العنبر إلى مساحة سكنية.

لونغوود ليس بالمكان المريح. فالسماء تمطر طيلة السنة على الهضبة المرتفعة، وحتى عندما تسطع الشمس فوق الوديان القريبة. وباعتبار أنه ليس للبناء قبو، فالبيت رطب على الدوام. والملابس يصيبها العفن بسرعة، والجدران يغطيها ملح البارود. وبسبب التوسيع السريع، فالسقف يدلف بماء المطر، والأسوأ من كل ذلك: لونغوود مليئة بالجرذان، كسائر أنحاء جزيرة سانت هيلين، وأصواتها تسمع خلف الممرات وهي تقفز في أماكن المؤونة مسببة الفزع للأطفال. وقد اضطروا لإهمال فقاسة البيض، لأن الجرذان كانت تأكل البيض. حاول الخدم إغلاق الثقوب بصفائح التنك، وقاموا بمطاردتها بمساعدة الكلاب. لكن الجرذان بقيت رغم كل المحاولات للقضاء عليها. فكر الفرنسيون بتسميمها بالزرنيخ ثم تراجعوا عن الفكرة خوفاً من انتشار الروائح الكريهة في حال موتها بين الجدران والممرات.

بعد أن يشرب نابليون القهوة يأتي دور الحلاقة حيث يقوم خادمان بمساعدته يمسك أحدهما بالمرآة والآخر يقدم الأدوات. وقد اعتاد نابليون على حلاقة ذقنه منذ أن كان قنصلاً أول، لأنه كان هدفاً للقتلة من كل جانب. كان يخلع ملابسه حتى الحزام، ويغتسل، يساعده أحد الخدم في مسح الظهر والصدر بالكولونيا. وكان يقول لضباطه «بأن ذلك يقي من الكثير من الأمراض». ويقول إلى لاس كاسس بمرح بأن صدره بدون شعر وأن ردفيه كبيران (بدأ نابليون يسمن كثيراً منذ ذلك الوقت، وأنها ليست من جنسنا..» يقوم مارشان بمساعدة نابليون في ارتداء لباس الخروج. كان يلبس عادة سراول داخلية قصيرة وجاكيت الصيد الخضراء ذات المعاصم والقبة المخملية. وكان يعتمر دائماً بالقبعة الشهيرة ذات القرنين، والصفيحة الفضية لوسام الشرف. وفي جيبه، كان يضع منظاره الحربي الصغير، وعلبة العطوس وكمية من السوس الذي كان يستعمله باستمرار. كان يخرج من باب غرفته إلى الحديقة التي رتبها مارشان أثناء فراغه. في هذه الحديقة، كان نابليون يفكر في هذا العالم الصغير الذي حجز فيه. تمتد لونغوود على هضبة مرتفعة جرداء، لمسافة ثمانية كيلومترات من ميناء جيمس تاون. وبالرغم من الأمطار المتواصلة، تبقى الأرض عقيمة. فالعشب خشن ومتباعد والشجيرات النادرة تحنيها الرياح

الدائمة الجنوبية الشرقية. بالنسبة للأوروبيين، فإن طقس جنوب الأطلسي، بفصوله المعكوسة، رطب جداً وحار جداً. وحول هذا السهل الصحراوي ذو الرياح العاتية كانت ترتفع قمم بركانية مسننة. على إحداها يوجد بيت التنبيه حيث يطلق الانكليز المدفع لإعلان طلوع الشمس وغروبها وكذلك وصول السفن.

كان نابليون يرى حيثما يجيل النظر، القطعات الحربية المكلفة بحراسته. أمامه يوجد معسكر ديدوود حيث يعسكر خمسمائة رجل من الكتيبة الثالثة والخمسون. يتوزع الحراس بلباسهم الأحمر على طول الجدار الحجري، بطول ستة كيلومترات، الذي يطوق لونغوود، والمنطقة المحيطة به. يستخدم الرصاد الموجودون على المرتفعات المجاورة أعلاماً خاصة لنقل أخبار نابليون المنفي في لونغوود: «خرج الجنرال لكنه مرافق خارج حدود الحرس وإذا أراد الرصاد الإشارة إلى أن «الجنرال بونابرت مفقود» يرفعون علماً أزرق على مقر القيادة الذي ترتبط به كل وحدة مسلحة في الجزيرة، وتجري التحريات في الجزيرة. أرسل الانكليز حوالي /٣٠٠٠/ عسكري من رجالهم. كل طرق الجزيرة مراقبة ومحروسة. يجري توقيف كل شخص يسير بعد التاسعة مساءً. والمناطق الأربعة التي يمكن النزول فيها من السفن، محصنة تماماً. والبطاريات الأرضية قادرة على مواجهة أي هجوم قادم من جهة البحر.

بين المواقع المحصنة، كان نابليون يراقب الأسطول الانكليزي، الذي يحرس المياه الاقليمية، والمؤلف من خمس سفن عسكرية في عرض مياه جيمس تاون، كانت إحداها تقف عكس الرياح والأخرى باتجاه الرياح، وستة قوارب تدور حول الجزيرة ليل نهار. وما وراء الحراس والقلاع المحصنة والسفن، كان نابليون يتأمل فيما هو أكثر وثوقاً، وأكثر طوقاً من كل سجانيه: المحيط. المحيط الفارغ الرمادي الذي يمتد من كل جانب وحتى الأفق.

هل كان نابليون يحلم وهو ينظر إلى البحر في الهرب يوماً من هذه الجزيرة الصخرية؟ هل ستتمكن عبقريته العسكرية، في يوم من الأيام، على حل مسألة عبور خط الحراس والحصون والبواخر والمحيط نفسه؟ مسألة لا حل لها للوهلة الأولى. ألم يتمكن نابليون دائماً من تحقيق المستحيل؟ لم يتحدث

أي من المنفيين، عن مشاريع ممكنة للهرب، خلال الأسابيع الأولى في لونغوود. كان نابليون يراهن بشكل رئيسي على تقلبات السياسة الأوروبية ويضع الآمال في الأميرة شارلوت، وريثة التاج البريطاني، والتي كانت إحدى المعجبات به. وعندما تتولى العرش، فإنها بالتأكيد سوف تضع حداً لمنفاه. لقد صرح أمام لاس كاسس، أنه ما لم تطرأ أحداث غير متوقعة، فإنه لا يرى سوى أمرين اثنين يمكن أن يسمحا بعودته إلى السلطة. حاجة الملوك له لمواجهة شعوبهم، أو الشعوب الثائرة ضد ملوكهم. في هذا الصراع الكبير للحاضر ضد الماضي، سأكون الحكم والوسيط الطبيعي... لكن القدر شاء غير ذلك...».

عندما وصلت إشاعة إلى المنفيين، بأن أحد مارشالات الامبراطورية، وهو برترات كلوزيل، سوف يقوم بتمرد ضد آل البوربون، تخيل لاس كاسس فوراً إمكانية عودة الامبراطور إلى السلطة. لكن نابليون اكتفى بالقول: «وهل تعتقد بأنه أبله حتى يترك لي مكانه؟» لديّ الكثير من المؤيدين، فإن نجحوا فسيكون هناك مؤيدون آخرون.. إن الأخيرين على حق دائماً: ينسى الناس الماضي في سبيل الحاضر».

كان الهدف الآني لنابليون هو أن يمنع العالم الذي حكمه من نسيان اسمه. ومن أجل ذلك، على المنفيين اختراق الرقابة على المراسلات. من الناحية العملية، الأمر ليس صعباً، وقد تردد المنفيون، بعد سنوات عديدة من عودتهم، في كشف الطرق التي لجأوا إليها. كان نابليون لا يغادر لونغوود إلا نادراً، ولم يذهب إلى جيمس تاون أبداً. إلا أن مرافقيه كانوا كثيراً ما يقطعون مسافة الثمانية كيلومترات على صهوات جيادهم للوصول إلى الميناء الصغير. وهناك، في الشوارع والدكاكين المجاورة للبحر، كانوا يتلقطون الأخبار، ويختلطون بالبحارة العابرين. سيبرياني، على الخصوص، هذا الكورسيكي الصغير الشجاع، الذي عاش بالقرب من بونابرت منذ شبابه الأول، كان يذهب إلى جيمس تاون، لقضاء حاجات لونغوود ويقوم بمهمات خاصة لنابليون. فالرجلان غالباً ما يكونان وحيدين، ولا أحد يعلم ما يتحدثان به. كانت تصل إلى أوروبا رسائل بانتظام دون أن تخضع للرقابة في سانت هيلين. وبدأت

الانتظام، كان المنفيون يتلقون الرسائل من الخارج دون أن تصل إلى الرقابة. في لونغـوود كان الخادم سان دنيس، ذو الخط الجميل، مكلفاً بنسخ الرسائل التي يتم تهريبها بواسطة تاجر محلي أو بحار لقاء بضع ليرات ذهبية، أو لقاء وعد بمكافأة عند إيصالها. لم تكن جميع الرسائل تصل إلى مقصدها. فقد تم اكتشاف علبة عطوس الامبراطور، في أحد العنابر الإيرلندية، التي أهديت إلى أحد الضباط الانكليز المارين في سانت هيلين. كانت العلبة تحتوي على رسالة من نابليون تعـطي التعليمات لتـربية ملك رومـا. وبفضل هـذه المراسـلات السرية، والقصص المنقولة إلى أوروبا من قبل الزوار، كان نابليون يحاول أن يبقي على صورته، وأن يجعل من عودته إلى أوروبا أمراً ممكناً.

في بعض الأحيان، يخرج الامبـراطور في نـزهة على جـواده. إذ كان يسمح له بالتحرك بحرية على هضبة لونغوود خارج نطاق الخط الأحمر للحرس وحتى الوديان المجاورة التي تبدو خصبة بالمقارنة مع الـوادي الأجرد. خارج إطار هذه المنطقة، يجب أن يرافقه ضابط انكليزي وهذا ما كان يرفضه نابليون، خلال هذه النزهات، كان يترجل عن الحصان، ويدخل إلى أحد البيوت لا على التعيين. وقد تعرف، أثناء هذه التوقفات، تعرف على الآنسة روبنسون، وهي فتاة رائعة عمرها سبعة عشر عاماً، ابنـة أحد المزارعين، لقبها ملكـة جمال الـوادي، وقد زارها أكثر من عشر مرات. وشاعت أخبار هذه الزيارات حتى وصلت أوروبا. لكن هذه النزهات الروتينية على أرض محدودة أتعبته بعد فترة قصيرة، وهو الذي عرف برحلاته الأسطورية، فجعلته يقلل من ركوب الحصان وعندما لا يخرج كان يكتفي بالتنزه في حديقة لونغـوود هاوس وهو يردد ألحاناً للأوبرا، بشكل سيء، أو يتحدث مع أحد ضباطه. وعندما تمطر ـ وهذا مـا يحدث غالبـاً ـ يبقى في المنزل ليقـرأ أحد المؤلفـات الموجـودة في المكتبة الصغيرة التي جمعها مارشان، على عجل، في مالميزون، بالإضافة إلى الكتب التي أرسلت من أوروبا أو استعيرت من الانكليز. كان يقرأ صحف لندن أيضاً التي تعود لثلاثة أشهر مضت وكان يرسلها إلى الحاكم أو أحد المسافرين، من وقت لآخر. كان قارئاً سريعاً ونهماً. كانت أرض الصوفا مليئة بالكتب التي كان يرميها بعد قراءتها. والكثير منها كان يحمل ملاحظات دقيقة.

في منتصف النهار، وبعدما يركب الحصان، كان نابليون يستحم. وفي حمامه الخشبي المصفح بالزنك، يمضي ساعات في القراءة والثرثـرة، وكان على مارشان أن يحمل الماء الساخن من المطبخ للحفاظ على حرارة الحمام المرتفعة والتي يحبها الامبراطور. وفي تلك الساعة، كان نابليون يستدعي طبيبه باري أوميرا، بالرغم من أن نابليون لم يكن يشعر بالحاجة لمعارف طبيبه خلال الفترة الأولى من منفاه. وفيما عدا بعض الوعكات الخفيفة، التي لم تكن تطول أكثر من يوم واحد، فإن صحة نابليون كانت جيدة. من ناحية أخرى، فإنه لم يكن يؤمن بالعلاج الذي يصفه الأطباء لمرضاهم ويحترم الجـراحين، وقد شجع في فرنسا، إجراء اللقاحات، لكنه كان يرفض بعناد الأدوية التي يصفها الأطباء معتبراً بأنها «تسيء أكثر مما تفيد» وغالباً ما يسأل الطبيب الذي يأتيه: «كم قتلت من المرضى أثناء حياتك المهنية؟» لكن أوميرا كان يعرف الإشاعات المحلية. فهو طبيب في البحرية عمره ثلاث وثلاثون عاماً يعيش في لونغـوود هاوس وهو الوحيد القادر على التنقل بحرية بين العالمين في سانت هيلين. كان يجلس إلى جانب المغطس، ويحكي بلغة إيطالية سليمة، ما يجري خارج خط الحراس الانكليز. وفي الواقع، كان يلعب لعبة مزدوجة: فقد كان يعلم نابليون بكل شيء، وكان يذهب كذلك إلى الحاكم الانكليزي، ويقدم لـه تقريـراً. فضلاً عن ذلك، ودون أن يعلم أي من محدثيه، كان يرسل رسائل خاصة إلى الجهات العليا في لندن.

الغذاء ـ عموماً حوالي الساعة الحادية عشـرة ـ كان يتم إمـا في غرفـة نابليون، أو في الحديقة، إذا كان الجو صحواً. كان يلتهم الـوجبة، كعـادته خلال ربع ساعة، التي تتألف من شوربة ساخنة ـ كان نابليون يعتبر مرقة الدجاج أفضل علاج ـ صحنين من اللحوم وصحن من الخضار. كان الطعام يحضر في مطبخ لونغـوود من قبل طباخي نابليون الذين سمح له باستقدامهم معه. لكنهم لا يقومون بالخدمة. فقد كانت تلك المهمة محفوظة لمارشان ومساعديه الاثنين سان دنيس (الملقب علي) وأبرام نوفراز. كان نابليون يشرب كأساً أو كأسين من النبيذ الممدد بالماء، لا أكثر. وهذا النبيذ كان يأتي من احتياطيه الخاص في كونستانس، وهو من جنوب أفريقيا، ذو شهرة، أصله من كونستانتيا بالقرب

من مدينة الكاب. والذين يشاركونه الطعام، كانوا يشربون النبيذ العادي. معظم المواد الغذائية كان يقدمها ويليام بالكومب، والد بيتسي، والذي سماه الأميرال كوكبورن، مورد لونغوود. استلم مشتريات المواد الغذائية، رئيس المركز، سيبرياني، والكونت دو مونطولون.

كان لقب بالكومب «المورد» يطمئن نابليون. فالانكليز يفضلونه ميتاً، وهو يعلم ذلك، ومقتنع بأنهم قادرون على تسميمه. وقد نصحه الأطباء والصيادلة دائماً بالحذر من النبيذ والقهوة. إلا أنه ضمن الظروف الراهنة استبعد هذا الاحتمال. «فليس هناك أي خطر من هذه الناحية، طالما أن بالكومب هو الذي يورد المواد الغذائية، وأن أومبيرا وبوبلتون (الضابط الانكليزي المقيم) أناس مستقيمون مثله، لا يمكن أن يقوموا بمثل هذه الأفعال».

ونابليون الذي طالما خاطر بحياته في المعارك، لم يكن يهتم كثيراً بالأمن على حياته. وطيلة سنوات الحكم، بقي على قيد الحياة، بالرغم «من أكثر من ثلاثين مؤامرة أكيدة معروفة، ناهيك عن تلك التي بقيت مجهولة». ومعظم هذه المؤامرات كان يرتبها كونت أرتواز، شقيق لويس الثامن عشر. كان اهتمامه الرئيسي، أن لا يقول لأحد وحتى اللحظة الأخيرة إلى أين سيذهب، وأي طريق سيتخذ. وهنا يشعر بالأمان نسبياً. قال مرة لمونطولون: «لن أمكث في أمريكا أكثر من ستة أشهر دون أن أقتل من قبل أحد عملاء كونت أرتواز، إنني لا أرى شيئاً في أمريكا سوى القتل أو النسيان. وما زلت أفضل سانت هيلين. . . .».

كان نابليون يفضل الغداء مع ضباطه، إلا أن خصوماتهم المستمرة كانت تزعجه. كان يقول لهم: «بأنهم بضعة أشخاص في آخر الدنيا. وعزاؤهم الوحيد يجب أن يكون محبتهم لبعضهم: لكن كلامه لم يكن مسموعاً. كانت مشكلة الضباط، في عدم وجود ما يشغلهم، وبالرغم من أن نابليون قد وزع بعناية مهمات كل واحد منهم، لكن العمل قليل والفراغ جعلهم يتشاجرون لأتفه الأسباب في المنفى. أكبرهم سناً لاس كاسس، كان مشغولاً بكتابة ما يمليه عليه الامبراطور. برتران، ضابط الهندسة الهادىء، كان يتألم لأن مونطولون كان يتقدمه. كان متراخياً لا يتكلم إلا قليلاً ويبقى أكثر الوقت مع أسرته الصغيرة. منذ أيام مصر، كان برتران إلى جانب نابليون. وفي باريس كان

يحمل لقب المارشال الكبير للقصر، وبالتالي يحق له أن يحمل عبء البيت. لكنه، وبناء على إلحاح زوجته الشقراء فاني، التي كانت ترغب (ولأي سبب؟) الابتعاد عن نابليون، اختار أن يعيش خارج لونغوود هاوس. لذا، كلف نابليون بامتعاض مونطولون بإدارة البيت. من ناحية أخرى، وفي حين كانت فاني برتران تتحاشى لونغوود، كانت ألبين دو مونطولون موجودة على الدوام فيه، مرحة وذات مزاج طيب. كان يشاع بأن تلك السمراء المغناج قد شقت طريقها (وبموافقة زوجها) حتى سرير نابليون. سأل نابليون بيتسي بالكومب ذات مرة: ألا ترين ألبين جميلة؟ بيتسي لم تجب شيئاً.

غاسبار غورغو هو الأكثر تحفظاً دون منازع. لاس كاسس لديه عمله وابنه. برتران ومونطولون؛ لديهما زوجاتهما والأولاد. غورغو لم يكن لديه شيئاً ولا شخصاً يشغل نفسه به. هذا الرجل الطويل ذو اللون الأسمر، عمره اثنان وثلاثون عاماً، لا يجد ما يصرف فيه طاقته ولا مشاعره. وما يفخر به دائماً هو أنه أنقذ حياة نابليون في روسيا. وليس هناك في سانت هيلين من الفرص المماثلة في الشجاعة، سوى ما حدث ذات يوم في البريار ـ وهو ما ترويه بيتسي بالكومب ساخرة بلطف ـ عندما هجمت بقرة على نابليون، حيث انتصب غورغو أمام الامبراطور وسحب سيفه وهو يصرخ: «للمرة الثانية أنقذ حياة الامبراطور». كلف نابليون غورغو الاهتمام بأحصنته العشرة في الأسطبل في لونغوود. وعلى أية حال، كان السُّواس هم الذين يقومون بالعمل كله، ولم تكن واجبات هذه المهمة تأخذ الكثير من وقته. وقد دار هضبة لونغوود على الحصان. وهو يعتقد بأنه قد وقع في حب لورا ويلكس، وهي فتاة في الخامسة عشرة من العمر، ابنة الحاكم السابق للجزيرة، لكنه لم يكن يراها إلا قليلاً، ونادراً ما كان يغازلها. كان غالبا ما يتشاجر مع مونطولون، ويشتكي إلى نابليون، ثم يحرد. كان غورغو يمل أكثر من الآخرين، حسبما روى في مذكراته الشخصية:

«الثلاثاء ٢٥: ملل، ملل. الأربعاء ٢٦: ملل.. ملل. الخميس ٢٧: ذات الشيء. الجمعة ٢٨: ذات الشيء. السبت ٢٩: ذات الشيء. الخميس ٣٠: ملل كبير».

بعد الغداء كان نابليون يذهب إلى صالة البليار ليملي مذكراته على أحد

مرافقيه، وفي معظم الأحيان، على لاس كـاسس، وفي بعض الأحيان على مارشان أو على سان دنيس. إلا أن أيام العمـل ذات الـ ١٦ إلى ٢٠ ساعـة للرجل العظيم في الأيام الغابرة تقلصت في الوقت الحاضر إلى أقل من أربع ساعات.

في الأمور التي كان يمليها، كان يشرح ويبرر حياته العملية، كما كان يعلق على معارك القيصر أو يشحذ ذهنه في مواضيع متفرقة: من خطة لإصلاح التعليم إلى مشروع إرواء وادي النيل. وكان يملي بسرعـة كبيرة ويمشي في الغرفة جيئة وذهاباً، يتوقف بعض اللحظات ليلقي نظرة على الخارطة التي رسم عليهـا مسار معـاركه. نصف الكـرة الأرضية، البعيـدة عن الصخرة الصغيـرة الضائعة في جنوب الأطلسي، أو يراقب بواسطة منظاره من خلال ثقب الباب الذي أمر بفتحه، الجنود الانكليز، وهم يتدربون. وفجأة يأمر الضابط القاعد بشكل غير مريح، أمام الطاولة بلباسه العسكري ذي القبة العالية والسيف إلى جانبه . . . بالكتابة.

وفي العصر، كان نابليون يلبس لباسه الرسمي ويستقبل زواره العديدين في الفترة الأولى من النفي. كان الامبراطور يسعى من خلال ذلك أن يتحدث الناس عنه في أوروبا، إذ غالباً ما كان هؤلاء الزوار موظفون في المستعمرات الانكليزية توقفت سفنهم في سانت هيلين، وهي في الطريق إلى إنكلترا. وقد سجل الكثير منهم انطباعاته فور العودة إلى بلادهم. ونابليون لا يجهل ذلك. ولكي لا ينسى أحد، بأنه ما زال امبراطوراً، كان يطلب من زواره الالتزام بذات البروتوكول المتبع في قصر التويلري. على الزائر أن يطلب المقابلة من برتران الذي يعطيه بطاقة عبور خطية. يستقبل أولاً في صالة البريار من قبل ضابطيه، مونطولون وغورغو عادة، يفتح خادم باب الغرفة لابساً الزي الرسمي الأخضر المذهّب، ويعلن بصوت عالٍ اسم الزائر. يستقبله نابليون واقفاً أمام المدخنة وقبعته تحت ذراعه. يقوم لاس كاسس بدور المترجم. يبقى الزائر واقفاً طيلة فترة المقابلة حتى لو دامت ساعة أو أكثر أو اعتراه التعب. تلك هي القاعدة: يجب الوقوف أمام الامبراطور. يبدأ نـابليون دائمـاً سؤال الزائـر عن ماضيـه ونشاطاته. ومهما كانت مجريات المحادثة، يستعرض نابليون معارفه الواسعة،

ويفهم محدثه بأنه ما زال امبراطوراً.

بتاريخ ١٤ كانون ثاني ١٨١٦ حمل الكوماندان جون تير، الذي كان يقود النقيرة (الباخرة) ليفريت، صحفاً إلى لونغـوود. وعندما استأذن بالخروج سلمته فاني برتران ذكرى عن زيارته، عبارة عن ميدالية تحتوي على شعر نابليون. كان البروتوكول أكثر مرونة بـالنسبة للزوار الأقـل أهمية، أو بـالنسبة لأنـاس أمثال بالكومب، الذين يعتبرون الأصدقاء في لونغـوود. بيتسي لم تخضع لأي نظام. كانت أسرة بالكومب تأتي مرة كل أسبوع إلى لونغـوود، وكانت بيتسي ترى من أسمته «رفيق اللعب القديم». كان نابليون يمضي أكثر أيامه في البريار. لكنه بوجودها يستعيد بعضاً من شبابه. كانا يلعبان البليار. تذكر بيتسي في مذكراتها «بأنه كان يدخلها إلى صالون البليار حيث استلمت الطاولة منذ وقت وجيز. أذكر أن البليار في تلك الفترة كانت لعبة للكبار. أراد الامبراطور أن يعلمني قواعد اللعبة، لكنني لم أتقدم كثيراً وكنت أتسلى بإصابة يد الامبراطور بالكرات بدلاً من النجاح في إصابتها. كنت أسعد ما أكون عندما أجعله يصرخ».

في أحد الأيام وجدت بيتسي نابليون يتألم، فقد خلعت إحدى أسنانه. وقـد خجلت وهي تراه شـاكياً من ألم بسيط، وهـو الذي شـاهد الكثيـر من المعارك. طلبت السن المخلوع لتضعه في إحدى حلقات أذنيهـا. . .» تلك الفكرة جعلته ينفجر ضاحكاً، وبالرغم من ألمه، طلب مني أن لا أضع أبداً أضراس العقل ثم استعاد مزاجه ولم يتردد في المزاح. . .».

وفي بعض الأحيـان، كان نـابليون يحـاول التحدث بـالانكليزيـة أمام بيتسي. أثناء عبور المحيط في الباخرة نورثمبرلاند، أعطاه لاس كاسس بعض الدروس في اللغة الانكليزية. ثم أصبح يقرأ الصحف اللندنية، لكنه عندمـا يحاول الحديث، تكون النتيجة ـ حسب بيتسي ـ مفزعة». . . خلال محاولاته التعبير بالانكليزية، جعل والدي هدفاً لسخريته، عن العادات الانكليزية في الشراب. قال: لو كان بالكومب هنا، لشرب زجاجة واحدة أو اثنين أو ثلاثاً أو خمساً، ولعاد ثملاً إلى البريار!. .»

كان نابليون يسأل بيتسي عن دراستها. «كان يحاول أن يأخذ مني نتفاً من المعارف التي تعلمتها، وعليّ الاعتراف بأنها كانت شتاتاً. وعلى أية حال، فقد

كنت أحب الكتب ولدي ذاكرة حادة، مما كان يجعلني أسيرة انتباهه لساعات عدة». كان يقول لي: والآن يا آنسة بيتسي، إنك فتاة جيدة لقد حفظت درسك جيداً». كان يقول ذلك لازعاجي لأنه كان يعلم كم كنت أرغب في أن أعامل معاملة الكبار».

لكن وقت المزاح لم يحن بعد. تروي بيتسي في إحدى زياراتها ما يلي: «أذكر أنني طلبت مرة من الخادم سان دنيس السماح بمقابلة نابليون. لكن سروري زال فجأة بسبب الجواب الذي تلقيته. إذ كان الامبراطور يراقب بمنظاره وصول الباخرة كونكيرور التي كانت تقترب من الجزيرة وهي تحمل علم الأميرال بلامبان. قال سان دنيس: ستجدينه عند السيدة برتران، لكنه ليس مرحاً اليوم يا آنسة». بالرغم من هذه الملاحظة، توجهت إلى منزل أسرة برتران، وفي لحظة واحدة تحولت نفسي من السعادة إلى الأسى. بالرغم من شبابي في حينها، فإنني تأثرت للحزن الشديد في تعبيره. كان واقفاً مع الجنرال برتران ونظره يتوجه حزيناً نحو الباخرة التي لم تكن سوى نقطة في الأفق».

كانت الشابة بيتسي، بسبب علاقاتها المميزة مع الامبراطور، تسأله عن بعض الأعمال القاسية التي تعزى إليه: مذبحة السجناء الأتراك في يافا، أو تسميم المرضى في مستشفى القديسة جان دارك... كان نابليون يجيبها بوجهة نظره، مفصلاً عن هذه الأحداث. وقد استنتجت بيتسي بأن... «هذه الأحداث تشكل جزءاً من النتائج العديدة المحزنة لطموح بلا حدود، يرتبط بممارسة سلطة هي أيضاً لا محدودة». في إحدى الزيارات غنت بيتسي أنشودة عن تنفيذ حكم الاعدام بدوق إنفيان. وعندما فهم نابليون موضوع الأغنية، سأل الفتاة عما تعرفه عن القضية، أجابته «بأنه يعتبر قاتل هذا الأمير الشهير». فقال: بأن ذلك صحيح وأنه قد أمر فعلاً بإعدامه، لأن الدوق كان متآمراً ودفع مالاً للجنود لاغتياله، وأمام مثل هذا التآمر، فإنه لا يمكن أن يتصرف بطريقة سياسية أخرى إلا أن يأمر بإعدام أحد الأمراء كي يردع الآخرين عن التآمر على حياته».

بحدود الساعة الرابعة أو الخامسة، يحضر غورغو ستة أحصنة لنزهة ما بعد الظهر. يتخذ نابليون مكانه مع إحدى السيدتين فاني برتران أو ألبين دو مونطولون، وأحياناً مع الضباط أو مع الزائرين. كان يطلب من سائقي العربة

الأخوين أرشامبو، بالسير بسرعة في المنعطفات الخطيرة للهضبة.

تتذكر بيتسي ذلك على النحو التالي: «... كانت هذه السباقات تثير لدى بونابرت سعادة شريرة. كان يزيد في رعبي عندما كان يؤكد لي بأن الأحصنة سوف تسقط، وأننا سوف ننتهي قطعاً متناثرة في الأعماق السحيقة». لكن نابليون كان يرغب في الواقع، أن تسيطر صديقته الشابة على فزعها.

«... كان الامبراطور ينصح دائماً والذي أن يقومني وأنا شابة، وأنه يجب عدم تشجيع فزعي الكبير وأن لا أترك المجال لنفسي بالشعور بالخوف». وإذا لم تخرج أسرة برتران في نزهة ما بعد الظهر، غالباً ما كان يطلب نابليون من السائق التوقف أمام منزلهم في هوتس غيث. كان ينزل ويلعب مع الأطفال الثلاثة. وفي أحد الأيام، أثناء إحدى النزهات في الوادي الأخضر، الموجود خلف المنزل، اكتشف نبعاً من الماء مظللاً بثلاث شجرات من الصفصاف الحزين، وهذا وادي جيرانيوم. منذ ذلك اليوم، كان الخدم يذهبون كل يوم إلى ذلك النبع لجلب الماء لشراب نابليون المفضل. قال ذات يوم لبرتران: «إذا ترك جثماني بين يدي أعدائي عندما أموت، فأرجو أن أدفن ههنا...»

أعلن مدفع التنبيه مغيب الشمس. وعند حلول الظلام يقترب الحرس الانكليز حول لونغوودهاوس. يدخل المبعدون إلى منازلهم على ضوء الشموع إلى صالون اللعب. الرجال بلباسهم الرسمي، والسيدات بلباس السهرة. يلعبون الورق. اقترح نابليون أن يوضع الربح في صندوق مشترك لشراء العبيد وإعتاقهم. ولكن ما حدث بالنسبة لمحاولة إعتاق العجوز طوبي، عبد أسرة بالكومب، أبقى الاقتراح في مكانه.

يجهز العشاء في الساعة الثامنة عادة، وهو مناسبة لاحتفال آخر. وعلى نفس البروتوكول الذي كان يجري في قصر التويلري (في باريس) سيبرياني في الجاكيت الأخضر المذهب الأطراف والسروال الحريري الأسود، يفتح قاعة الطعام، وينحني ليعلنّ: «طعام صاحب الجلالة جاهز». عندها يقدم نابليون ذراعه إلى السيدة الأولى، وفي غالب الأحيان ألبين دو مونطولون، باعتبار أن أسرة برتران تعيش خارج لونغوود ثم يأتي دور الضباط الذين يتخذون أماكنهم حسب البروتوكول مما يشكل سبباً إضافياً لخلافات جديدة. لم يعد لهذا البلاط

أية سلطة، لكن ذلك لم يمنع الضباط من الاختلاف. غورغو على الأخص، يجد سبباً لتعكر مزاجه، فقد كتب في مذكراته بأنه سوف «يرفس» لاس كاسس إذا حاول هذا الرجل القصير أن يمر أمامه ثانية. وقد كتب بخصوص دو مونطولون: «لقد تناقشت مع زميلي بشأن الأماكن حول الطاولة وقد قلت له بأني لن أتنازل أمامه، وسوف أتبارز معه قريباً».

يقدم العشاء في صحون فضية، ومن بورسلان السيفر التي تحمل رسومات لمعارك نابليون، حملها معه مارشان من باريس. وإذا نسي المنفيون لبعض الوقت، الحراس الانكليز الموجودين على مقربة من النوافذ، وتصوروا أنفسهم بأنهم قد عادوا إلى الأيام السعيدة في قصر التويلري، فالمحيط يطوقهم من كل جانب، والشمعدانات تسبب حرارة خانقة، ويزول الوهم عندما يقفز جرذ في الصالة. يهتم سان دنيس ونوفيراز بنابليون فقط. ومن بين الخدم الآخرين، يوجد بحارة انكليز يلبسون الزي الامبراطوري الفرنسي، نوع من التنكر اللامجدي. الوجبة جيدة: شوربة، مقبلات، لحم مشوي، خضار ثم الفواكه. كان الطعام في لونغوود سبباً للنزاعات الطويلة بين المنفيين والسلطات الانكليزية.

فالفرنسيون يشتكون من النوعية الرديئة للمواد الغذائية والانكليز يتذمرون من الإسراف في لونغوود الذي يستنزف الميزانية اليومية للمنفيين وموارد الجزيرة. والواقع، فإن هذه الموارد تشكل نقصاً مزمناً للمواد الغذائية في الجزيرة. والفرنسيون والانكليز على حق، كل من جهته. فاللحم والخمر المستورد من أفريقيا الجنوبية، نادر وغالي الثمن، وتسوء نوعيته بسبب الطريق البحري الطويل. والمستعمرون والبحارة الانكليز أقل حساسية من الفرنسيين لهذا الأمر، لأنهم كانوا بالأمس يعيشون حياة الملوك في باريس. يستمر العشاء أربعين دقيقة تقريباً، حتى يقوم نابليون فجأة ويغادر قاعة الطعام.

بعد العشاء، يعود البلاط الملكي إلى الصالون، لقتل الوقت حتى ساعة النوم. في لونغوود كما هو واضح، فإن وسائل الترفيه محدودة. يعود البعض للعب الورق، والبعض الآخر يستمع إلى ألبين دو مونطولون، وهي تعزف على البيانو وتغني ألحاناً إيطالية تطرب نابليون، أو يتحدث الامبراطور عن الأحداث

الكبرى في حياته. يعيد سرد المعارك وخاصة المعركة الأخيرة، التي كان عليه أن لا يخسرها، بل كاد أن يربحها، وهي التي تعود إلى ذهنه على الدوام: واترلو. لقد كتب: «أية رواية حياتي هذه!» أو يطلب كتاباً من أحد الخدم ويقرأ بصوت عالٍ، روايات ومسرحيات وشعراً. كان يحب الشاعر الغالي أوسيان بشكل خاص، ورواية بول وفيرجيني التي تدور أحداثها في إحدى جزر المحيط الهندي. عندما كان يرغب في قراءة مسرحية، كان يقول: «لنذهب إلى المسرح». كان يتوقف مراراً لينتقد المؤلف. فقد لاحظ بأن الاستنتاج في بريتانيكوس (راسين) فج، وأن المشاهد لا يمكن أن يتوقع تسميم الشخصية الرئيسية. كان نابليون يقرأ بشكل سيء وبصوت رتيب، كان يحطم إيقاع الشعر. والكل كان يعرض نفسه على نابليون ليقرأ الشعر بدلاً عنه. كتب غورغو عن إحدى الليالي في مذكراته: «طلب الامبراطور مسرحية زائير لفولتير وظل يقرأها حتى منتصف الليل. لقد أنهكنا النعاس والملل».

وفي جميع الأحوال لم يكن يحق لأي شخص مغادرة الصالون قبل نابليون حتى ولو أخذه النعاس أو الملل. وفي النهاية، نظر إلى الساعة وقال: كم هي الساعة؟ أوف! لا أهمية لذلك، لنذهب إلى النوم. وعندما يذهب إلى غرفته، كان يحتفظ بأحد ضباطه، أحياناً لمتابعة القراءة بصوت عال، وعندما يأخذه النعاس، يقوم مارشان بإطفاء النور وإشعال قنديل النوم، وينسحب إلى غرفته الصغيرة أو إلى سقيفته. وعندها يبقى خادم آخر في الغرفة الصغيرة بانتظار جرس نابليون الصباحي ليعلن بداية يوم جديد في لونغوود هاوس.

غلاسكو ـ آب ١٩٦٠

جلس الرجلان في مخبر غلاسكو أمام كؤوس الشاي. شعر الاثنان بالمودة لبعضهما البعض على الفور. كانت المحادثة بالانكليزية. وكعادة الكثيرين من السويديين، فقد تعلم ستين فورشوفود، وهو فتى، اللغات الأوروبية، ولغته الانكليزية ممتازة. هاملتون سميث قبل أن يتحدث عن أبحاثه عن الزرنيخ، دعا ضيفه الذي لم يظهر شيئاً من نفاذ صبره، لزيارة المخبر.

ثم راح العالم السكوتلاندي يشرح تقنية القذف النووي المستخدمة لتحديد كمية الزرنيخ. فقد تم وزن الشعرة التي أرسلها فورشوفود ووضعت في محلول من البولي إيتلين. وفي معهد الطاقة النووية في هارويل بالقرب من لندن، خضعت الشعرة من جهة، والمحلول النموذجي من الزرنيخ، خلال أربع وعشرين ساعة، إلى محتوى الشعرة من الزرنيخ. وانطلاقاً من هذا الرقم، يمكن حساب الكمية الإجمالية الموجودة في الجسم البشري. إن هذه التقنية الجديدة التي وضعها سميث خلال فترة طويلة، واختبرها، تعطي نتائج دقيقة لشعرة واحدة خلافاً لما هو عليه الأمر بالنسبة للطريقة القديمة التي تتطلب كمية كبيرة من الشعر. أشار هاملتون سميث إلى أن: الاختبار يدمر الشعرة مع الأسف، مما يمنع إجراء تجربة أخرى.

انهالت مجموعة من الأسئلة على تفكير فورشوفود: هل يمكن للزرنيخ أن يكون من منشأ خارجي؟ من لوسيون الشعر مثلاً؟ أو أنه ظهر خلال السنوات الطويلة التي مضت بين موت الضحية والتحاليل؟

أجاب سميث بثقة: كلا. فهذا مستحيل تماماً. فالزرنيخ الخارجي يظهر بشكل مختلف. فالسم متمركز في جسم الشعرة ذاتها، وقد اخترق من الجذر وجاء بالتأكيد من الجسم.

راح فورشوفود يزين كلماته:

ـ هل يمكن تحديد الشخص الذي تعود له الشعرة؟

ـ ليس بالتحديد، أجاب هاملتون سميث.

بالمقابل، إن ما يمكن تحديده بدقة، هو، هوية شعرتين أو أكثر، فيما إذا كانتا تعودان لنفس الشخص، فالشكل الذي يتخذه الزرنيخ في شعرة أحد الأشخاص، فالشكل الذي يتخذه الزرنيخ في شعرة أحد الأشخاص متميز كشكل بصمة الإبهام.

وعليه، لو أعطاه فورشوفود شعرات أخرى، لأمكن القول فيما إذا كانت هذه الشعرات تعود لنفس الشخص، صاحب الشعرة الأولى، بفضل طريقته في التحليل.

وأخيراً، جاء السؤال المؤكد:

ـ هل يمكنك أن تقول لي، أيها الصديق، من كان ضحية هذا الجرم؟

بقي فورشوفود صامتاً للحظة، ثم أجاب متباطئاً:

ـ إن هذه الشعرة تعود لنابليون.

شحب لون هاملتون سميث. خشي فورشوفود للحظة أن يكون قد أساء إلى الرجل الذي ما زال يحتاج لمساعدته. سميث إنكليزي... كان عليه أن يفكر بالعواقب التي ستقع على بلاده، إذ أنه يعتقد ضمناً، بأن الإنكليز، هم المسؤولون، عن هذه الجريمة البشعة. لذا، فقد استدرك فورشوفود:

ـ إنني واثق بأن الانكليز ليسوا هم الذين سمموه.

ـ وماذا يعنيني ذلك؟ فأنا سكوتلاندي. أجاب هاملتون سميث بغضب.

ضحك الاثنان. وقد أزال هذا الحادث ما بينهما من الرسميات. ارتبط العالمان بصداقة وثيقة فيما بينهما. فلم يتردد هاملتون سميث خلال السنوات اللاحقة، من تقديم مساعدة مخبره لأعمال فورشوفود. أضف إلى ذلك، دخل سميث اللعبة، وهو الذي كان يعتقد بأنه يقدم خدمة روتينية إلى زميل سويدي أثارته فكرة استخدام طريقته.

وقد شرح فيما بعد لفورشوفود، كيف أنه وضع طريقة أكثر دقة تسمح بالقيام بتحليل شعرة مقطعاً مقطعاً. أدرك فورشوفود على الفور أهمية القياس

الثاني بهذه الطريقة. إذ يمكن تحديد الفترة التي تم خلالها تناول السم بدقة من خلال نمو الشعرة، وكمية السم أيضا. فإذا كان التسمم بشكل دائم، من خلال الوسط المحيط (شيء موضوع في غرفته مثلاً، أو الماء الذي يشربه يومياً) فإن التحليل سيكشف كمية ثابتة في المقاطع ويترجم بياناً بخط مستقيم. بالمقابل، إذا تم تناول السم بكميات كبيرة وعلى فترات منتظمة، فإن الخط البياني سوف يظهر ارتفاعات وانخفاضات. فالشعرة تنمو بوتيرة منتظمة (بحدود ٠,٣٥ مم في اليوم ـ أي ١،٥ سنتم في الشهر). وبذا يكون من الممكن حساب الزمن الجاري بين ذروات الخط البياني، التي تشير إلى لحظات التسمم القوي. وإذا قصت الشعرة عند الجذر، وبتاريخ معروف، فإن تحليلها مقطعياً سوف يتيح تحديد تاريخ تناول كمية السم الأولى بدقة، وبخطأ لا يتجاوز اليوم الواحد.

أخذ فورشوفود يفكر في ضفيرة الشعر الراقدة في أشياء مارشان في باريس، هذه الضفيرة التي لم تأخذ منها زوجته، سوى شعرة واحدة التي حللها سميث ودمرها.

في الوقت الحاضر لا نعلم سوى شيئين اثنين: ظهرت على نابليون في نهاية حياته أعراض سريرية بالتسمم بالزرنيخ. وعند وفاته كان شعره ـ وبالتالي جسمه كله ـ يحتوي على كمية مرتفعة جداً من الزرنيخ. في الوقت الحاضر، وبفضل تقنية التحليل المقطعية المحسنة، فإنه بالإمكان التحديد فيما إذا نابليون قد تناول السم بشكل مستمر أم بكميات كبيرة متواترة. كما يمكن حساب تواريخ تناول السم بدقة، لأنه معلوم بأن الضفيرات قد حلقت ولم تقص غداة وفاته. يكفي الانتباه إلى تواريخ وروايات الأعراض اليومية التي كانت تظهر على المريض خلال الأشهر الأخيرة من حياته، وبعدها يمكن إعادة تأريخ هذا الجرم يوماً فيوماً. وعندها يمكن لفورشوفود أن يفسر للعالم، ومعه الدليل، كيف تم قتل نابليون. من أجل ذلك يجب الحصول أولاً على شعرات أخرى للامبراطور. يذكر فورشوفود كيف أن الكومندان قد عثر على شعرات أخرى. لماذا لم يقبلها؟ لم يصنع شيئاً بعد، ويجب السفر مجدداً إلى باريس.

افترق هاملتون سميث وستين فورشوفود كأفضل صديقين في الدنيا. وعد السويدي بالعودة إلى غلاسكو فور حصوله على شعرة أو شعرات أخرى من نفس الخصلة. وبدأ الإثنان بالتفكير في نشر اكتشافاتهما.

لونغوود ، سانت هيلين
١١ تموز ١٨١٦

في الساعة الرابعة بعد الظهر، دخل نابليون وغورغو غرفة ألبين دو مونطولون. لقد ولدت طفلها الثاني منذ عدة أيام وكانت بنتاً. وجدا زوجة مونطولون الجميلة تقرأ (حكايات لافونتين) و(تاريخ الماركيزة دو برانفيلين). وقد سجل ذلك غورغو في مذكراته.

إن تاريخ السيدة برانفيلين ليس حكاية ولكن رواية حقيقية لأشهر قضية جنائية في تاريخ فرنسا. كانت ماري مادلين دوبريه، الماركيزة دوفيليين، تعيش في باريس في منتصف القرن السابع عشر أيام حكم الملك لويس الرابع عشر وقد اتهمت بإعطاء سم الزرنيخ لعدد كبير من الرجال، وخاصة والدها وأخويها. أعدمت عام ١٦٧٦ (مزق جسدها وأحرق). اعترفت الماركيزة قبل موتها بالجرائم التي ارتكبتها.

تشكل اعترافاتها وشريكيها المادة الأولى للكتاب الذي كانت تقرؤه ألبين دو مونطولون ظهيرة ذلك اليوم. يسرد الكتاب وصفاً للتسمم البطيء بالزرنيخ في وجبات الطعام دون أن يتم اكتشافه. ملخص القضية هو: عام ١٦٦٣، كان عمر مادلين دو برانفيلين ثلاثة وثلاثين عاماً. متوسطة الطول ذات عينين زرقاوين وشعر كستنائي كثيف وهي إمرأة معتوهة وفاسقة وذات حساسية كبيرة. بقيت طيلة أربعة أعوام خليلة ضابط في الخيالة يدعى غودان اتخذ له لقباً: سانت كروا. والد الماركيزة كان أحد الوجوه الباريسية المعروفة، لم يوافق على طريقتها الفاضحة في علاقتها مع خليلها. أوقفه في عربة ابنته وسجن في الباستيل. خلال الشهرين اللذين قضاهما سانت كروا في السجن تعرف على إيطالي خبير في السموم يدعى أكسيلي، واسمه الحقيقي إيجدي. كان هذا

الرجل يعمل ضمن حاشية ملكة السويد كريستين لحمايتها من موت محتمل بالسم. بعد خروجه من السجن، أخذ سانت كروا يتردد مع الماركيزة على صيدلي سويسري معروف في تلك الفترة اسمه كريستوف غلاسر، صيدلاني الملك، ولديه حانوت في ضاحية سان جيرمان. راح الثلاثة يحضرون السم وسموه «وصفة غلاسر». بعدها أخذت مادلين تتردد على مشافي باريس للقيام بما سمته أعمال الخير وتحمل الهدايا إلى المرضى مع المربيات والنبيذ والبسكويت. وقد مات العديد من المرضى بعد تذوقهم هذه الهدايا. وفي كل مرة كان الأطباء يقولون بأن الموت طبيعي. لم تغفر الماركيزة لوالدها إدخال خليلها إلى السجن، فبعد ثلاثة أعوام في شباط ١٦٦٦ أخذت تعطيه كميات قليلة من الزرنيخ، مما جعله يشكو من آلام في الرأس وفقدان الشهية والإقياء والحكة وآلام في الصدر، وبات شاحب اللون. لم يتمكن طبيبه المعتاد من تشخيص الداء ولا معالجة المرض. ذهب الوالد إلى بيته في الريف آملاً في تغيير الجو والشفاء. بدأ يتحسن، لكنه استدعى ابنته التي بقيت في باريس للانضمام اليه. عاوده الألم بعد وصولها وعادت الأعراض فقرر العودة إلى باريس لاستشارة طبيب آخر. ازداد مرضه، وراح يتقيأ باستمرار. قبل وفاته استدعى الكاتب بالعدل لكتابة وصية جديدة لصالح ابنته التي اعتنت به كثيراً. فور مغادرة الكاتب بالعدل، أعطت الماركيزة والدها قدحاً من النبيذ المقيء ـ احتوى النبيذ على طرطرات الأنتيمون والبوتاسيوم ـ الذي وصفه الطبيب. مات والد الماركيزة بعد ثمانية أشهر من تناول الجرعة الأولى من الزرنيخ.

لم يكشف التشخيص أي شيء خاص. اعترفت الماركيزة فيما بعد بأنها أعطت لوالدها ٢٨ ـ ٣٠ جرعة من الزرنيخ، في حين أعطاه خادمه غاستون نفس الكمية أو اكثر.

بعد أربعة أعوام ولكي ترث أخويها قتلتهما أيضاً. الاخ الأكبر سممه أحد الخدم يدعى لاشوسيه وكان قد استخدمه بناء على نصيحة أخته. مات بعد ثلاثة أشهر. وكوالده، كان يشكو من أزمات الإقياء خلال الأسابيع الأخيرة ولم يشك الأطباء في وفاته. الأخ الأصغر لمادلين، الذي كان يقوم على خدمته نفس الخادم لاشوسيه، مات في أيلول من نفس العام ١٦٧٠. لكن أحد الأطباء

أعلن بعد تشريح الجثة، بأن الوفاة تعود على ما يبدو للتسمم بالزرنيخ. ولم يشك أحد بالماركيزة. لم تتوقف مادلين دو برانفيلين عن أفعالها. فقد حاولت إعطاء السم لزوجها وقد أعلنت في اعترافاتها، بأن العرض الأول، كان ضعفاً مفاجئاً في الساقين. شك زوجها بها وبسلنت كروا بأنهما يبحثان عن قتله. وفي أحد الأيام وبينما كان سانت كروا يتناول الطعام مع الزوجين، قال الزوج للخادم: «لا تغير كأسي، لكن اغسله في كل مرة تعطيني إياه». بعد العشاء دخلت مادلين إلى غرفتها مع سانت كروا وعندها قررا على ما يبدو وضع حد لمحاولتهما. وقد شفي الزوج بعدها.

دست الماركيزة الزرنيخ لخدمها وأصدقائها وخلانها الكثيرون بكميات لا تسبب الموت. تناول خادم قطعة من اللحم أعطته إياها الماركيزة «فشعر بآلام مشابهة لضربات الخنجر في الخاصرة». أحد خلانها يدعى بريانكور، وهو وصي ابنها، اعترفت له بأنها دست السم لوالده وإخوته، هدد بفضحها فيماإذا حاولت إعطاء السم لأخته. أدخلت مادلين بريانكور إلى غرفة نومها حيث كان ينتظرها سانت كروا، لقتله بالخنجر تمكن بريانكور من الهرب والأمر العجيب أنه لم يحاول فضح أمرها.

بالرغم من الموت والمرض الذي كان ينتشر حولها، وبالرغم من شكوك بعض أقربائها، بدءاً من زوجها. وبالرغم من اكتشاف الزرنيخ في جسم أخيها الشاب عند تشريحه لم يفكر أحد باتهام مادلين حتى يوم وفاة خليلها سانت كروا المفاجيء والطبيعي. ولسوء الحظ فقد ترك صندوقاً يحتوي على السموم، وأربع وثلاثين رسالة من مادلين تصف فيها الجرائم التي ارتكبتها مع سانت كروا ولاشوسيه. ذهبت الماركيزة إلى أرملة سانت لاكروا لمحاولة استعادة الرسائل لكن بعد فوات الأوان. فقد سبقها ضابط الشرطة بيكار ووضع يده عليها. لكن بيكار لم يفتحها إلا بعد فترة طويلة. أقامت أرملة الأخ الأصغر دعوى أمام القضاء، فهربت الماركيزة إلى لندن.

بعد أربعة أعوام، أي في عام ١٩٧٦، ارتكبت مادلين حماقة بعودتها إلى القارة الأوروبية، أوقفت في أحد الأديرة في مدينة ليبج، تم توقيف لاشوسيه أيضا وقدم للتحقيقات الأولية. قاوم بنجاح، لكنه بناء على إلحاح زوجة أخ

الماركيزة، وضع في التعذيب على أداة خشبية تنهك الساقين، اعترف عندها بجرائمه. الأمر الذي أدى الى إعدامه. عندها بدأت قضية الماركيزة التي دامت أربعة أشهر. استدعى بريانكور للشهادة ضدها. أنكرت الماركيزة التهم بكل هدوء وعناد بالرغم من الأدلة التي تراكمت ضدها. ثم أسقط في يدها فحكم عليها بالموت.

حثها الكاهن الذي كلف برعايتها، وهو رجل دين مشهـور اسمه الأب بيرو، على الاعتراف لانقاذ زوجها، وقضاء بعض الوقت في الطهر. سألته بكل بساطة: «كيف لي أن أعلم إن كنت في الطهر أم في الجحيم؟ اختارت في النهاية أهون الشرين، واعترفت بذنبها. لم توضع في جهاز الماء(عبارة عن قمع يوضع في الفم بين الأسنان يملأ بالماء حتى انفجار الجهاز الهضمي) لكنها رفضت إعطاء اسماء شركائها. اجتازت مادلين دو برانفيلين طريقها بين الجموع المحتشدة إلى مكان تنفيذ الحكم. لم تبد أي خوف، بل كانت متعاونـة مع الجزار خلال نصف الساعة الطويلة لقص الشعر وربطها بالمقصلة. قطع رأسها بضربة ساطور واحدة.

بعد أن ترك نابليون غورغو ألبين دو مونطولون تحدثا في قضية برانفيلين. فكر نابليون بأن المرأة يمكن أن تدس السم لزوجها، لكن لا يمكنها ذلك مع والدها. أجاب غورغو: «لا هذا ولا ذاك، فالسم سلاح الجبناء».

غوتنبرغ - أيار ١٩٦١

اتصل ستين فوشورفود هاتفيا مع هنري غريغون، رئيس مختبر السموم لدى قيادة الشرطة في باريس، ليسأله فيما إذا قام بتحليل شعر نابليون الذي أعطاه إياه منذ أربعة أسابيع. إلا ان غريغون لم يكن قد أجرى التحليل المطلوب. كما أن الكومندان لاشوك الذي أعطاه الشعرات قد استعادها منه قبل إجراء التحليل عليها. وحسبما قال غريغون، فإن لاشوك أخبره بأنه يحتاج لهذه الشعرات لعرضها في أحد المعارض. وهل يعقل أنه احتاج لهذه الشعرات من أجل المعرض في حين أنه يمتلك ضفيرة كاملة في متحفه الخاص؟ أمر صعب التصديق! فالقصة كلها غير صحيحة. شعر السويدي، ولسبب مجهول بأن أبواب باريس باتت توصد أمامه. وهذا يعني بأن عمله خلال الأشهر الماضية قد ضاع، وسيكون من الصعب، بل من المستحيل إصلاح الأضرار.

إذن يجب التأكد من الموضوع. جلس فورشوفود في مقعده المفضل تحت صور وتماثيل نابليون، التي تزين الصالون. كان خائب الأمل ومنزعجاً لكنه لم يشعر بالهزيمة. بدأ يملأ غليونه بالتبغ ويستعرض الأحداث التي جرت في باريس قبل شهر بطريقته الخاصة.

لقد حضّر جيداً لرحلته. فقد كتب في الخريف وبعد رحلته إلى غلاسكو، إلى الكومندان لاشوك يعرض عليه التقنية الجديدة التي وضعها هاملتون سميث لحساب كميات ووتيرة تناول الزرنيخ. وقد طلب من المؤرخ الفرنسي شعرات أخرى من ذات الضفيرة، التي حلقت من رأس نابليون غداة وفاته والتي حملها معه لويس مارشان من سانت هيلين. كما اقترح فورشوفود تكليف مختبر فرنسي بالتحاليل. وقد أجاب الكومندان لاشوك، بشكل لطيف جداً، كما اقترح تنظيم عدة لقاءات بين فورشوفود وعدة أخصائيين في العاصمة

الفرنسية. كان الموعد في العاشر من نيسان، الساعة العاشرة والنصف صباحاً، في مكتب الخدمات التاريخية في وزارة الحرب. تم اختيار المكان بعناية: فندق بريان، على مسافة خطوتين من شارع لاس كاسس، وغير بعيد عن ضريح الامبراطور. قصر بريان، مقر وزارة الحرب يحتوي على عدد كبير من الذكريات عن فترة نابليون. بني في القرن الثامن عشر لأمراء كونتي ثم أصبح مقراً لإتيان شارل دو بريان مطران طولوز، ملحد عن قناعة ووزير مالية لويس السادس عشر قبل الثورة الفرنسية بقليل. وفي عهد الامبراطور، فإن «السيدة الوالدة» جعلته مقر إقامتها الباريسية، وقد كان لوسيان أحد أخوة نابليون، يستقبل فيه خليلاته.

كانت الغرفة التي تم فيها الاجتماع قاتمة وباردة. لم يكن فورشوفود يعرف أحداً من الأشخاص الثمانية الحاضرين، سوى الكومندان لاشوك. من بين الحاضرين كان هناك طبيب في المستشفى العسكري في فال دوغراس، وطبيب عسكري آخر ورئيس صيادلة الجيش والكولونيل كيجر. بالرغم من أهمية الاجتماع لم يشعر فورشوفود بالخوف: كان يجيد الفرنسية، حيث أنه أمضى عدة سنوات دراسية في جامعة بوردو. استمع إليه الحضور لمدة ساعة. وعندما حان دورهم بالكلام، بدوا متأثرين لشخصية محدثهم ومهتمين بالموضوع. وحسب رأيهم يجب متابعته تقصي الموضوع في الاتجاه الذي يقترحه فورشوفود. ودون أن يتخذوا أي التزام، تم استعراض إمكانية إخراج جثة الامبراطور. إذن، جرى الاجتماع بشكل أفضل مما كان يتوقعه السويدي.

بعد يومين، رافق الكومندان لاشوك فورشوفود، لزيارة هنري غريغون، مدير مختبر السموم لدى قيادة الشرطة، وهو خبير في مسألة التسمم بالزرنيخ. وقد جرى الاجتماع في مختبر قريب من محطة قطار ليون. راح الاثنان يتحدثان فوراً عن السموم. فالمكان نفسه والمواد والروائح تذكر فورشوفود بكل المخابر التي عمل فيها، خلال سنوات عديدة. أظهر غريغون بسرعة، اهتماماً كبيراً بأبحاث السويدي، فلديه طريقته الخاصة في تحليل الشعر، فاقترح تطبيقها على شعر الامبراطور. وفي رأيه، كان من الواضح، بأن نابليون قد دس له السم. وأمام فورشوفود، أعطى الكومندان لاشوك إلى غريغون عدة شعرات من الضفيرة الثمينة التي حملها مارشان.

عندما خرج فورشوفود من مخبر غريغون، مشى وحيداً على ضفاف السين. فمن الطبيعي أن يحل لغز وفاة الامبراطور هنا، في هذه المدينة التي ما زالت ذكراه حاضرة فيها. في تلك اللحظة، لم يكن لدى السويدي أدنى شك في أن التقصي سوف يجد الحل في باريس، في مخبر هنري غريغون. قبل عدة أشهر، لم يكن يجروء على التفكير بأن الخبير الأول في السموم سوف يتكفل بنفسه بهذه التحاليل. فورشوفود، الذي يعرف الفرنسيين جيداً، يعلم أنهم يشكون دائماً بالنتائج القادمة من مخبر أجنبي، وخاصة عندما يكون هذا المخبر بريطانياً.

اعتقد فورشوفود أن استقصاءه قد بلغ مداه. فقد تبادل، لدى عودته إلى غوتبرغ، بعض الرسائل الودية مع لاشوك وغريغون. أكد الكومندان لاشوك تطابق وجهات النظر مع فورشوفود وأرسل إليه قصاصة من الصحف تحمل جملة بالخط العريض لغريغون: «يجب فتح قبر نابليون». كل شيء كان يبدو وكأنه يسير بشكل حسن... عندما تلقى هذه المخابرة الهاتفية المزعجة من غريغون. تساءل عما حدث، ولماذا جاء الكومندان لاشوك فجأة لاستعادة شعر الامبراطور التي سلمها بنفسه إلى مخبر رئاسة الشرطة؟

أثناء إقامة فورشوفود في باريس، طرح أكثر من مرة مسألة هوية القاتل. إلا أن الاخصائيين الفرنسيين طرحوا على أنفسهم السؤال وتوصلوا إلى نفس الاستنتاج الذي توصل إليه: فالقاتل بالتأكيد هو أحد أفراد الحاشية القريبين مباشرة من نابليون. بمعنى، أنه يستحيل اتهام الانكليز الممقوتين. وهذا ما لا يمكن التسامح فيه بالنسبة لفرنسي.

من ناحية أخرى، إذا ثبتت صحة نظرية فورشوفود، فإن الاخصائيين الفرنسيين سوف يكونون مدعاة للسخرية إذا كانت كل المؤامرات تحت أعينهم، منذ ست سنوات، أي منذ نشر مذكرات مارشان عام ١٩٥٢، لكنهم لم يروها، هذا إذا تركنا جانباً أن فورشوفود رجل أجنبي وليس مؤرخاً. فإذا لم يكن المقصود تدمير فرضياته، فقد يكون المطلوب منعه من الاستمرار في أبحاثه. لقد خضع الكومندان لاشوك بالتأكيد لضغوط أجبرته على استرداد الشعرات التي سلمها إلى غريغون.

لكن فورشوفود ليس بالرجل الذي يتراجع، وسوف يستمر في تحريك بيادقه في كل الاتجاهات.

وفي غلاسكو، ما زال هاملتون سميث مستعداً للقيام بالتحليل المقطعي. وقد جمع عشرات الضفائر من شعر نابليون أثناء حياته وبعد وفاته.

ولا شك أن هناك بعض الأسر المستعدة للتخلي عن بعض الشعرات لمصلحة العلم والتاريخ. لكن إيجاد خصلة شعر واحدة منذ مالكها الأول وحتى صاحبها الحالي يشكل عملاً كبيراً ومملاً.

بالتأكيد، هناك وسيلة سريعة، بالكشف عن نظريته إلى الجمهور مع شرح الطريقة التي يمكن بواسطتها الحصول على الدليل النهائي، مع الأمل في ظهور بعض مالكي هذه الضفائر من الشعر. وتلك طريقة تحتوي على المخاطر ولا تناسب أخلاق فورشوفود. فهو لا يعرف كثيراً الصحافة الشعبية ـ على غرار معظم العلماء، ولا يحمل إزاءها سوى القليل من التقدير. وهو الباحث الذي يرفض فكرة الحديث عن القضية علناً قبل التمكن من تقديم الأدلة القاطعة. في العام الماضي، فكر في نشر اكتشافاته الأولية وبدأ بتسجيل ملاحظاته وما تزال قابعة في دروج مكتبته. لكن فورشوفود لم يعد يستطيع الانتظار، وسوف يقدم عمله في صيغة ناقصة بشكلها الحالي.





د. أوميرا وخلفه د. أنطومارشي، طبيبا الامبراطور.

جيمس تاون، سانت هيلين
تشرين أول ١٨١٦

كان سيبرياني ينتظر دوره، وهو يحمل سلته، حيث كان هناك حوالي عشرة زبائن في مخزن بالكومب «كول وشركاه»، على رصيف ميناء جيمس تاون: وهو بحاجة إلى شهود عيان على ما سيقوم به. باتت المجموعة التي وصلت أخيراً إلى المخزن كاملة. منهم ضباط من البحرية الانكليزية لفرقاطة تقف حالياً في عرض البحر وسوف تغادر عما قريب إلى انكلترا. بكل هدوء فتح خادم نابليون سلته وأخرج منها المحتوى وطلب إلى البائع أن يزينه. راح المشاهدون يتأملون مجموعة من الأواني والصحون الفضية المهشمة والمكسرة والتي اقتلع منها النسور الامبراطورية. بالطبع فإن اقتلاع الماركات وتكسير الفضيات قد قلل كثيراً من قيمتها، فالأمر ليس له أهمية. إن ما يهم هو وجود شهود على الصفقة والحديث عن الموضوع في لندن.

سأل أحد الضباط سيبرياني: كيف حال الامبراطور؟ أجاب الخادم لا بأس، لا بأس بالنسبة لشخص مضطر لبيع أوانيه الفضية للعيش...

كان وزن الأواني الفضية حوالي ٩٥٢ أونصة، وقد قدرت قيمتها بـ ٢٤٠ جنيه استرليني. وضع هذا المبلغ في حساب لونغوود هاوس. بعد انتهاء الصفقة ركب سيبرياني بكل وقار حصانه وعاد إلى لونغوود. فقد أتم مهمته الحساسة. لقد برهن هذا الكورسيكي المخلص، مرة أخرى، أسباب ثقة نابليون فيه. روى للامبراطور، بأن الضباط الانكليز الذين حضروا المشهد، قد بدوا مزعوجين ومستاءين. قال له نابليون: «في كل مرة تحتاج فيه، للمال بع كمية مماثلة من الأواني الفضية حتى ولو انتهيت منها كلها».

إن هذا البيع العلني الذي تم عمداً هو إحدى المناورات التي قام بها نابليون في حربه الصغيرة ضد الحاكم الانكليزي الجديد السير هودسون لو، بخصوص ميزانية لونغـوود فقد طلب هـودسون لـو، بناء على أمـر من اللورد باثورست، وزيـر المستعمرات، من المنفيين الفرنسيين تخفيض المصاريف السنوية في لونفوود، وإنقاصها من ١٢ ألف إلى ٨ آلاف جنيه استرليني. وهذا قرار غريب، فمصاريف لونفوود تكاد لا تذكر بالمقارنة مع مبلغ الـ ٢٥٠ ألف جنيه استرليني التي خصصها الانكليز للانفاق على العناصر والسفن الواقفة في سانت هيلين. والمبلغ الذي يعتبر اليوم كبيراً لمعيشة ٥٠ سجيناً تعيساً في لونغـود، يذكر بالراتب الشهري للحاكم وهو /١٢/ ألف جنيه استرليني. إن نابليون الذي يمتلك في الواقع، ثروة كبيرة، موجـودة في أوروبا يبحث عن إزعاج السلطات الانكليزية. فقد قال لمونطولون: «دع نوفيراز يكسر كل الأواني الفضية بالفأس». وعليه راح سيبرياني يدفع الخادم السويسري إلى كسر القطع الفضية في أحد الأماكن العامة، على مشهد من الحامية الانكليـزية. كـانت النسور، التي يمكن أن تشكل ذكريات للانكليز، تنزع ويضعها مارشان جانباً. وفي الواقع، فإن نابليون لم يكن يهتم كثيراً بأوانيه الفضية ولا بالميزانية. فقد أوكل تلك المهمة إلى مونطولون في لونغـوود وليس إلى المارشال الكبير برتران الذي كان يقوم بإدارة قصر تويلري. إن ماضي مونطولون لم يكن يؤهله للتعامل مع المبالغ الكبيرة من المال. فقد أنفق في سن العشرين إرث والده. وعندما كان جنرالاً في ظل حكم البوربون، أيام كان نابليون منفياً في جزيرة إلبا، اتهم بسرقة رواتب جنوده. كان مونطولون يرد على الانكليز الذين كانوا يشكون من الاستهلاك الكبير للخمر في لونغـوود بأنه يفعل كل ما في وسعه، فقد كان يضع على طاولة الامبراطور ما لم يكن يفعله في فرنسا، أي أنه كان يأمر بإعادة وضع أغطية زجاجات النبيذ المستهلكة لإعادة استخدامها في اليوم التالي.

ومهما كان تفكير نابليـون عن قدرات مـونطولـون الإدارية، فـإنه كـان يستخدم مسألة المال في لونغـوود لكسب عـطف الجمهور الانكليـزي. وكان يبحث عن سبيل لاقناع الحكومة في لندن كي تتركه يعود إلى أوروبا في أي مكان بعيداً عن هذه الجزيرة البائسة حيث يموت من الضجر. لقد أصبح عمر

نابليون ٤٧ سنة والعالم لم ينسه بعد. عرض الحاكم الجديد بمسكنته، على الامبراطور فرصة ممتازة لجذب الانتباه عن حياته في سانت هيلين. يشعر الرجلان دفعة واحدة بعدم محبة أحدهما للآخر. لقد وصل الجنرال السير هودسون لو إلى سانت هيلين منذ خمسة أشهر، وخلال حياته العملية المتواضعة شغل مناصب نصف دبلوماسية ونصف عسكرية. فقد كان قائداً لكتيبة الكورسيكيين الحليفة للانكليز، أثناء الثورة. ويعتقد نابليون بأن الانكليز قد أهانوه عند تسمية هذا الرجل سجاناً له باعتباره كان قائداً للهاربين من الجزيرة التي ولد بها. وكان يشعر بالقرف من المظهر الخارجي للحاكم الجديد: فقد كان رأسه على شكل بيضة وجبهته عالية بشكل كبير، وأنفه طويل، فوق فم صغير، وعينين خائفتين صغيرتين ـ كعيني الضبع ـ ولون البشرة تغطيه بقع كبيرة من الأكزيما. . . «أي شكل بشع لهذا الحاكم في هذا البلد اللعين؟ صاح نابليون بذلك منزعجاً أمام لاس كاسس بعد لقائهما الأول.

كان المعاصرون للسير هودسون لو لا يكنون له التقدير الكبير. دوق ويلنغتون الذي كان تحت إمرته قال عنه: «بأنه لا يعلم شيئاً عن العالم، وكسائر الرجال من جنسه فإنه غيور شكوك» إن اختيار هودسون لو، سجاناً لنابليون، يبدو له، غير مناسب على الإطلاق، وقد وصفه، ذات يوم، بأنه منافق. والكونت بالمان، الكوميسير الروسي في سانت هيلين كتب إلى حكومته «بأن المسؤولية المكلف بها، تجعله يرتجف وأنه يخاف أي شيء، ويضطرب تفكيره من أي شيء وينفعل كثيراً لأمور قد يقوم بها شخص آخر بدون أي انزعاج».

في عام ١٨٠٨، عندما كان هودسون لو يقود الحامية الانكليزية في جزيرة كابري بخليج نابولي، وقع في خطأ مهني مع شخص موجود حالياً في حاشية نابليون. فقد لجأ إلى الاستعانة بعميلين، من أجل التجسس على الفرنسيين الموجودين على القارة، يعرفهما باسم سوزاريلي وفرانشيسكي. كان الشخص الثاني، في الواقع، عميلاً سرياً لنابليون، ونجح في إقناع سوزاريلي للعمل مع الفرنسيين. كان العميلان المزدوجان يعطيان الكثير من المعلومات الكاذبة للضابط الانكليزي مما مكن مجموعة فرنسية صغيرة من الاستيلاء على جزيرة كابري الجيدة التحصين، دون إطلاق أية رصاصة. والمدعو فرانشيسكي،

ليس، في الواقع، سوى سيبرياني. لكن هدسون لو لم يعرف ذلك إطلاقاً.

الحاكم مسحوق بعبء مسؤوليته. فالهرب من جزيرة إلبا، يحاصره كالكابوس. استفاد نابليون، في تلك الفترة من غياب الضابط الانكليزي المكلف بحراسته الذي ذهب إلى جنوه لملاقاة خليلته، فهرب. وفي لندن، أعلم هدسون لو بوضوح، أن مثل هذه الأعمال يجب أن لا تتكرر، مهما كانت الأسباب. وقد فهم بأن تمردين اثنين قد حصلا، في السابق، في سانت هيلين، مما دعاه للاستنتاج بأن نابليون سوف ينظم تمرداً من بين أعضاء الحامية والسكان.

طبق هدسون لو، منذ الأشهر الأولى، بعض الأنظمة الخاصة السيئة، التي أهملها، عن عمد، سلفه الأميرال كوكبورن. فقد أصدر تعليمات جديدة من بنات أفكاره. ذهب راكباً حصانه، إلى بيت برتران، على هضبة لونغوود ليعلم المارشال الكبير، بأن على جميع المنفيين، ضباطاً وخدماً، أن يوقعوا تصريحاً يلزمهم، بالبقاء في سانت هيلين طيلة فترة نفي نابليون. ومن يرفض من هؤلاء التوقيع، سوف يبعد على الفور. أثار هذا الطلب اضطراباً كبيراً لدى الفرنسيين.

فاني برتران، على الأخص، التي حاولت أن ترمي بنفسها، في البحر من السفينة نورثمبرلاند، كانت تأمل، دائماً بالعودة إلى انكلترا، بسرعة، لتربية أطفالها. فهي ما زالت شابة، ولم تقبل بإضاعة سنوات حياتها الجميلة في المنفى. كانت تبكي أياماً طويلة وتقوم بأفعال عنيفة لزوجها، فتكسر الصحون في فورات غضبها. في النهاية وقع الضباط جميعاً تصريحاً غامضاً كتبوه بأنفسهم. فقد كتب برتران: «أعلن أنني أرغب البقاء في سانت هيلين» والخدم وقعوا تصريحاً كتبه نابليون يتضمن وعداً «بالبقاء هنا» وهذا ما لم تطلبه لندن بالتأكيد، إلا أن الحاكم كان مضطراً للاكتفاء بذلك. إن معظم الأنظمة التي أصدرها هودسون لو في لونغوود على شكل كتب يسلمها مساعدوه إلى برتران كانت تهدف إلى تقليص اتصالات نابليون مع السكان في الجزيرة، وبالتالي مع العالم الخارجي. هذا علماً بأن المنفيين قد نجحوا بانتظام في تجاوز الرقابة، بالرغم من منع سكان سانت هيلين من أي اتصال مع لونغوود بدون تصريح

منه. إن هذا التحفظ لم يمنع كذلك الرسائل من الاستمرار في العبور. وعندما رحّل هودسون لو، أحد الخدم من الجزيرة، واسمه سانتيني، كتب نـابليون مذكرة احتجاج على قطعة من الساتين الأبيض حملها معه سانتيني مخاطة على بطانة الجاكيت. وقد نشرت الرسالة في انكلترا تحت عنوان: «احتجـاج من سانت هيلين». وقد حدد هودسون لو الحدود التي يمكن أن يتحرك داخلهـا نابليون دون مرافقة من مجموعة إنكليزية، ونفذ القاعدة التي فرضتها لندن ولم يطبقها كوكبورن، والتي تقضي بأن نابليون يجب أن يشاهد من قبل ضابط إنكليزي مرتين في اليوم على الأقل وحـاول نابليـون أن يرد على ازعـاجات الانكليز. فعندما تم تقليص المكان، توقف عن ركوب الحصان وقال لطبيبه باري أوميرا بأن الانكليز منعوه من التمرين، وأن الأسى سوف يعود عليهم. ولتحاشي إثبات وجوده مرتين في اليوم، كان يبقى في غرفته أياماً كاملة. وفي حزيران أثناء الشتاء الجنوبي عندما تكون لونغوود مغطاة بالضباب وتحت المطر لم يتمكن أي انكليزي من رؤية نابليون طيلة ثمانية أيام متتالية.

بات هودسون لو شديد القلق، كالمجنون، فقد حذّرته لندن منذ شهر من محاولات الهرب. وقد سرت شائعة بأن حملة سوف تنطلق من البرازيل، وأن عميلاً بونابرتياً قد نجح في التسلسل إلى سـانت هيلين، وأن أميركيـاً اسمه كاربنتر يسلح باخرة في هودسون لانتشال نابليـون. واليوم في ظـل الظروف الجوية يختفي سجينه، فهل ما زال موجوداً في لونغوود؟ أم أنه نجح في الهرب تحت الضباب وهل بات في طريقه إلى أوروبا؟ ضاق صدر الحاكم فأرسـل رسلاً إلى لونغوود يهددون بكسر الباب إذا لم يظهر نابليون.

وفي الواقع، فإن الضابط الانكليزي كان يقرع على الباب الذي كان يطل من الحديقة على غرفة الامبراطور ويصيح: يا بونابرت لكن دون جواب.

استدعى نابليون أوميرا، كان لديـه في الغرفـة زوجاً من المسـدسات المحشيين، وقال لطبيبه: «سأقتل كل شخص يحاول الدخول عنوة إلى بيتي. ولن أذوق طعم الخبز ولا اللحم أو لا أسمى نابليون. وأضاف إنني مصمم على ذلك، وأنا أعلم بأنني سوف أقتل بعدهـا، لكن ما الـذي يمكنني عمله ضد معسكر من الجنود؟ لقد واجهت الموت كثيراً ولا أخشاه». لم يشأ هودسون لو

أن يخاطر في قتل نابليون من قبل جندي انكليزي وانتهى به الأمر إلى التراجع.

إن نابليون في صراعه مع هودسون لو، بات يرى الحلقة تشتد ضيقاً حوله. فالزوار باتوا قلة وبالتالي تضاءلت فرص الاتصال مع العالم الخارجي، وباتت الأيام فيلونغوود تجري رتيبة أكثر فأكثر.

في تلك الفترة وصل مفوضون جدد. في حزيران ١٨١٦ نزل إلى الجزيرة ممثلو القوى الحليفة الثلاث فرنسا والنمسا وروسيا. اعتقد نابليون، في البداية، أن بإمكانه الاستفادة من بالمان الروسي وستورمن النمساوي. فقد كان القيصر الكسندر صديقه قديماً. وقد يكون بالإمكان إقناعه للحصول على نهاية المنفى. وكذلك الأمر بالنسبة للنمسا: فالامبراطور فرانسوا، هو والد زوجة نابليون، وربما أرسلت إليه أخباراً عن ماري لويس وملك روما. لكن المفوضين الروسي والنمساوي لم يحملا أية رسالة. والرسالة الوحيدة التي تخص أسرة الامبراطور قد وصلت بشكل غير مباشر. فقد سلم شاب يهتم بالنبات كان يرافق البارون ستورمن رسالة إلى مارشان من والدته، التي تقوم على خدمة ماري لويز في ڤيينا، مع خصلة من شعر ملك روما الصغير. لقد كانت مهمة موفدي القوى العظمى الحليفة هي التأكد من أن نابليون ما زال موجوداً في سانت هيلين. رفض الامبراطور استقبالهم بهذه الصفة لأن ذلك يعني الاعتراف بحق الحلفاء في الحفاظ عليه، سجيناً، وقبل بالمقابل، أن يستقبلهم بصفة شخصية، الأمر الذي رفضه المفوضون، ولذلك لم يلتقِ بهم إطلاقاً.

أما بخصوص المفوض الفرنسي فالأمر مختلف تماماً. فالماركيز مونشينو أرستقراطي من أصل عريق، مغرور وليس له من فضيلة سوى اسمه. كان أمين سره الشاب، يقوم بكل أعماله ويرسل التقارير الشخصية إلى باريس. لقد وصل مونشينو حاملاً رسائل إلى فاني برتران ولاس كاسس ومونطولون وسواهم، لكنه لم يحمل شيئاً إلى نابليون، الذي لم يكن ينتظر شيئاً منه، ولا من سيده على أية حال. وقد قال الامبراطور «لا أطلب شيئاً من لويس» كان نابليون يحتقر غرور مونشينو: «بالنسبة لهؤلاء الأغبياء الولادة والأصل هي الشيء الهام، وأمثاله كانوا السبب الرئيسي للثورة. فليحم الله الأمة التي يقودها مثل هؤلاء الرجال!» وعندما علم بأن مونشينو قد نقل إلى أوروبا أفعاله الشيطانية مع بيتسي

بالكومب، أرسل أومبيرا إلى البريار حاملاً رسالة لبيتسي تشير إلى طريقة الانتقام من هذا الرجل، الأمر الذي حاولت تنفيذه. كان الماركيز فخوراً بشعره المستعار المربوط بذنب طويل. وقد نصحني بحرق هذه الزينة بمادة لاذعة. كنت مستعدة لمثل هذه الولدنة، خاصة وأنه كان لديّ دافعين اثنين: فنابليون وعدني بتقديم أجمل مروحة في دكان سلمون إن نجحت في إرسال ذنب الشعر المستعار إليه. ولحسن الحظ فقد منعتني تهديدات والدتي من القيام بهذه الدعابة الثقيلة».

كان نابليون يعلم بأن قلة الحركة التي فرضها على نفسه، تسيء إلى صحته، وهو الذي كان يمضي أياماً كاملة على ظهر الحصان أيام سلطانه، وكانت الخيول تموت تحته بعد أن تمضي، عدة أيام، دون نوم، أثناء المعارك. وفي قصر التويلري، كان يعمل عشرين ساعة متواصلة. واليوم، بات يمضي ساعات طوال جالساً أمام نار الخشب دون أن يفعل شيئاً. منذ سنة ساءت صحته كثيراً. في شهر أيار أرسل مارشان في طلب الدكتور أومبيرا الذي لم يكن يراه عادة إلا من أجل التحدث إليه.

كان يشكو من ألم بالمفاصل، وقال للاس كاسس: إن ساقي غير قادرة على حملي كان يشعر بالبرودة والشمس تسبب له آلاما في الرأس. اللثة تؤلمه، وقد وجدها أومبيراً اسفنجية وشاحبة وتنزف دماً لأقل ملامسة». وقد عزى الطبيب هذه الأعراض التي كان يشكو منها غورغو أحياناً إلى الطقس. وفي ذلك تشخيص يصلح لأي شيء. وكالعادة، كان الامبراطور يرفض تناول الأدوية التي كان يقترحها أومبيرا، ويقول: «إن الأدوية للمسنين». إن قلة التمارين لا تناسب صحته، إلا أنه قبل ذلك وهذا أفضل من التنازل إلى الحاكم كي يعامله معاملة السجناء باعتبار أنه لم يعد بإمكانه التنزه وحيداً راكباً حصانه.

في ١٨ آب وقع حادث عنيف بين نابليون وهودسون لو. قبل عدة أيام اختلف الحاكم مع برتران، فوضع مجموعة من الحراس حول منزل برتران، ولم يعد بإمكان أحد الدخول أو الخروج. وقد تم إيقاف جندي انكليزي أرسل للبحث عن الدكتور أومبيرا لمعالجة أحد خدم برتران. ذهب هودسون لو برفقة الأميرال مالكولم إلى لونغوود للتشكي من تصرف برتران. كان نابليون غاضباً

ولم يجبه، وتوجه بشكل واضح إلى الأميرال بالقول: «برتران رجل قاد الجيوش لكنه يعامل اليوم معاملة العريف، وهو يعاملنا معاملة الهاربين الكورسيكيين! إن الحكومة تستخدم نوعية من الرجال: أولئك الذين تحترمهم، وأولئك الذين تحتقرهم. وهو من الصنف الثاني: إن المكان الذي أعطي له هو مكان الجلاد».

اصفرّ وجه هودسون لو من الغضب، وأجاب «انني أطيع الأوامر».

- إذا أعطيت أمراً بقتلي، هل تطيع؟

- كلا، فالانكليز ليسوا قتلة.

كان نابليون يصرخ وهو شديد الغيظ: «لا يمكنني كتابة رسالة دون أن يراها، ولا يمكنني استقبال إمرأة دون إذنه، وقد صادر كتاباً أرسله إلي أحد أعضاء البرلمان وافتخر بفعلته هذه». حاول الأميرال الدفاع عن الحاكم: «لقد احتفظ السيد هودسون لو بالمجلدات لأنها تحمل في الإهداء عبارة الامبراطور. لذا فإنه لا يحق له تسليمها إليك.»

قفز نابليون غاضباً وقال: «ومن أعطاك الحق لمنازعتي في اللقب؟ خلال أعوام، سيدفن اللورد كاستلري، واللورد باثورست وكل اللوردات الآخرين، وأنتم الذين تتحدثون معي، تحت غبار النسيان، ولئن ذكركم أحد فذلك للأعمال الشائنة التي تمارسونها ضدي.»

لقد طفح الكيل فقد غادر الحاكم المكان فجأة. لقد ندم نابليون فيما بعد لأنه استشاط غيظاً وهو الذي كان يعرف الحكم أيام سلطانه. فالغضب الذي كان يظهره آنذاك كان محسوباً بعناية. قال مرة أمام لاس كاسس: «عليّ أن لا أستقبل بعد اليوم، هذا الرجل. فهو يحملني على الغيظ، وهو دون مستواي وقدري، وتبدر عني كلمات لم تكن تقبل أيام التويلري. وإذا كان هناك من عذر لها هنا، فذلك لأنني بين يديه وتحت سلطته.»

بعد ذلك اليوم، لم يعد نابليون يرى هودسون لو. استمرت الحرب بينهما عبر أشخاص آخرين.

كان هودسون لو في مكتبه في بلانتيشن هاوس، يقلب الرسائل التي كان

يرسلها إلى لونغـوود لساعات طوال، وأجوبة نابليون الرسمية، عندما يكون هناك جواب، يمليها هو ويوقعها مونطولون أو برتران.

وعندما يريد إطلاق اتهام لا يترك أثراً مادياً من خلال الورق، كان نابليون يستخدم أوميرا وسيطاً، يستقبله عادة في حـديقته أو سـاعة الحمـام، يجمع الأوصاف الانتقامية ضد الحاكم ويصفه غالباً «بالجلواز الصقلي». قال نابليون لأوميرا: «عندما يحيط بيتي بعناصر أركانه، فإنه يذكرني بالمتوحشين من البحار الجنوبية وهم يقومون برقصة حول السجناء استعداداً لالتهامهم. قل له كل ما أفكر في سلوكه». يضيف أوميرا: «وخشية أن لا أنسى ما قاله لي، كان يكرر تعابيره بشأن المتوحشين ويطلب مني إعادتها». كان نابليون يرجو طبيبه أن ينقل إليه ردود فعل الحاكم.

بدا تكتيك نابليون في إرسـال سيبريـاني إلى جيمس تاون لبيـع أوانيه الفضية فعالاً. نزل سيبرياني يوم عيد الميلاد لعـام ١٨١٦، مرة أخـرى إلى الميناء مع أربـع سلل تحتوي على /١٤٥/ كيلو غـراماً من الأواني الفضيـة المكسرة. وعندما علم هودسون لو بهذه الصفقة الجديدة، استدعى سيبرياني وسأله: «عن مدى حاجته لذلك المبلغ من المال؟»

ـ أجاب سيبرياني: لشراء ما آكله، يا صاحب السعادة.

ـ لماذا تشتري كمية كبيرة من الزبدة والطيور؟

ـ لأن المبلغ المخصص من قبل سعادتكم لا يكفي لطعامنا.

ولم يتعرف الحاكم على الرجل الذي استخدمه منذ ثمـانية أعـوام في كابري تحت اسم فرانشيسكي. بعدها أوقفت السلطات الانكليزية الازعاجات بخصوص ميزانية لونغـوود بعد أن شعرت بالحرج من قضية الأواني الفضية، لقد كان ذلك نجاحاً صغيراً للمنتصر في معركة أوسترليتز. لكن نابليون لم يعد لديه معارك أخرى في سانت هيلين.

هامبورغ ـ تشرين أول ١٩٦١

لم يخف ستين فورشوفود رضاه وهو في الطائرة التي تقله من هامبورغ إلى غوتبورغ. فقد اجتاز خطوة حاسمة.

في نفس اليوم الذي رنّ فيه جرس الهاتف، ركب أول طائرة وسافر إلى هامبورغ. قدم الشخص الذي يتحدث مع فورشوفود تحت اسم كليفورد فري، وهو عامل نسيج في موشفيلين في سويسرا. فهو يمتلك خصلة شعر من نابليون كانت تعود لأبرام نوفيراز، الخادم السويسري للامبراطور. لقد قرأ مقالة فورشوفود عن تسمم نابليون، ويسعده أن يتنازل له عن بعض الشعرات ليتيح له متابعة تحاليله. حدد اللقاء في مطعم مطار هامبورغ بنفس اليوم في الساعة السادسة والنصف.

تناسب الشعرات التي حملها نوفيراز للتحليل المقطعي تماماً: فقد حلقها الخادم السويسري من رأس الامبراطور غداة وفاته.

لاحظ فورشوفود بأنهما لم يتفقا على صيغة التعارف. فلا أهمية لذلك! وفي الساعة المحددة، كان السويدي موجوداً في مطعم المطار حيث لم يجد حوله سوى سيدة ألمانية ضخمة يرافقها زوجها الذي شرب الكثير من البيرة، ومجموعة من الدانمركيين يستعدون للعودة إلى بلادهم بعد إمضاء يوم في رفقة سعيدة في ريبن باهن، شارع الملذات في هامبورغ. اتخذ مقعداً أمام طاولة صغيرة يمكّنه من مراقبة مدخل المطعم. بانتظار ذلك، راح فورشوفود يفكر في (أبرام نوافيراز) الذي كان يلقبه نابليون بالدب السويسري منذ أن كان عام ١٨١٤ في طريقه إلى جزيرة إلبا، فقد رد بيد واحدة أحد الملكيين المتعصبين، الذي هجم على سيارة نابليون.

بعد برهة، دخل رجل إلى المطعم، وبدا عليه أنه يبحث عن شخص ما: بالتأكيد هو كليفورد فري. كان الرجل مستعجلاً. رفض دعوة العشاء التي وجهها له فورشوفود. أخذ فري مغلفاً من محفظته وأعطاها إلى فورشوفورد. على المغلف يوجد اسم المرسل: أبرام نوفيراز، لا ڤيوليت بالقرب من لوزان، ٨ أيلول ١٨٣٨.

كانت موجهة إلى السير مونس ريس: سان غال، سويسرا. وفي داخله وجد فورشوفورد رسالة ومغلفاً آخر أصغر. كانت كتابة الرسالة هي نفس كتابة العنوان وموقعة ج. أبرام نوفيراز وكان من ضمن ما هو مكتوب في الرسالة. «يسرني أن أرسل إليك يا سير مونس بعض شعرات من الامبراطور نابليون التي أخذتها من رأسه بعد وفاته بتاريخ ٦ أيار ١٨٢١». كان المغلف الصغير يحمل كتابة بنفس الخط: «شعر الامبراطور الخالد نابليون». كانت الشعرات نفسها مربوطة على قطعة من الكرتون بواسطة خيط مربوط بطريقة معقدة وكانت العقدة مختومة بالشمع.

وبناء على طلب السويسري، شرح فري كيف امتلك خصلة الشعر. فمنذ فترة طويلة باعت، سيدة تدعى مونس إن هوف، وهي أرملة حفيد السير مونس، الذي أرسل إليه نوفيراز الرسالة، هذه الأشياء إلى والد فري، وهو ضابط في الجيش السويسري، حيث أورثها بدوره إلى ابنه. قال فري:

«أتنازل لك عن هذه الشعرات مقابل ١٠٠٠ دولار». اندهش فورشوفود كثيراً. فبحثه لا يكلفه الوقت فحسب، وإنما المال كذلك. وبعد برهة من التفكير، قال بأنه إن استعمل هو وهاملتون سميث شعرتين أو ثلاثاً من أجل البرهان على قتل نابليون، فإن القيمة المادية لهذه الخصلة سوف تزداد بشكل كبير. قبل فري بالأمر لكنه طرح عدداً من الشروط بعناية: فمن بين الخمسين شعرة الموجودة في الخصلة، لا يمكنه أن يسحب منها سوى عشرين شعرة كحد أقصى من أجل التحليل، وعلى أية حال فإنه يتوجب عدم فك العقدة، ويجب سحب الشعرات خارج العقدة وإن أمكن قصها من كل طرف. ويجب أن يتلقى كليفورد فري نتيجة الاختبارات والشعرات المتبقية مع المغلفات ورسالة نوفيراز. وأخيراً يجب نشر نتائج التحاليل بسرعة، في مجلة علمية من الدرجة

الأولى. ابتسم فورشوفود، فقد وجد نفسه أمام رجل أعمال سويسري بالتأكيد. لكن مهما كانت دوافع السير كليفورد فري فقد قبل بالشروط.

في الطائرة التي أقلت فورشوفود، إلى غوتبورغ، راح يفكر مرتاح البال. فنشر مقالتهما لم يذهب سدى. فقد ظهرت في عدد تشرين أول في المجلة العلمية البريطانية «الطبيعة». وقد كتب هذه المقالة هاملتون سميث وأندرو واسن عالم السموم السويدي وفورشفود نفسه. وقد وصفت هذه المقالة النتائج الأولية لأعمالهم. لم تتأخر ردود الفعل: فالأخصائيون الفرنسيون لتاريخ نابليون خاصة أجابوا بأن تحليل شعرة واحدة غير كاف، وأن الزرنيخ يمكن أن يأتي من الوسط المحيط وأن الشعرة قد لا تعود إلى الامبراطور نفسه...

ولحسن الحظ جاءت هذه المخابرة الهاتفية من كليفورد فري، «فالحصار الفرنسي» لم يعد فعالاً.



الكونت دو لاس كاسس.

لـونغوود ، سانت هيلين.
تشرين الثاني ١٨١٦.

كان نابليون جالساً على جذع شجرة في حديقة لونغوود برفقة ثلاثة من ضباطه، لاس كاسس ومونطولون وغورغو. كان الطقس جميلاً بعد ظهيرة ذلك اليوم من أيام الربيع، فالشمس ساطعة ونابليون ذو مزاج حسن. حمـل سان دنيس صينية فيها خمسة برتقالات جميلة من أفريقيا الجنوبية ـ هدية من الأميرال مالكولم ـ وسكراً وسكيناً. أعطى الامبراطور برتقالة إلى لاس كاسس لإعطائها لابنه وقطع البرتقالات الأخرى إلى قطع راح يأكلها أو يـوزعها على ضبـاطه وقال: «لقد قمت مع برتران بإجراء التحصينات طيلة اليوم، وإن بدت لي قصيرة جداً».

هبت ريح باردة، وعاد نابليون إلى البيت مع لاس كاسس. من نافـذة صالون البليار، شاهد مجموعة من خيالة الانكليز تقترب، يتقدمهم هودسون لو، يرافقه عدد من مساعديه ومن الجنود، دخل أحد الخدم وأعلن بأن مساعد الحاكم طومس ريد يرغب في الحديث مع لاس كاسس. فقال نابليون: «اذهب يا عزيزي وانظر ما يريده هذا الحيوان». بعد ربع ساعة دخل مارشان إلى الغرفة بسرعة، وهو يضطرب بوضوح، وقال لقد أوقف الانكليز لاس كاسس وابنه في غرفتهم واحتجزوا كل أوراقهم.

وصل أومبيرا في المساء يحمل أخباراً أخرى فقد التقى هودسون الذي قال له: «يمكنك أن تذهب وترى صديقك لاس كاسس في السجن». لاس كاسس متهم بالمراسلات السرية، والحاكم يعني بكلمة سـرية، كـل اتصال مكتوب أو شفهي، لم يخضع لمراقبته مسبقاً. فقد اعتـرف. شاب خـلاسي

يدعى جيمس سكوت وهو عبد محرر كان قبل فترة وجيزة، خادماً عند لاس كاسس في لونغـوود اعترف بأنه قبل بحمل رسائل إلى انكلترا حيث كان ينوي السفر مع سيده الجديد. والرسائل المكتوبة على الساتين الأبيض، والمخاطة في ملابس سكوت كانت إحداها مرسلة إلى لوسيان بونابرت في روما، والأخرى إلى السيدة كلافيرنغ في لندن. وقد طلب لاس كاسس إلى هذه السيدة نشر جملة متفق عليها مسبقاً، في إحدى الصحف اللندنية تفيد بـأن الرسـالة قـد وصلت. وعندما علم والد جيمس سكوت بالأمر لم يتردد في الاخبار عن ابنه. تم إيقاف لاس كاسس وابنه في كوخ في نهاية هضبة لونغـوود وأخذ الحاكم جميع أوراق الضابط وخاصة مئات الصفحات التي كان يمليها الامبراطور عليه. استشاط نابليون غيظاً. فقد تم الكشف عن أحد أسراره في لونغـوود وسقط عمله الهام لمجده مستقبلاً، بين أيدي العدو. وقد قدر ضباطه الذين يكرهون لاس كاسس «ويلقبونه بالجزويت» بأن الرجل القصير قد رغب في توقيفه من أجل مغـادرة سانت هيلين. فـالظروف التي أحـاطت بتوقيف لاس كـاسس كـانت مضطربة. فقد اقترح قبل عدة أيام إرسال رسائل بواسطة سكوت، وهذا جنون في حد ذاته كما قال الامبراطور، لكن لاس كاسس لم يتراجع عن ذلك. وقبل أسبوعين أخذ على حين غرة حينما كان يحاول إعطاء رسالة سرية إلى جيمس سكوت نفسه. وقد اكتفى في حينها هودسون لو بتوجيه تحذير له وإبعاد الشاب الخلاسي.

لقد كانت تلك الرسالة موجهـة إلى الزوجـة الفرنسيـة الشابـة للبارون ستورمر المفوض النمساوي.

منذ وصول البارونة إلى سانت هيلين، حاول لاس كاسس الاتصال بها. فقد كان يعرفها في باريس قبل عامين، عندما كان اسمها الآنسة بوتين، وقد قدم لها خدمات مختلفة. لذا فقد كـان يعتقد بـأنها قـد تحاول بـامتنان مساعدة المنفيين. وقد بدد نابليون آمال لاس كاسس، عندما قال له: «إنك لا تعرف القلب البشري. وبالرغم من أن والدها كان معلمـاً لابنك، وأن زوجتـك قد حمتها في فقرها، فإنها قد أصبحت بارونة نمساوية. إنك يا عزيزي الشخص الوحيد الذي تهاب لقاءه في هذه الجزيرة، ووجودك أمر مزعج لها!». والواقع،

فإن البارونة قالت بأنها لا تعرف أحداً في لونغـوود باسم لاس كاسس، وقد نقل زوجها الحادث إلى الحاكم.

والغريب، فإن العقوبة الوحيدة التي فرضت على سكوت كانت في إبعاده عن لونغوود، في حين أن العبيد كانوا يضربون بالعصي عادة لأتفه الأسباب. وأغـرب من ذلك: فقـد عاد سكـوت إلى لونغـوود، بـالـرغم من المخـاطـر اللامعقولة، مخترقاً طوق الحراس أثناء الليل، ليأخذ الرسالة الثانية. ثم ترك قسماً من الرسالة تحت صخرة وراح يسرد لوالده كامل القصة. اعترف لاس كاسس في أحد رسائله من السجن، بأنه قد وقع في فخ نصبه له هودسون لو الذي كان يبحث عن تقليص حاشية نابليون. فالحاكم يكرهه بشكل خاص.

في الـواقع، فـإن لاس كاسس لم يكن غـاضباً من فكـرة الابعـاد عن الجزيرة. فلم يسمع اقتراح هودسون لو بالسماح له في البقاء. وقد أعلن أمام برتران الذي جاء ليزوره في السجن، بأن قدره قد بات في غير هذه الجزيرة. ومن المؤكد أنه أنهى القسم الأساسي من مؤلفه التاريخي الكبير. لقد كانت الحياة في لونغوود قاسية لهذا الأرستقراطي الناعم، فضـلاً عن مواجهـة عداء مرافقي الامبراطور الآخرين. فبيته بائس وصحته، وصحة ابنه، تسوء يوماً بعد يوم وبصره بات يخف كما أنه كان يعاني كثيراً من كتابة مـا كان يمليـه عليه نابليون.

وكان لاس كاسس يعاني هو وابنه من نفس الأعراض الغريبة التي كان يعاني منها الامبراطور. وقبل أيام قليلة من توقيفه وقع الشاب عمانويل في مرض خطير.

بعد شهر من توقيفهما، غادر لاس كاسس وابنه إلى ميناء الأمل الكبير حيث انتظروا ثمانية أشهر من أجل الحصول على تصريح بالدخول إلى أوروبا.

أرسل لاس كاسس، أثناء إقامته في الكاب، إلى نابليون مؤونة من خمره المفضل وهو نبيذ كونستانس من جنوب أفريقيا، وكتب بافتخار بأن سكان هذه المنطقة الجنوبية في أفريقيا يسمون ديوك القتال لديهم باسم نابليون كما يسمون أحصنتهم السريعة وثيرانهم المخيفة باسم نابليون.

في سانت هيلين وضع هودسون لو مخطوطات لاس كاسس في صناديق مختومة ليرسلها إلى لندن حيث لم يتمكن كاتبها من استردادها إلا عام ١٨٢١، بعد وفاة نابليون. حمل لاس كاسس، عند مغادرته الجزيرة، ذكرىٰ وهي: ضفيرة شعر جمعها من الأرض عندما كان خادم الامبراطور سانتيني يقص شعر سيده.

فرح رفاق لاس كاسس لسفره بسبب غيرتهم من الحظوة التي كانت له عند الامبراطور، وعندما بدا في إحدى اللحظات بأن هذا المتملق القصير قد يبقى، انتفض مونطولون غاضباً، على غير عادته. أما بالنسبة لنابليون فقد حزن من هذه المغادرة لأن لاس كاسس كان مفيداً جداً له باعتباره سكرتيراً ومترجماً. وقد كان يستمتع بالمحادثة مع هذا الارستقراطي العجوز الأكثر ثقافة وانفتاحاً من الضباط الآخرين. وحيث أن نابليون كان قلقاً من وقوع المخطوطات في يد هودسون لو. فقد استدعىٰ ذات يوم سان دنيس وطلب منه نقلها بعد أن بلغت ٩٢٥ صفحة بكتابته الصغيرة الدقيقة. وكان يسأله عن الفقرات التي لم يكن قد أملاها الامبراطور، حسب أقوال لاس كاسس.

ـ ألم يقل شيئاً عن الحاكم؟

ابتسم سان دنيس وقال:

ـ إنه يتحدث عنه كثيراً يا سيدي.

ـ هل يكرر بأنني قد قلت: هذا رجل نذل وأن شكله أدنىٰ ما شاهدته في حياتي؟

ـ نعم لكن التعابير غالباً ما تكون معتدلة.

ـ هل يقول بأنني قد أسميته«جلواز صقلي»؟

ـ نعم يا سيدي.

ـ يضيف الامبراطور هذا هو اسمه فعلاً.

ـ قبل سفر لاس كاسس، كتب نابليون مسودة رسالة الوداع وأثناء العشاء الذي لم يعد يجري إلا بحضور غورغو وأسرة مونطولون، طلب من غورغو أن يقرأها بصوت عال، ثم دعاه لشرحها. وقد وجدها غورغو، الحسود، بأنها إطراء ومديح لرجل لم يخدم الامبراطور سوىٰ ثمانية عشر شهراً، وقال:

ـ أرى أنه في هذا العالم يجب عدم قول الحقيقة للملوك وأن المتآمرين والمنافقين هم أولئك الذين ينجحون أفضل من سواهم. قاطعه نابليون قائلا:

ـ إن أملي هو أن يصبح لاس كاسس ذات يوم أفضل أصدقائي.

ـ أجاب غورغو: أبداً على الاطلاق فإنني أكرهه... فهو رجل منافق. وسوف تعرفه يا صاحب الجلالة ذات يوم على حقيقته.

ـ هز نابليون كتفيه وقال بمرارة:

ـ وماذا تنتظر؟ أن يخونني؟ أن يقول شيئاً سيئاً عني؟ يا إلهي كيف تصرف بيرتييه ومرمون وأناس آخرون غمرتهم بألقاب الشرف والحظوات؟....



مارشان، خادم الامبراطور

لونغوود، سانت هيلين
تموز ١٨١٧

دعى نابليون، ذلك المساء، أوميرا لتناول العشاء معه لوحديهما، ليس في صالة الطعام وإنما في الغرفة المجاورة لهـاتيك التي يمضي فيهـا القسم الأكبر من أيامه. قدمت الوجبة على طاولة صغيرة مستديرة بدون مراسم، جلس نابليون على قلطق وجلس أوميرا على كرسي.

في تلك الأيام نادراً ما كان نابليون يتنـاول طعام العشـاء مع ضبـاطه، وعندما كان يفعل ذلك فمع غورغو وأسرة مونطولون بل وكان يتنـاول العشاء أحياناً مع ألبين مونطولون لوحدهما. أما بشأن أسرة برتران فنادراً ما كانت تأتي إلى لونغـوود مساءً، وعلاقاتهم مع الامبراطور كانت فاترة. فالماريشال الكبير لم تكن لديه عبقرية المؤامرات، وزوجته تحسد ألبين مونطولون على المكان الذي باتت تتخذه عند نابليون. الخلافات لم تتوقف بين غورغو وأسرة مونطولون. ونابليون بات يتحسر على المحادثات الطويلة مع لاس كاسس وراح يمل من مجلسهم.

بالمقابل، فقد كان يستمتع برفقة أوميرا. لم تكن لديه الثقة الكاملة في هذا الطبيب الشاب والضابط الانكليزي، وبشكل عام لم تكن لديه ثقة بـأي إنسان، لكن أوميرا الذي كان يتحرك بحرية في الجزيرة، يمكن أن ينقل إليه أخبار العالم الخارجي. والطبيب، من ناحيته، كان يعي الفرصـة التي تنفتح أمامه، شجع نابليون على الحديث معه. بعدها كان يعود إلى غرفته ويسجل كلام الامبراطور في مذكراته.

كان الرجلان يتناقشان غالباً حول الشخصية الوطنية الانكليزية. نابليون

يعتقد بأن المصلحة الاقتصادية هي التي توجه دائماً السياسة الانكليزية ويذكر في هـذا الصدد قـول الوطني الكـورسيكي بـادلي: هؤلاء هم تجـار. أثنـاء المحادثات كان نابليون يسلط على نفسه نظرة موضوعية لم يكن يفعلها أثناء إملائه على لاس كاسس، فقد كان يقول مثلاً: «لم يسيء أحد إليّ إطلاقاً. أستطيع أن أقول بأنني كنت عدو نفسي. فمشاريعي الخاصة، وتلك الحملة إلىٰ موسكو والحوادث التي نجمت عنها كانت سبباً في سقوطي. وأستطيع أن أقول بأن أولئك الذين لم يعـارضوني ويستعجلون في المـوافقه على رأيي، ويوافقون على وجهات نظري ويخضعون لي بكل سهولة هم الذين سببوا لي الجراح الكبيرة وكانوا أكبر أعدائي. فمع سهولة الانتصارات التي كانوا يقدمونها لي كانوا في نفس الوقت، يشجعوني على الذهاب بعيداً. . . لقد كنت وقتها قوياً بحيث لم يكن أحد يستطيع الإساءه إليّ إلا أنا الذي أسأت لنفسي.»

ونادراً ما كان نابليون يطلب خدمات من أوميرا، إذ بالرغم من مرضه العرضي لبضعة أيام فقد كانت صحته جيدة في النصف الأول من عام ١٨١٧. لقد اشتكىٰ عدة مرات من انتفاخ في الساقين وآلام في الرأس وفي اللثة، وقد أصيب لمرتين بالاسهال. وقد شخص أوميرا الأمر بأنه يعاني من الزحار. وقد قال بأنه يشعر أفضل حال من العام الماضي. وكعادته، فقـد كان يمـزح مع أوميرا بشأن مهنته، ويقول: «أنتم الأطباء تسببون الموت للناس أكثر منا نحن الضباط . . .» فعندما ترسلون بجهلكم أو بخطأكم إلى العالم الآخر، أناساً لا يساوركم القلق، كضابط افتقد ثلاثة آلاف رجل في هجوم على هضبة، وبعد الانتهاء من السيطرة عليها يعلن بهدوء مطلق: إن هذه الهضبه ليست هي التي كنت أريدها وإنما هضبة أخرىٰ، فهذه لا تفيدني في شيء، ويعود إلى موقعه الأول».

كان مزاج نابليون طيباً بعد العشاء، فقد قال لأوميرا بأنه يستمتع أن يراه ثملاً. والامبراطور الذي لا يشرب اكثر من قدح إطلاقاً أو أثنين من النبيذ كان يتهم الانكليز بأنهم مدمنون على الخمر، وكان يضحك من عادة الانكليز في التفريق بين الجنسين بعد العشاء: «لو كنت إنكليزياً لساءني أن أطرد من قبل الرجال وأن أنتظرهم وهم يشربون الخمرة ساعتين أو ثلاث.»

عندها طلب من مارشان أن يحمل زجاجة من الشمبانيا شرب منها قدحاً وألح على أوميرا أن يشرب الباقي وهو يقول له بالانكليزية «إشرب يا دكتور إشرب. . .»

تحدث الإثنان عن الأميرال الذي قاد الأسطول الانكليزي لمدة سنة وعن السيدة مالكولم اللذين سيغادران الجزيرة قريباً. فالأميرال رجل جذاب ذو شعر رمادي وهو في سن الخامسة والأربعين، كان نابليون يحترمه بقدر ما كان يكره هدسون لو. ودون أن ينتقد الحاكم بشكل مكشوف، فقد كان لا يؤيد طرقه في التعامل مع الامبراطور. كانت زوجته سيدةً طويلة نحيلة تضع المكياج بشكل كبير وتعاني من انحراف في العمود الفقري وكانت تعلن استلطافها للامبراطور المخلوع. فأخوها النقيب إلفن ستون مدين بحياته لنابليون إذ أصيب بجرح بليغ عشية واترلو وقد أسعف، بناء على أمر من الامبراطور، من قبل جراحه الخاص. وعند زيارة الوداع لأسرة مالكولم في لونغوود أطلعهم مفتخراً على تمثال نصفي لملك روما «وفي الحقيقة لم يكن صحيحاً» فقد وصل في الأسبوع الماضي وهو الآن موضوع على المدخنة. انتهز نابليون الفرصة لتجديد شكواه مضيفاً بأنه قد حمل التاج الامبراطوري لفرنسا والتاج الحديدي لإيطاليا وبأن انكلترا قد أعطتني الآن تاجاً أعظم، هو تاج الأشواك والإكراه والإهانة لشهرتي. إنني مدين لانكلترا في انتشار مجدي.

ستكون السيدة ليدي سبباً في حادث إضافي بين نابليون وهدسون لو. فقد وصل مسافر إنكليزي إلى سانت هيلين يحمل هدايا إلى نابليون من أخ آخر للسيدة مالكولم هو جون أولفستن، وهو يمثل شركة الهند الشرقية في الصين. أرسل الصندوق في البداية إلى بلانتيشن هاوس للفحص ولم يكن يحتوي على رسائل سرية وإنما على رقعة شطرنج رائعة من العاج المنحوت من بين الهدايا الأخرى، وقد زينت قطعه بحرف نون ويعلوها التاج الامبراطوري. تردد هودسون لو لعدة أيام بشأن السماح بإعطاء هذه القطع، رغم ما يحمل ذلك من مخاطر تدعو للاعتقاد بأنه وحكومته يعترفون لنابليون بلقب الامبراطور.

كانت المسألة حساسة. استشار الحاكم الأميرال(روبيرت بلامبان) فأجاب بأنه إذا كان حرف النون المتوج هو الذي يزعج فلا تنظر إليه. وقد

شاعت القصة بسرعة في سانت هيلين وأخيراً قرر هدسون لو إرسال رقعة الشطرنج إلى لونغـوود مع رسالة إلى برتران يشرح فيها بأنه قد وافق على هذا الإرسال بالرغم من أن التفسير الحرفي للأنظمة يمنع مثل هذه الهدية. أجاب نابليون من خلال برتران بأن ورق اللعب والغسيل والقليل من الأواني الفضية المتبقية تحمل تيجاناً، فهل هي ممنوعة أيضاً؟

عندها سطر الحاكم رسالة من ١٢٠٠ كلمة يشرح فيها بأن التاج المصنوع بعد خلع الامبراطور ومن قبل إنكليزي لا علاقة له مع تاج مصنـوع من قبل فرنسي عندما كان نابليون على العرش. وقد سرّت سانت هيلين كثيراً بالحادثة وكتب الكونت برتران إلى سان بطرس بورغ بأن تصرف هودسون لـو إزاءهم يزداد ضيقاً وأن الانكليز أنفسهم باتوا يتحدثون عنه.

رجىٰ نابليون أومييرا أن يدعو المسافر الانكليزي الذي حمل الصندوق الىٰ لونفوود، وشاهد اللاما الكبير في التيبت حسبما يقال. قال نابليون لأومييرا: «إنني لم أقرأ إطلاقاً قصصاً معقولة في هذا الصدد وانني أشك أحياناً بوجوده.» شكر المسافر واسمه ماننغ، نابليون أولاً لأنه حرره من الأسر بعد عدة سنوات من السجن أثناء رحلة في فرنسا. أخذ نابليون أطلس لاس كاسس وطلب من ماننغ أن يشير إلى خط سيره في التيبت وراح يطرح عدداً من الاسئلة المتلاحقه حول اللاما الكبير. وصفه الانكليزي بأنه أشبه بطفل عمره سبع سنوات ذكي جداً. ثم راح نابليون يطرح الأسئلة عن اللغة الصينية وفيما إذا كان الروس قد دخلوا إلى التيبت.

عندما لم تكن مشاكل لعبة الشطرنج تثير اهتمامه كان هدسون لو لا يفكر إلا في شيء واحد هو إمكانية هرب سجينه. فقد جاء بنفسه في آذار إلى لونغـوود ليعلن النبأ: بأنه سوف يبني جداراً حول المنزل وهذا الجدار سوف يقفل ليلاً وسوف يحتفظ بالمفاتيح حتى الصباح. لكن نابليون لم يكن يخطط للهرب. فقد رفض مرتين اثنتين عرض ضابط إنكليزي لمساعدته بمغادرة الجزيرة.

وعلى أية حال، ففي المرة الثانية وضع نابليون خريطة الجزيرة أمـامه وراح ينظر إليها مع غورغو ومونطولون.

وقال: «إنه من الأفضل الخروج من المدينة في وضح النهار فإن مشينا على طول الشاطىء ببنادق الصيد فبإمكاننا السيطرة على مركز يوجد فيه عشر رجال ويمكن الاعتقاد بإنني في الغرفة. فقد اعتاد الحاكم علي بقائي لعدة أيام دون الخروج منها نرسل إحدى السيدتين أو حتى الاثنين معاً لزيارة بلانتيشن هاوس، تقوم أومبيرا بزيارة المدينة وفي حين تقوم السيدة لو بإجراء، محادثة طويلة عني فإننا نغادر هذا البلد الملعون ولا يعلم بمغادرتي سوى مارشان...».

هز نابليون رأسه فجأة وقال هذا أمر مثير. لكنه مع الأسف نوع في الجنون فعلي أن أموت هنا أو أن تأتي فرنسا لتبحث عني ها هنا. يقال أن المستعمرين الأسبان في أميركا عندما كانوا ينوون التمرد طلبوا من جوزيف الذي كان يعيش في فيلاديفياأن يكون ملكاً لهم، ولو تم الأمر لأمكن لجوزيف أن يفاوض من أجل تحرير أخيه.

وقد وصل بعض المنفيين إلى بونيس أيرس، لكن نابليون ما زال يشك بالأمر فقد وضع أخاه على العرش مرتين، المرة الأولى في نابولي والثانية في أسبانيا ، وقد خاب أمله في المرتين فهو طيب بحيث لا يمكنه أن يصبح عظيماً حسب ما قال لأومبيرا.

بات نابليون لا يتحدث إلا قليلاً عن عودته إلى السلطة. وعندما كان يذكر فرنسا بعد سقوطه فغالباً ما كان يتحدث عن المشاكل التي سيلاقيها خلفاءه. فقد كان يقول لغورغو بأن البوربون لا يمكنهم الحفاظ على السلطة إلا بنشر الرعب، وإذا ضعفوا ضاعوا. وقال لأومبيرا: بعد مرور عشرين عاماً بعد موتي ودفني ستكون شاهداً على ثورة جديدة في فرنسا. قال له أومبيرا ذات يوم بأن الانكليز يخشون إمكانية استعادة للعرش، فأجابه نابليون: آه لو كنت الآن في إنكلترا، ولو جاء وفد من فرنسا يعرض علي العرش لرفضته، ولو كانت تلك الرغبة الشاملة للأمة كلها. وإلا فانني سوف أصبح جزاراً وأقطع روؤس الآلاف من الرجال للحفاظ على هذا العرش. وسوف يسيل الدم للحفاظ على السلطة. لقد أثرت الكثير من الضجيج حتى اليوم في العالم وربما أكثر مما يجب. إنني أشعر إنني قد كبرت وأرغب الانسحاب.

بعد عامين من المنفى، أخذ نابليون ينتظر تغيير الحكومة الانكليزية وقد كان يعلم من خلال الصحف التي تصل إلى لونغـوود أو من خلال معلومـات أومبيرا بأن بيع أوانيه الفضية والرسالة التي نقلها الخادم سانتيني قد أثارت الكثير من الضجيـج في انكلتر وأنهـا أدت إلى نقاش في البـرلمان. وقـد انتقـدت المعارضة الليبرالية التي يتزعمها اللورد هولاند، زوج، إحدى معجبات نابليون التي انتقـدت بعنف، مـوقف الحكـومـة، لكن اللورد بـاثـورست، وزيـر المستعمرات لم يغير من سياسته تحت أي حجة كانت. في حزيران قال نابليون لغورغو: عند موت لويس الثامن عشر سوف تحدث أحداث كبرى. فإذا دخل اللورد هولاند الوزارة ربما يتذكرني الناس في إنكلترا. لكن ما يجب أن نأمله هو وفاة الأمير الحاكم الذي سوف يقود الأميرة الصغيرة شارلـوت إلى العرش وسوف تتذكرني بالتأكيد.

في ٤ تموز غداة العشاء والشمبانيا مع أومبيرا، غادرت أسرة مالكـولم الجزيرة إلى إنكلترا وكان منهم يحمل ذكرى عن زيارته الأخيرة إلى لونغوود. فقد حملت السيدة مالكوم فنجاناً وطبقاً من بورسلان السيفر يمثل سلة كيلوباتره وحمل الأميرال خصلة من شعر نابليون.

غوتبرغ ـ كانون أول ١٩٦١

انتظر فورشوفود مدة شهرين نتائج تحاليل هاملتون سميت. وقد لاق بعض الصعوبة في إرسال ضفيرة الشعر إلى جامعة غلاسكو. فالإرسال بالبريد يحتوي على بعض المخاطر. طلب من شركة تأمين سويدية التأمين عليها مقابل/٢٥٠٠٠/ دولار، فرفض صاحب الشركة، حتى أن شركة اللويزر في لندن رفضت ذلك. وأخيراً، جاء كليفورد فري إلى غوتبرغ وحملها بنفسه إلى غلاسكو.

بانتظار النتائج، غاص فورشوفود مجدداً في العالم الصغير المغلق في لونغوود الذي عاش على وتيرة مرض الامبراطور. كان الرجل المخلص مارشان موجوداً بشكل دائم تقريباً. الطبيب أنطومارشي كان يمضي بعض اللحظات بالقرب من المريض الشهير: ونابليون لم يكن يخفي عدم رضاه عنه. والكونت مونطولون راح يزيد من حضوره يوماً بعد آخر. لم يعد هناك أي زائر.

أخذ فورشوفود يرسم الأعراض التي ظهرت على نابليون كما وصفها الشهودالعيان في الأشهر السبعة الأخيرة، أي من أيلول ١٨٢٠ وحتى وفاته في ١٥ أيار ١٨٢١ . لقد اتضح لفورشوفود منذ فترة طويلة أن أعراض التسمم المزمن والحاد قد ظهرت على المريض خلال الأشهر الأخيرة: وشهادة المذكرات واضحة في هذا الصدد. تقوم المرحلة القادمة على رسم الخط البياني الذي يظهر تطور هذه الأعراض خلال تلك الفترة، من أجل التأكد من مطابقتها مع النتائج التي سيقدمها هاملتون سميث.

لم تكن المرحلة الأخيرة للمرض، حسبما وصفها الشهود، تقابل نزولاً تدريجياً نحو الموت. فهناك أزمات حادة وفترات من الارتياح كان نابليون ينزل

خلالها من السرير، ويمشي عدة خطوات لا أكثر. فقد اشتكى إلى مارشان بأن رجليه لم تعد تحملانه. إن الوهن في أسفل ساقيه يشكل أحد أعراض التسمم بالزرنيخ.

فرز فورشوفود عدة أوراق مع بعضها بالطول، وراح يرسم الخط الطويل الذي يبين الأشهر السبعة الأخيرة، ثم راح يسجل على هذا الخط كل عارض مرضي يظهر على نابليون حسب التاريخ الذي ذكره أنطومارشي ومارشان والشهود الآخرون. وقد بات طول هذا الخط البياني بعد الانتهاء منه، عدة أمتار، واضطر فورشوفود لمدّه على أرض مكتبه كي يتمكن من إلقاء نظرة إجمالية عليه. ظهرت صورة المرض الأخير لنابليون بوضوح مع أوقات الأزمة وفترات الارتياح: فقد عانى نابليون، خلال هذه الفترة، من ست أزمات تسمم حادة من ١٨ إلى ٢١ أيلول، ومن ٢٨ إلى ٣٠ كانون أول، ومن ٢٦ إلى ٢٩ كانون أول، ومن ٢٦ إلى ٢٧ شباط. وخلال الفترات ما بين الأزمات الحادة، كانت تظهر عليه أعراض التسمم المزمن، بعد شباط، اختلفت طبيعة الأعراض على ما يبدو. وقد تحسن وضعه الصحي في منتصف نيسان وكتب وصيته. ثم جاءت الأزمة الأخيرة التي استمرت أسبوعين أي حتى وفاته.

خلال هذه الأشهر من الدراسة في «غرفة مريض لونغوود»، حصل فورشوفود على رؤية جديدة تماماً عن نابليون: فهو لم يكن يعرف قبلها سوى الامبراطور القوي، الفاتح الذي كان يحكم أوروبا. ونابليون هذا لم يكن يستدعي التعاطف بل لم يكن بحاجة إليه. وكان كالقليلين من الشخصيات الذين دخلوا التاريخ، سيد قدره. لكن الرجل الذي يرقد الآن على السرير العسكري في لونغوود، ضحية الألم، يتعرض للخيانة من أحد المقربين إليه.. هذا الرجل بحاجة للمساعدة. كان نابليون يريد أن يكشف عن سبب وفاته. فورشوفود يشعر اليوم بأنه يقوم بهذه المهمة. بعد مائة وخمسين عاماً، يبدو له بأنه يستجيب لرغبات الامبراطور الأخيرة. لا شيء... لا أحد يمكن أن يمنعه من ذلك. ولن يخون الأمانة.

وصل تقرير هاملتون سميث في بداية كانون أول. كانت كتابة هذا السكوتلاندي صعبة القراءة مثل كتابة نابليون. وقد فهم فورشوفود من النظرة

الأولى بأن انتظاره لم يذهب عبثاً.

يسرد هاملتون سميث في رسالته، بدقة، كافة المراحل المتبعة. طبقاً لتعليمات كليفورد فري، أخذ من خصلة الشعر عشرين شعرة دون أن يفك عقدة الحبل المختومة. وقد تمكن من التأكد، كما قال مارشان في مذكراته، بأن شعر الامبراطور حلق من الرأس، ولم يقص بالمقص. كانت الشعرات الميتة جافة وتتكسر مع الزمن، وقد تكسر بعضها عند سحبها من العقدة. طبق هاملتون سميث على هذه المقاطع طريقته الأولى التي تكشف المحتوى الإجمالي بالزرنيخ. تم اختيار نوعين من هذه المقاطع فأعطت نسباً من الزرنيخ ٣,٢٧ و ٣,٧٥ بالمليون وهي نسبة أقل من هاتيك التي ظهرت في الشعرة الأولى التي تم تحليلها، ولكن هذه النسبة تبقى، أربع إلى خمس مرات، أعلى من المحتوى الطبيعي (٠,٨ بالمليون).

وضعت شعرة طولها ١٣ سم وأخرى ٩ سم، أي أن طولهما كافٍ لإجراء التحليل بالطريقة الجديدة «مقطعياً»، في أنبوبين من السيليكون الصافي وأرسلتا إلى معهد الأبحاث للطاقة النووية في هارويل حيث وضعت في مفاعل نووي وخضعت للأشعة لمدة أربع وعشرين ساعة بالنترون الحرارية. بعد الخضوع لهذه المعالجة، أعيدت إلى مختبر سميث في غلاسكو. عندها ثبتها سميث على ورقة وقطعها إلى مقاطع من خمس مليمترات، بشكل يسمح القياس، بواسطة عداد جيجر، محتواها من الزرنيخ. شكل الخط البياني للنتائج الناجمة خطاً منكسراً من ٢,٨ إلى ٥١,٢. كانت النسبة للشعرة القصيرة ١,٠٦ (أي أكثر من الطبيعي بقليل) إلى ١١. وقد أجرى سميث على هذه العينة مائة وأربعين اختباراً.

يدل الشكل البياني ذي الشكل المنكسر على أن الزرنيخ الذي قتل نابليون لم يأت من الوسط المحيط. فقد بات مؤكداً بأنه قد تناول كميات كبيرة من الزرنيخ على فترات متقطعة.

فتح فورشوفود مخططه على الأرض. ومع الأخذ في الاعتبار بأن كل خمسة مليمترات تمثل خمسة عشر يوماً لنمو الشعر، قارن ارتفاعات

وانخفاضات الرسم البياني لسميث مع أوقات الأزمة وفترات الارتياح التي سجلها هو على مخططه. كان كل شيء متطابقاً تماماً.

أمام عينيه الآن نتيجة سنوات عديدة من الأبحاث. فقد مرت سنوات على قراءته مذكرات مارشان، ونمو فكرة التسمم بالزرنيخ في نفسه.

لكن مهمته لم تنته بعد، فقد برهن على أن نابليون قد سمم خلال الأشهر الأخيرة من حياته، وهذا الأمر يطرح تساؤلات أخرى.

هل بدأ التسمم في تلك الفترة أم منذ الأيام الأولى في المنفى؟

ومن هو القاتل؟ هناك دلائل أخرى بالتأكيد، وسوف يلتقي في الربيع في لندن بالسيدة ميبل بالكومب بروكس حفيدة أخ بيتسي بالكومب الصغير. فلربما يكشف هذا اللقاء عن أشياء مهمة.



نابليون بونابرت في شبابه.

باريس - أيلول ۱۸۱۷

«السيد» قلق. فقد حمل إليه عملاؤه أثناء الاجتماع في قصر مارسان أخباراً سيئة. فبالرغم من مضي عامين، فإن ظل «الغاصب» ما زال يخيم على فرنسا. وفي الجنوب الشرقي، تم اكتشاف مؤامرة واسعة وإشاعات المؤامرة تصل من أميركا. فما الذي يحدث في سانت هيلين؟

كونت أرتواز الملقب «بالسيد» هو الأخ الأصغر للملك لويس الثامن عشر. وحيث أن الملك مريض وليس له أولاد، كان «السيد» يأمل في الجلوس قريباً على العرش، شريطة أن يبقى آل البوربون في السلطة. «السيد» في الستين من العمر، الأنف بوربوني، الفم ذو شفاه غليظة، الوجه متطاول يعلوه شعر أبيض. بشوش مع الجميع، لكنه لا يبدو كريماً إلا مع مؤيديه، يحمل حقداً دفيناً للثورة الفرنسية لكن ما يكرهه أكثر هو الابن المخيف للجمهورية: بونابرت الغاصب.

في عام ۱۷۸۹ ، كان عمر كونت أرتواز اثنين وثلاثين عاماً، وكادت الثورة ترسله إلى المنفى لمدة ربع قرن. في قصر هولي رود، في أدندنبورغ حيث عاش من مساعدات الحكومة البريطانية، جهز «السيد» عدة حملات ضد الجمهورية، دون أن يشارك في أي منها، وفشلت جميعاً. وعندما أصبح الجنرال بونابرت قنصلاً أول، أرسل إليه «السيد» رسالة من خلال جوزفين: عرض عليه أن يقام له نصب تذكاري في باريس! إن نجح في إيصال أخيه إلى العرش. أجاب نابليون جوزفين: «وهل أجبت بأن قاعدة هذا التمثال ستكون جثة القنصل الأول؟» بعد هذه الحادثة، لم يعد «السيد» يفكر سوى في شيء واحد: هو الخلاص من بونابرت. ويدون أن يعلم أخاه، نظم العديد من محاولات القتل ضد نابليون. لكن الشبكة، التي كان كونت أرتواز يرعاها في

فرنسا اخترقها عملاء نابليون، وفشلت كافة المحاولات، بالرغم من أن إحداها كادت أن تنجح وهي التي سميت «بالآلة الجهنمية». كان مخططاً يقوم على تفجير قنبلة عند مرور عربة نابليون في إحدى الأمسيات وهو في طريقه إلى الأوبرا. ولحسن الحظ، فإن سائق العربة الذي كان ثملاً سار بسرعة أكبر من المعتاد وانفجرت الآلة بعد مرور العربة. وفي وقت متأخر، اتهم كونت أرتواز، بمحاولة القتل التي جرت في جزيرة إلبا.

وللحفاظ على عرشه، قبل لويس الثامن عشر عدداً من التغييرات التي أدخلتها الثورة والامبراطورية. إلا أن المتشددين، وعلى رأسهم كونت أرتواز، كانوا يرغبون في العودة إلى النظام القديم بكامله. وللوصول إلى غاياته، فإن «السيد» قد وضع نوعاً من الحكومة الموازية كانت تعرف باسم «المكتب الصغير». كان لهذا المكتب شبكته الخاصة من الجواسيس والمخبرين والمحرضين ورجال المهمات الخاصة، تغطي البلاد كلها، وقد وصلت إلى الحكومة نفسها. وكان «للسيد» عملاء في الشرطة وفي الخارج، وفي الجيش، باعتباره الجهاز الأكثر شبهة، كان لديه ثلاثة جواسيس في كل كتيبة، أحدهم بين الضباط، والآخر بين ضباط الصف، والثالث بين الجنود. وكان المتشددون يهمسون بأن الملكية لن تكون في أمان ما دام هناك ضابط واحد من خدم «الغاصب». كان عملاء «السيد» يحاولون في المقاهي، استفزاز الجنود بإظهار التعاطف مع بونابرت. الأمر الذي أدى إلى العديد من حالات الفرار. ولمعالجة الوضع، اقترح أحد الضباط أن يسحب من الجنود سراويلهم كل ليلة.

كان عملاء «السيد» يمشطون البلاد بدقة بحثاً عن المتآمرين. خلال الأشهر الأولى من عودة الملكية، زرع «الخضر» وهم جيش خاص من الأشقياء يلبسون الزي الرسمي «للسيد»، الرعب في بعض المقاطعات. إلا أن ذلك لم يمنع قصر مارسان من كشف العديد من الاعتداءات (الحقيقية منها والخيالية) والتي كانت ترد عادة إلى المحاربين القدماء في الجيش العظيم، المسرحين حالياً. وكانت القصص الخرافية تنتشر: شوهد «الغاصب» في الريف. باضت دجاجة بيضة تحمل صورته، وقد ألقي بالدجاجة وصاحبها في السجن، وماتت فيه.

في العام السابق، سببت قضية ديدييه جزعاً كبيراً في قصر مارسان. كان جان بول ديدييه رجلاً غريب الأطوار. عميد كلية الحقوق سابقاً أفلس في مشروع لتجفيف المستنقعات، ولم ينقطع طيلة حياته عن ممارسة نشاط سياسي متغير الأطوار. فقد كان ملكياً ثم ثورياً ثم بونابرتياً. في عام ١٨١٦، كشف تقرير لأحد العملاء السريين في غرينوبل، بأن ديدييه بدأ ينظم العسكريين السابقين المسرحين ويعدهم بأن الامبراطور سوف يلتحق بهم قريباً على رأس جيش من ستماية ألف أسود. في ٤ أيار، عسكر حوالي ستين رجلاً يقودهم عريف من بقايا جيش مصر يحملون الطبل، على الطريق الذي سلكه نابليون قديماً لدى عودته من جزيرة إلبا، كما نظم حوالي مائتان من الفلاحين من بين المتفرجين لهذه الملحمة. كان اختيار المكان جيداً، فهو يحمل ذكريات مؤلمة لآل البوربون. ففي هذا المكان، نجح نابليون لدى عودته من المنفى أن يصد جيشهم دون أن يطلق طلقة واحدة. تقدم نابليون أمام الجنود، وحيداً بدون سلاح، فتح رداءه وصرخ: «إن كان بينكم من يريد قتل جنراله، وامبراطوره فليفعل الآن!».

لكن بدون نابليون اليوم تم بسهولة تجريد المجموعة الصغيرة التي نظمها ديدييه من السلاح، وقتل قائدها وهو يصرخ: عاش الامبراطور.

في باريس، أصبح عدد الفلاحين المائتين ستة إلى سبعة آلاف متمرد. والرؤساء وخاصة ديدييه، أعدموا بالمقصلة. وفي نفس الوقت تقريباً، اكتشف البوليس مؤامرة أخرى في باريس. وحكم على ثلاثة من رؤسائها بالموت بتهمة قتل آبائهم. وقد اقتيد كل واحد منهم إلى المقصلة حافي القدمين والرأس مغطى بالسواد. قطع الجزار أيديهم أولاً ثم الرأس. وبعدها في أيار من نفس العام ١٨١٧، أعلنت الصحافة الملكية اكتشاف مؤامرة واسعة تهدف إلى إعادة السلطة إلى «الغاصب» أو إلى ابنه. وقد رتبت هذه المؤامرة من قبل عميل للشرطة يدعى راندون، الذي أوقف بدوره وأعدم.

إذا كانت اخبار فرنسا تدعو للقلق، فإن أخبار أميركا ليست أقل ذعراً. فقد كان يعيش في أميركا خمس وعشرون ألفاً من الفرنسيين ومعهم جوزيف، أخ نابليون، الذي يقيم في بوردن تاون في نيوجرسي. كان غنياً ويمكنه تمويل

عملية هرب أخيه. وكان هناك كذلك غروشي الشهير الذي سبب بطؤه خسارة نابليون في واترلو. كان هير دو نوفيل، القائم بالأعمال الفرنسي في الولايات المتحدة، يراقب كل ما يجري داخل المستعمرة الفرنسية ويرسل بانتظام تقاريره إلى باريس. يقول بأن ١٦ ـ ١٧ سفينة حربية قد انطلقت من بالتيمور في اتجاه غير معروف، ويمكن أن يكون إلى سانت هيلين. وفي مرة أخرى أشار هير دو نوفيل إلى أن بواخر قرصنة أميركية تتجه نحو الشواطىء الأفريقية وأنها سوف تتجه من هناك إلى سانت هيلين. جوزيف بونابرت وغروشي كانا يستعدان للسفر إلى مكسيكو حيث سيتوج جوزيف ملكاً هناك. في أيار، أيام المؤامرة الواسعة في فرنسا، وصل إلى أميركا اثنان من خدم نابليون اللذين طردا من لونغوود، حيث سيجدون في جميع موانىء الاتحاد مساعدين مصممين وأسلحة وأموال، دون أن يكون بإمكان الحكومة الأميركية أن تضع عقبة أمامهم، حسبما كتب هير دو نوفيل. والأسوأ من ذلك تلك الإشاعة التي تقول إن ضابطاً بونابرتياً قديماً اسمه شارل لالمان مخطط للاستيلاء على جزيرة في عرض الشواطىء البرازيلية ليستخدمها قاعدة للذهاب وتحرير سجين سانت هيلين.

في الوقت الحاضر، وفي خريف ١٨١٧، تلقى «السير» تقارير مقلقة عن مشروع غريب سمي حقل اللجوء. وبموجبه فإن ضابطين بونابرتيين يحاولان خلق مستعمرة في تكساس بالقرب من خليج غالفستون، وأن جميع المستعمرين قد تم تنظيمهم من بين المحاربين القدماء للجيش العظيم، وحتى من بين الحرس الامبراطوري الرهيب. من الناحية النظرية، فإن حقل اللجوء ليس سوى مجموعة زراعية سلمية، وهو ملجأ خيالي، لجنود الامبراطور الذين لفظتهم بلادهم. لكن من هناك ألا يمكنهم الانتقال إلى المكسيك بسهولة لدعم جوزيف،الذي كان يحلم أن يصبح ملكاً فيها؟ أو من نوفل أورليانز القريبة، حيث لجأ العديد من البونابرتيين يستأجرون سفينة إلى سانت هيلين؟ إذاً لا شيء يمنع «الغاصب» من العودة إلى أوروبا على رأس حرسه الذي لا يقهر!

إن جميع هذه التقارير الواردة من أميركا التي تختلط فيها القصص الحقيقية بالإشاعات لم تكن ترهب «السير» فحسب، وإنما كذلك رئيس وزراء الملك دوق رشيليو. فقد طلب من زملائه أن لا ينسواهذهالصخرة القائمة في

وسط الأطلسي. لقد قيل طويلاً بأن نابليون قد فقد كل رصيد له في فرنسا، وآمل أن يكون ذلك صحيحاً. لكنني لن أكون مرتاحاً إلا إذا قام الدليل على ذلـك. كان رشيليـو يخشى أن لا يكون الانكليـز يقظين تمـاماً، ممـا يمكن الامبراطور من الهرب. بل ربما تقوم حكومة جديدة في انكلترا، يمكن أن تطلق سراحه. كتب رشيليو إلى سفيره في لندن يقول: «من أجل الله لا تنسوا سانت هيلين. يجب استبدال المراقبة والحامية، لأن هذا الرجل الشيـطان يمارس سحراً مخيفاً على جميع أولئك الذين يقتربون منه. وكدليل على ذلك، طاقم الباخرة نورثمبرلاند. . . فإذا بقي نفس الجنود لفترة طويلة في حراسته، فإنه سوف يجد بينهم مؤيدين له. . هذا، في الوقت الذي كان الانكليز يؤكدون فيه بأن نابليون ما زال في لونغـوود.

نعم، في خريف عام ١٨١٧، أصبحت الأخبار أكثر تحذيراً من قبل. فبالرغم من أنه كان مصفداً على تلك الصخرة البعيدة، كان بونابرت يخيم بظله الكبير على طرفي الأطلس.

بالنسبة لذاك الرجل الأرستقراطي، ذي الشعر الأبيض، ولمستشاريه في قصر مارسان، فإن المسألة واضحة. طالما أن هذا «الغاصب» ما زال على قيد الحياة، فإن عرش آل البوربون، في خطر.

لونغوود، سانت هيلين
آذار ١٨١٨

. . . .

قامت بيتسي بالكومب بالمشي بضع خطوات في حديقة لونغوود. كان نابليون يتأمل المحيط الرمادي الذي يبصره ما بين كتلتين من الصخور تعلوها المدافع ويقول بابتسامة مرة: سوف تسافرين قريباً إلى انكلترا وتتركيني أموت وحيداً على هذه الصخرة البائسة. انظري إلى هذه الجبال المخيفة؛ هي جدران سجني وسوف تسمعين عما قريب بأن الامبراطور قد مات. انهمرت دموع بيتسي راحت تبحث عن منديلها لكنها تركته في سرج الحصان. أخذ نابليون منديله ومسح دموع الفتاة الصغيرة وطلب منها أن تخفظه ذكرى عن لقاءاتهما. وبعد العشاء قامت أسرة بالكومب بالوداع. طلب مني ما أحب أن أحتفظ به عنه، فأجبت بأنني أفضل خصلة من شعره كأفضل هدية منه. استدعى السير مارشان وطلب منه جلب مقص وقص أربع خصلات من الشعر لأبي أمي وأختي ولي أنا. وما زلت أحتفظ بهذه الخصلة من الشعر، وهي التي بقيت عندي من بين الذكريات العديدة للامبراطور العظيم.

من الناحية الرسمية، غادرت أسرة بالكومب سانت هيلين بسبب تردي صحة السيدة بالكومب، لكن صداقتها مع نابليون هي التي أزعجت الحاكم، في الواقع. كان هودسون لو يشك في أسرة بالكومب، من أنها تستفيد من وظيفتها كمورد في لونغوود لإيصال الرسائل إلى أوروبا تهريباً. كان الحاكم يتمسك بكل الحجج لإظهار سطوته. فقد أرسل نابليون في عيد رأس السنة خادماً إلى البريار يحمل الكاتو إلى بيتسي وأختها جان. أمسك أحد الحرس بالخادم وأعاد هدسون لو الهدية إلى لونغوود. وفي أيلول طلب نابليون من

الدكتور أوميرا، أن يعير بيتسي بالكومب حصاناً من لونغـوود يسمى بالمملوك، كي تتمكن من المشاركة في سباق في المخيم العسكري في ديدوود. كسبت بيتسي السباق. وعندما وصل النبأ إلى الحاكم استدعى بالكومب وأوميرا إلى مكتبه ووبخهما. بيتسي، ذهبت بـدورها إلى هـدسون لـو، سمعها الحـاكم بصمت، ثم خرجت وأطبقت الباب دون ن تقول أية كلمة. في أعقاب هذا الحادث رأى وليم بالكومب أنه من الأفضل العودة إلى إنكلترا بحجة تردي حالة زوجته الصحية.

فقد نابليون في شخص وليم بالكومب ارتباطاً ثميناً مع العالم الخارجي، فقـد كانت هـذه الأسرة صـديقه الـوحيد من بين المستعمـرة الانكليزيـة في الجزيرة. في ذلك اليوم لم تعد بيتسي المراهقة التي تستمع بأعمال الطياشة في البريار. فقد باتت شابة ساحرة عمرها سبعة عشر عاماً، يغازلها ضباط الحامية، ولم تعد علاقاتها مع نابليون علاقات طفل مع عم عطوف، ومع ذلك فقد بقيا صديقين، يذكران بانفعال، اللحظات السعيدة في البريـار. في تلك الفترة، أطلعها نابليون على آلة هوايته تصنع الجليد لم تـر من قبل مثلهـا على هذه الجزيرة. كتبت فيما بعد: «شرح لنا آلية العمل وكان يتمسك بأن يفهمني مبدأ المضخة الهوائية، وقد نصحني أن أشتري كتاباً في مبادىء الكيمياء كي أتسلى به وأتعلم منه. ثم التفت كعادته إلى والدي ونصحه أن يجبرني على أخذ درس كل يوم. وفي إحدى الأمسيات كانا يتمشيان في لونغـوود أخذت بيتسي الغيتار الذي أرسلته بولين بونابرت إلى أخيها حين كان صوت نابليون يدنـدن أغنية عاش هنري الرابع. وكما هو متوقع فقد نقل المشهد إلى الحاكم فوراً.

كانت الأشهر الأولى من عام ١٨١٨ قاسية على نابليون. ففي الأول من كانون الثاني تجمع المنفيون في صالة البيليار ووزع نابليون السكاكر على أطفال برتران ومونطولون عندما دخل خادم ليعلن بأن سفينـة قد وصلت من إنكلتـرا تحمل أنباءً هامةً.

ذهب أوميرا، فوراً إلى الميناء، كان نابليون قلقاً فربما تم تشكيل حكومة جديدة في لندن، آه! لو يعلن نبأ وفاة الأمير ولي العهد. وعندما أعلم بأن أوميرا في طريق العودة، راح نابليون يرقب عودته من خلال المنظار: فقد عاد مسرعاً

ولعل في ذلك نبأ طيباً. ولا شك بأن الحاكم قد استدعاه، وهذا أمر يخص أوميرا. وإذا كان الأمر غير ذلك، لبقي بالتأكيد في المدينة. فالمصلحة قبل كل شيء.

إلا أن الأمر لم يكن يعني هودسون لو، ولا الحاكم الانكليزي. فنبأ وفاة أحد أعضاء الأسرة الملكية في انكلترا لا يصل إلا بعد شهر من حدوثه. ولم يكن نبأ وفاة الأمير ولي العهد، فقد ماتت الأميرة شارلوت أثناء الولادة، وهي المرأة الشابة التي كان يضع فيها نابليون كل آماله. وفي شباط ترك غورغو نابليون. كانت خلافاته مع مونطولون تسمم الأجواء في لونغوود وقد تحداه للمبارزة. وعلق نابليون على ذلك بأنه كورسيكي حقيقي .لقد كان طبع غورغو الحامي، يتميز بشكل كبير عن الطرق الرقيقة التي يتعامل بها مونطولون الحساس، لأقل رغبات سيده. وكان نابليون يعرف تماماً دوافع مونطولون. إلا أن ذلك لم يكن يمنعه من أن يقول لغورغو: إنني لا أحب إلا الرجال المفيدين لي طالما أنهم كذلك، ولا يهمني ما يفكر به الآخرون عنهم، إنني لا أنتبه إلى ما يقال لي فإن خانوني فإنهم يفعلون ما فعله الكثيرون غيرهم.

وعندما كان يشتكي غورغو من عدم وجود رفيقة له، في حين أن برتران ومونطولون لديهم زوجاتهم، كان نابليون يجيب: آه! النساء عندما لا نفكر فيهن فلسنا بحاجة إليهن! إعمل مثلي. لكن غورغو لا يعتقد بأن الامبراطور يعيش فعلاً بدون امرأة. فهو يعتقد بأن ألبين مونطولون هي خليلته، وهو لا يخفي ذلك. وفي أحد الأيام فاجأ غورغو ألبين الجميلة تقوم بزيارة نابليون في غرفته، في حين كان الامبراطور عارياً.

وعندما روى الحادثة إلى مونطولون أجاب بأنه لا يعلم، ولا يقول لا. وفي مرة أخرى طلب من مونطولون الخروج عندما كان نابليون يستقبل ألبين في الحمام. فقال غورغو للزوج: مبروك تطرد أنت وتدخل زوجتك. والواقع إن العلاقات بين نابليون وألبين الجميلة السهلة، كانت تثير غورغو الحسود، فقد قال: ليكن لصاحب الجلالة خليلات إن رغب، لكنني لن أذل نفسي أمامهن. ويقول في مذكراته وهو يتحدث عن زوج ألبين: أيها المسكين مونطولون ما هو الدور الذي تلعبه!

جاءت نهاية المسألة في ٢ شباط أثناء مشهد عنيف. فقد أرسل نابليون من يبحث عن غورغو. استقبله في صالون البيليار حيث كان يلعب الشطرنج مع برتران. قال له نابليون: ماذا تريد يا غورغو؟ أجاب بأنه يشعر بأنه يعامل بشكل سيء وأنه يرغب في الذهاب. طلب من برتران أن يساعده لكن المارشال الكبير بقي صامتاً، مستنداً على الحائط، وكالعادة لم يتدخل. قال نابليون بأنه يرغب معاملة أسرة مونطولون كما يعجبه وأضاف: وإذا نمت معها فأي سوء في ذلك؟ أجابه غورغو: لا شيء يا سيدي، إنني لم أقل لسيادتكم شيئاً من هذا القبيل، وإنني لا أفترض بأن سيادتكم سيء الأخلاق. غضب نابليون وطلب منه الرحيل. غادر غورغو سانت هيلين بحجة سوء صحته، في الشهر التالي بعد أن صرح للمفوضين الأجانب في جيمس تاون بأن نابليون يمكن أن يهرب عندما يرغب إلا أنه يفضل السجن في سانت هيلين على الحرية في أميركا. في نهاية شباط، فقد نابليون شخصاً آخر أكثر أهمية. ففي إحدى الليالي أثناء العشاء سقط سيبرياني على الأرض وهو يصرخ من الألم. مات بعد أربعة أيام من ذلك نتيجة التهاب في الأمعاء (حسب تشخيص أومييرا). كان سيبرياني مسجلاً بين الخدم في قائمة المنفيين.

لم يجر تشريح للجثة ولم يتساءل أحد عن هذا الموت المفاجىء. وبوفاته فقد نابليون عميلاً سرياً حقيقياً وفقده لا يعوض. فقد كان نابليون يعرفه منذ الطفولة في كورسيكا وكان أثناء نفيه في جزيرة إلبا عميله على القارة وهو الذي حذره من أن الحلفاء يخططون لترحيله إلى سانت هيلين. كان سيبرياني في سانت هيلين يجمع الأخبار من التجار في جيمس تاون حيث كان يذهب لإجراء المشتريات وكان يقوم بتمرير الرسائل تهريباً. غورغو، كان يدعوه «وزير خارجيتنا» أو «وزير الشرطة» وقد أعلن ذات يوم أمام نابليون بأنه يضحي بنا جميعاً من أجل سيبرياني. ولم يكشف نابليون ولا سيبرياني عن أسرارهما. وقد قال صديقه أومييرا عنه: كان سيبرياني رجلاً يمتلك مواهب عظيمة لم تصقل، وبالرغم من أنه كان خبيثاً، فقد كان يعطي مظهراً من الصراحة والصدق. كان نابليون يثق به كثيراً. لقد أثر موت سيبرياني على الامبراطور كثيراً وقد بقي حزيناً خلال الأيام التالية.

منذ الخريف السابق كانت صحة الامبراطور تتدهور. ففي شهر آب وجده المسافر الانكليزي باسيل هول في صحة معنوية وفيزيائية جيدة بالرغم من أن وجهه كان شاحباً كالرخام «تحدث هول مع نابليون عن جزيرة في الشرق الأقصى لا يمتلك أهلها سلاح لأن أهلها لا يعرفون الحرب. ولشدة دهشته صاح نابليون: «لا للحرب». وفي أيلول وقع الامبراطور مريضاً. في تشرين أول، كان يشكو لأومبيرا من آلام حادة في المنطقة اليمنى تحت القلب تحت الأضلاع مباشرة وقال بأنه أحس بذلك للمرة الأولى البارحة، صباحاً.

وأحس شيئاً ما في الطرف الأيمن الذي لم أكن أحس به قبلاً. ظن أومبيرا بأن الأمر عرض لالتهاب الكبد. وبعد خمسة عشر يوماً أشار أومبيرا بأن نابليون يعاني على الدوام من ألم حاد أو إحساس مزعج في الطرف الأيمن، وأن شهيته، تخف وأن ساقيه قد انتفختا وخاصة أثناء الليل وأنه يتقيء أحياناً ولديه رغبة كبيرة في النوم.

وعندما جاءت أسرة بالكومب لزيارته، في تلك الفترة تقريباً، لاحظت بيتسي بأنه قد تغير وأن آثار مرضه قد جعلت مظهره حزيناً. فقد بات وجهه أصفر كالشمع وجنتاه باتتا مرتخيتين ورسغاه منتفخان خارج حذائه. كان ضعيفاً بحيث إن لم يعتمد بيد على الطاولة وبالأخرى على كتف الخادم لم يكن يتمكن من الوقوف... وقد لاحظت أمي أن الموت يخيم بقسماته.

تصور نابليون بأن الحكومة الانكليزية تبحث عن موت بطيء له. فقد قال لأومبيرا «بأن القيود التي فرضت عليه محسوبة لإيقاعه في المرض شيئاً فشيئاً... فبالحبس: ينحل الدم وهذا يؤدي إلى الوفاة بعد فترة طويلة من الضيق، وكل ذلك له مظهر موت يعود لأسباب طبيعية. تلك هي الخطة: وهي طريقة أمينة لقتلي أكثر بشاعة وإجراماً من السيف أو المسدس».

وفي أوقات أخرى كان المرض المتكرر يحيي في نفسه الخوف من السم كانت شكوكه في النبيذ. في حزيران وجد غورغو مذاقاً غريباً في زجاجة نبيذ نابليون وتلك كانت إحدى المرات النادرة التي يتقاسم فيها الامبراطور نبيذه المخصص لاستعماله الشخصي، مع الآخرين. قال إن هذا اللعين ريد (مساعد

الحاكم) قادر على دس السم لي فلديه مفتاح الكهف ويمكنه أن يغير السدادات. نصحه غورغو ألا يشرب النبيذ لوحده إذ لا يمكن لأحد أن يسمم جميع سكان لونغوود لأن ذلك يثير ضجة كبيرة. هز نابليون رأسه وقال: المهم هو أنني سأكون ميتاً. وعندما أخبره سيبرياني بأن هودسون لو قد أخذ كمية من النبيذ الذي وصل حديثاً، رفض نابليون أن يشرب منه قبل عام وطلب من أومبيرا تحليل النبيذ ليرى فيما إذا كان يحتوي على الرصاص، ولم تعرف نتيجة التحليل إطلاقاً.

أما بشأن الحاكم، فإن رعبه الدائم من الهرب قد وجد مناخاً جديداً في العلاقات يشير إلى أن مؤامرة قد تم تنظيمها في بيرنام بوك في البرازيل. في كانون الثاني تلقى الماركيز مونشينو المفوض الفرنسي، رسالة من القائم بالأعمال الفرنسي في ريو دي جانيرو بخصوص هذه المؤامرة. وفي الشهر التالي أعلن المفوض الفرنسي الكونت بال مان: بأن المؤامرات البونابرتية في بيرنام بوك قد أثارت الحاكم. فقد راح ينشيء التحصينات ويضع نقاطاً جديدة من التلغراف والبطاريات في أماكن مختلفة. كما ضاعف الحراسة في لونغوود وقد كنت أراه طيلة الوقت على حصانه محاطاً بالمهندسين يجري في كل الاتجاهات لقد مات سيبرياني والأميرة شارلوت، وغادر غورغو وأسرة بالكومب الواحد تلو الآخر، وهم الأصدقاء والحلفاء لنابليون، وبات يخشى مما هو أسوأ. . هودسون لو، كان يبحث دائماً عن إبعاد الناس القريبين من نابليون عن سانت هيلين. قبل عام طرحت مسألة ترحيل مونطولون وقال الامبراطور حينها ألى أومبيرا، إنني سوف أشعر بفقدان مونطولون أكثر من سواه. فهو الأكثر فائدة لي ويعمل جهده لإرضاء رغباتي. وأضاف ليس للكونت ما يخشاه في فرنسا. . . فهو من أسرة نبيلة ويمكنه أن يدخل فوراً في حظوة لدى البوربون إن اختار ذلك. لم يفعل الحاكم شيئاً شد مونطولون لكنه في بداية عام ١٨١٨ حاول أن يستعدي أومبيرا للعودة إلى انكلترا.

غروفنور هاوس، لندن
أيار ١٩٦٢

ميبل بروكس، سيدة عجوز أنيقة في السادسة والسبعين من عمرها، العينان زرقاوان، تتحرك بطريقة رائعة. أعطت موعداً لفورشوفود في صالون الاستقبال الذي تشغله في غروفنور هاوس، أحد أفضل فنادق العاصمة البريطانية.

السيدة ميبل، زوجة بطل التنس الشهير نورمان بروكس، اللذي يعيش في أوستراليا. ألّفت عدة كتب، وتكرس نفسها للأعمال الاجتماعية باستمرار (آخر انجازاتها إنشاء مستشفى للنساء). وهي حفيدة ويليام بالكومب، وهذا ما دعاها للاهتمام بأعمال فورشوفود. قبل عدة أشهر في ملبورن، حيث تقيم عادة، قرأت مقالة في المجلة الطبية الأسترالية عن أبحاث فورشوفود. لذا فإنها كتبت إلى السويدي، من خلال المجلة البريطانية «الطبيعة» حيث صدرت المقالة الأصلية. قالت في رسالتها، بأنها تمتلك خصلتين من شعر الامبراطور: إحداها من بيتسي بالكومب التي قدمها نابليون أثناء زيارة الوداع في لونغوود، والأخرى هي تلك التي أعطتها فاني برتران إلى الكومندان جون تيد في كانون ثاني ١٨١٦، والتي اشترتها من أحد أحفاد هذا الضابط. أضافت الليدي ميبل بأنها مستعدة لإرسال عينتين من هاتين الخصلتين إلى هاملتون سميث في غلاسكو.

أعلنت الليدي ميبل بأنها ستكون في لندن في الربيع واقترحت على السويدي الالتقاء به. اليوم، تم تحليل العينتين في غلاسكو، ويمكن لفورشوفود أن يعلمها بالنتائج.

قالت الليدي ميبل لمحدثها وهي تشرب فنجان الشاي: إنني مسرورة

لأنك تقدم الدليل على تسمم الامبراطور. أنت تعلم بأن جدي الأكبر قد فكر في الموضوع، وهذا تقليد مستمر في الأسرة. عندما كنت طفلة غالباً ما سمعت الحديث عن الموضوع. وباعتباري حفيدة ويليام بالكومب فإنه لا يسعني إلا أن أشكرك للطريقة التي كشفت فيها عن الجريمة. والآن قل لي، هل كانت الشعرات التي أرسلتها إلى الدكتور سميث مفيدة؟

ـ بالطبع يا سيدتي العزيزة، وأشكرك على ذلك.

شرح لها فورشوفود باختصار الطريقة التي ابتكرها هاملتون سميث ونتائج الاختبارات الأولى. فالشعرات المستخدمة في هاتين التجربتين حلقتا من رأس نابليون غداة وفاته. واليوم، وللمرة الأولى، فإنه يمتلك شعرات تعود لفترات سابقة. وقد قدمت هاتان العيّنتان الدليل على أن السم كان يدس له خلال تلك الفترات أيضاً.

تم تحليل شعرتين من الخصلة المعطاة إلى بيتسي، على ثلاث مقاطع طول الواحد منها ١ سم كان المحتوى من الزرنيخ ٦,٧ إلى ٢٦ بالمليون، أي أعلى من الحد الطبيعي الذي مقداره حوالي ٠,٨. ومن خصلة تيد، تم تحليل ثلاث شعرات قطعت إلى مقاطع طولها سنتيمتر واحد، وقد كشفت عن نسبة ٣,٥ إلى ٧٦,٦ بالمليون، في حين أن بعض بقايا الشعر المحلل، في نفس الوقت تشير إلى محتوى ٣٧,٦.

تبرهن الفروق الكبيرة الملاحظة من مقطع لآخر، مرة أخرى على أن دس السم كان بشكل مقصود، وليس من خلال عدوى بطيئة ناجمة عن الوسط المحيط.

أضاف فورشوفود بأن العينات الأهم هي تلك التي جاءتنا من «الآنسة بيتسي».

ضحكت الليدي ميبل وهي تسمع السويدي يستخدم التعابير التي كان يستخدمها نابليون في مخاطبة بيتسي بالكومب. . . .

يؤكد فورشوفود أنه بفضل مذكرات بيتسي، فإنه يعرف بالتحديد اليوم الذي قصت فيه هذه الشعرات وهو ١٦ أيار ١٨١٨، وأن فترة نموها تمتد من نهاية عام

١٨١٧ وحتى الشهر الأول من ١٨١٨ .

ـ وعن طريق أوميبراً ومارشان، فإننا نعلم كذلك، أن نابليون مرض عدة مرات خلال هذه الفترة.

ـ هذا صحيح ، أضافت الليدي ميبل، فقد ذكرت والدة جدتي بأن الامبراطور كان مريضاً في تلك الفترة.

احتاج فورشوفود لبعض الوقت كي يتمثل الفكرة بأن هذه السيدة الجميلة العجوز، هي ابنة أخ الطفلة الشيطانة في البريار.

تابعت الليدي ميبل أسئلتها له:

ـ وماذا أظهرت الشعرات المعطاة إلى الكومندان تيد؟

ـ شرح فورشوفود بأن هذه الشعرات تطرح عدداً من المسائل الأخرى. من المعلوم أن فاني برتران قد أعطتها للكومندان تيد يوم ١٤ كانون ثاني ١٨١٦ ، إلا أنه من غير المعروف تاريخ قصها، وعلى أية مسافة من الجذر. فإن كانت قد قصت قبل إعطائها إلى تيد، فوراً، وحلقت على مستوى الجلد، فإن تحليلها سوف يبرهن على أن السم يعود للأيام الأولى للوصول إلى سانت هيلين. وفي الحالة المعاكسة، فمن الممكن أن يكون نابليون قد تناول السم في فرنسا نفسها خلال المائة يوم.

ـ أشارت الليدي ميبل بأن شعر نابليون رائع. فقد كتبت والدة جدتي بأنها كانت ناعمة وحريرية كشعر الأطفال.

ـ أجاب فورشوفود: إن والدة جدتك كانت مصيبة. منذ عامين عندما قدم الأخصائيون الفرنسيون دعمهم لي وقتئذ، فإن الكومندان لاشوك عرفني بالأميرة كلوتيلد ماتيلد بونابرت، شقيقة الأمير نابليون وكان لها شعر جدها. عليّ أن أقول بأن هذه السيدة رائعة وروحانية. لديها خصلة شعر، لكنها مختومة في ميدالية. وقد قالت لي: «لا أعتقد بأنها ستكون مفيدة لك، لأنها قصت من رأس نابليون عندما كان طفلاً». وباعتبار أنني رأيت شعر الامبراطور مراراً، أعتقد بأن هذه الخصلة قد أخذت وهو كبير السن وعلى أية حال لم يكن لديها أية فكرة عن الفترة الزمنية التي قصت فيها، وبالتالي فإنها لم تقدم لي شيئاً.

ـ وهل ساعدتكم الخصلات، التي قدمتها لكم في الكشف عن السم؟

ـ من الأصح القول بأنها أتاحت لنا استبعاد بعض المشتبه بهم. فبعد أن تأكدنا أن نابليون كان يتناول الزرنيخ عام ١٨١٨، فإنه أمكننا استبعاد الذين جاءوا بعد هذا التاريخ. وأذكر على وجه الخصوص الدكتور أنطومارشي الذي وصل عام ١٩١٩. يمكننا استبعاد الذين غادروا الجزيرة قبل ذلك التاريخ، أيضاً.

توقف فورشوفود قليلاً، وكأنه أراد أن يعطي وزناً لكلامه، ثم أضاف:

ـ وهذا يعني بأنه لا يمكن الشك إطلاقاً في ويليام بالكومب.

ـ صرخت الليدي ميبل، ماذا تقول؟ هل كنتم تشكون فيه؟ لقد كان ويليام بالكومب صديقاً كبيراً للامبراطور، وكان إنساناً شريفاً لا يمكنه القيام بمثل هذه الأعمال.

أخذ فورشوفود يضحك، ثم قال:

ـ لا. والواقع أنني لم أشك في والد جدك إطلاقاً، وسأقول لك لماذا. باعتبار أنه كان مورد المواد الغذائية في لونغوود، فقد كان بإمكانه أن يدس السم في المواد الغذائية، وحيث أنه لم يكن يعلم ما سيتناوله الامبراطور من طعام، فإن كل من كان يأكل في البيت، سيموت أو يقع مريضاً في نفس الوقت. وعليه، سوف يسود الاعتقاد فوراً بالتسمم ويتهم الانكليز بذلك. وعليك أن تتخيلي الفضيحة التي ستحدث! لا، إن القاتل كان يعيش بالضرورة في لونغوود. ولا يمكن الشك لا في ويليام بالكومب، ولا في هودسون لو.

ـ كم كان مخيفاً هودسون لو! يعتبره جدي مسؤولاً عن وفاة الامبراطور.

فكر فورشوفود بأن المؤرخين الفرنسيين قد غالوا في طبيعة الحاكم الشيطانية لكنه ظل صامتاً، ثم قال:

ـ مخيفاً أم لا، فإنه لم يكن القاتل. فلم تكن لديه إمكانية القتل.

ـ وماذا عن سيبرياني؟ سألت الليدي ميبل.

لقد اعتبر جدي بأن موته مشتبه فيه. عندما ذهبت إلى سانت هيلين، وجدت أمراً غريباً. فقد اختفى قبر سيبرياني من المقبرة البروتستانتية، وكذلك

شاهدة القبر وإن سجل الأحوال المدنية يذكر وفاته. ما رأيك في ذلك يا سيد فورشوفود؟ هل دس السم لسيبرياني أيضاً؟

هز فورشوفود رأسه. هذا أمر محتمل في الواقع. مع سيبرياني لم يكن القاتل يحتاج لاتخاذ نفس الاحتياطات التي اتخذها مع نابليون: فجثة الخادم لن تشرح. والأعراض التي ظهرت على سيبرياني قبل وفاته هي أعراض تسمم حاد بالزرنيخ. فما هو الدافع للجريمة؟ لقد كانت للقاتل كل الأسباب للخلاص من سيبرياني. علينا أن لا ننسى بأن الكورسيكي كان يقوم بوظيفة جاسوس، عميل سري، للامبراطور. ربما أخذت تساوره الشكوك، وفي هذه الحالة، فإن نابليون قد كلفه بالتأكيد لحمايته والكشف عن صاحب السم.

ـ والجنرال غورغو؟ لقد بدا سلوكه لي غريباً.

ـ صحيح أن شخصيته صعبة الفهم، لكن هذا الشاب ذو الطبيعة النارية لم يكن قادراً على حفظ لسانه. إنني لا أراه قادراً على أن يكون عميلاً سرياً. على أية حال، فقد غادر الجزيرة في نفس الشهر الذي غادرت فيه أسرة بالكومب.

ثم استطرد قائلاً: ربما كان غورغو نفسه ضحية، للسم. فقد وقع مريضاً عدة مرات، وظهرت عليه أعراض مماثلة لهاتيك التي ظهرت على نابليون، ومن المعلوم أنه كان يحذر النبيذ الذي كان يقدم في لونغوود في عام ١٨١٦، طلب من أومييرا تحليل النبيذ للبحث عن إمكانية وجود الرصاص فيه، وطرح مسألة نابليون.

ـ وهل كان الامبراطور يخشى السم؟

ـ أثناء حياته، جمدت محاولة قتله عدة مرات، وبالتأكيد فقد فكر بالسم. وقد تحدث عن ذلك عدة مرات في سانت هيلين، لكنه لم يكن يشك إلا في الانكليز.

ثم عرض فورشوفود عدداً من التفاصيل جواباً على أسئلة السيدة العجوز. قال إنه من المعروف مثلاً، للتخلص من الجرذان في لونغوود فقد فكر مارشان وأومييرا باستعمال الزرنيخ. وبالتالي يمكن الحصول عليه في سانت هيلين.

ومن المعلوم كذلك أن الكتاب عن الماركيزة برانفيلين، يشكل كتاباً مدرسياً لصاحب السم. وعلى أية حال، فإن هذه التقنيات كانت معروفة في تلك الفترة. وأضاف فورشوفود : «إن تاريخ الماركيزة برانفيلين هام جداً بالنسبة لي. في عام ١٩٢٢، عندما كان عمري تسعة عشر عاماً، كنت أعيش في بانسيون لدى إحدى الأسر في ستوكهولم. وفي أحد الأيام مرضت، ولكي أتسلى، أعطتني صاحبة البانسيون كتباً كان من بينها كتاباً عن الماركيزة برانفيلين. وعندما قرأت مذكرات مارشان بعد ثلاث وثلاثين سنة، ذهلت لتماثل بعض التفاصيل. وأخيراً، لدى قراءة مذكرات غورغو، فهمت أهمية وجود هذا الكتاب عن الماركيزة في لونغوود.

أكد فورشوفو، بعدها بأن كمية السم القاتلة قليلة جداً. فالكمية الإجمالية من الزرنيخ المستخدم خلال ستة أعوام، ربما كانت في مغلف صغير. صبت ميبل بروكس كأساً آخر من الشاي وعاد الحديث مجدداً عن أسرة بالكومب. كانت الليدي ميبل مؤرخة الأسرة إلى حد ما، وحارسة التقاليد الموروثة عن جدها، ألكسندر، الذي كان نابليون يجعله يقفز على ركبتيه عندما كان في سن الرابعة. وقد كتبت مؤلفاً عن تلك الفترة تحت عنوان: قصة سانت هيلين.

ـ قالت: لقد أثر نابليون كثيراً على حياة أسرتنا. وإليه يعود السبب في أنني أصبحت أوسترالية لا انكليزية. لقد اعترض هودسون لو على عودة ويليام بالكومب إلى سانت هيلين. عين عام ١٨٢٤ أميناً للخزانة الاستعمارية في أوستراليا، وسافرت الأسرة كلها إلى سيدني، ما عدا بيتسي، التي كانت قد تزوجت وبقيت في انكلترا.

ـ سأل فورشوفود: وكيف كانت حياة «الآنسة بيتسي» بعد سانت هيلين؟

ـ لا أعتقد بأنها كانت سعيدة. وأعتقد بأن زواجها كان تعيساً، وعلى أية حال لا نعلم الشيء الكثير عن هذا الموضوع. وجدت رسالة تعود لعام ١٨٢٦ كتب فيها أحد ضباط البحرية الموجودين في سانت هيلين إلى بيتسي : «أين هذا الزوج الذي سمعت بأنه يعاملك بوحشية؟ فيما بعد، اضطرت بيتسي إلى إعطاء دورس في الموسيقى لتتمكن من تربية ابنتها. وقد بقيت على علاقة مستمرة مع آل بونابرت. في عام ١٨٣٠، طلب جوزيف رؤيتها في لندن وأعطاها خاتماً

مزيناً بحجر ثمين، الذي أمتلكه في الوقت الحاضر. وبعد سنوات طوال، أعطاها نابليون الثالث ملكاً في الجزائر. كان يحتفظ بنسخة من مذكراتها في مكتبته. وهذه النسخة موجودة حاليا عندي. ماتت بيتسي في لندن عام ١٨٧٣ .

توقفت لحظة الليدي ميبل... ثم أضافت:

ـ مسكينة بيتسي. أعتقد أنها كانت تفكر في سانت هيلين غالباً. وفي الأشهر التي أمضتها مع الامبراطور في البريار. لقد كانت أسعد أيام حياتها. لقد ولدت مبكرة. فالصفات التي أحبها نابليون فيها، كانت الشجاعة والذكاء والإرادة لم تكن مرغوبة لدى السيدات في ذلك الوقت.

علق فورشوفود بظرافة:

ـ على ما يبدو، فإنها تتقاسم هذه الصفات مع حفيدة أخيها.

ابتسمت الليدي ميبل، وقد سرتها المقارنة.

ـ كما تعلم يا سيد فورشوفود، عندما زرت سانت هيلين، تولّد لديّ انطباع بأنني كنت أسير يداً بيد، مع بيتسي. لقد أصبحت الكثير من الطرقات والأماكن مألوفة عندي لكثرة ما قرأت عنها من الأوصاف التي كتبتها عنها. لونغوود والبريار والمفرق الذي دفن فيه العجوز هوف...

اشترت الليدي ميبل البريار وأهدتها إلى فرنسا، تعبيراً عن العلاقات التي ربطت ما بين الامبراطور وأسرتها.

ـ قال فورشوفود متأملاً: آمل أن أسافر ذات يوم إلى سانت هيلين، بعدما أنتهي من عملي.

ـ ومتى سيكون ذلك؟

عندما سيكون بإمكاني أن أقدم الدليل عن قاتل نابليون...

لونغوود، سانت هيلين

آب ١٨١٩

١٥ آب، يصادف عيد ميلاد نابليون، لقد بلغ اليوم الخمسين عاماً. كتب مونطولـون «منذ أعـوام قليلة، كان سفـراء ملوك أوروبا يـرتمون على أقـدام الامبراطور لتقديم تحيات أسيادهم. واليوم يشتم ويهدد باختراق حرمة منزله».

هودسون لو، الذي يؤرقه هروب الامبراطور أكثر من أي وقت مضى، راح يهدد بدخول الباب عنوة، إن لم يشاهد المنفي مرتين في اليوم. رد نابليون باستخدام الطريقة الوحيدة التي يمتلكها: اعتصم في البيت في لونغـوود وأعلن بأنه سوف يحرق رأس أول شخص يجروء على دخول بابه.

في هذا اليوم من ١٥ آب، لم يكن هناك أي احتفال خاص في لونغوود، وقد مرّ كأي يوم عادي. في الخمسين من عمره، لم يعد نابليون ذلك الرجل الذي كان أيام قصر التويلري. بعد ثلاث أعوام من قلة الحركة والمرض، ازداد وزنه وراح يشعر بالضعف والوهن.

في لونغوود تجر الأيام الملل. بات البناء بطوله نصف فارغ حالياً، والهدوء يخيم عليه منذ أن غادره أطفال مونطولـون، فقد كـانت ألعابهم تقـطع رتابـة المكان. كان نابليون يتجول أحياناً، في الغرف الساكنة، يضرب الأثاث جزعاً، بعصا البليار، قال مرة لمارشان وبرتران بأنه يتوقع الموت قريباً.

لقد تلاشت آمـال نابليـون. ولم يعد يتحـدث عن العودة إلى السلطة والأخبار التي كانت تصل من أوروبا وضعت حداً لأمله في العيش إنساناً حراً كمواطن عادي، في يوم ما.

في آذار، علم بأن الملوك الحلفاء، الذين اجتمعوا في تشرين ثاني في

اكس لا شابل قد صوتوا بالإجماع، بالحفاظ عليه في المنفى طيلة حياته. وقبل عام، حاول نابليون إرسال رسالة إلى القيصر ألكسندر من خلال المفوض الروسي في سانت هيلين. لكن المندوب الروسي في اكس لا شابل هو الذي أعد المذكرة باستمرار النفي. والروسي هو الذي كتب عنه بأنه «الثورة المتركزة في رجل واحد».

ولا يمكن توقع أقل من ذلك من ملوك الحلف المقدس الآخرين، الذين بإبقائهم على نابليون مصفداً في جزيرته، كانوا يمسكون بشبح الثورة الفرنسية بعيداً، في نفس الوقت. وقد وافق الملوك على إجراءات إنكلترا، ورفضوا شكاوى سجين سانت هيلين.

وفي الأيام التالية، لتلقي أنباء مؤتمر اكس لا شابل، أغلقه نابليون الباب على نفسه، في الغرفتين الصغيرتين، ولم يشاهد أي شخص سوى مارشان الذي لم يتحدث معه طويلاً. على أية حال، لقد كان يأمل بأن الانكليز سوف يغيرون مكان نفيه، وقد جرى الحديث عن جزيرة مالطا، التي راح يمني نفسه بها باعتبارها قريبة من موطنه، وأفضل من سانت هيلين التي يكرهها، هذا إذا لم يكن بالامكان العيش في إنكلترا. كان يحمّل جزيرة سانت هيلين مسؤولية حالته الصحية المتدهورة. قال مرة لأومبيرا: «إن الطقس اللاصحي هو سبب مرضي». إلا أنه يجب رد السبب أيضاً، إلى الكسل وقلة الحركة التي فرضتها عليه، حقارة هدسون لو.

حاول الحاكم إجراء تعديل خجول، يقتضي ظهور نابليون مرتين في اليوم، مقابل إعطائه حرية أكبر.

لكن نابليون لا يمكنه أن يقبل دفع مثل هذا الثمن. فقبول شرط الحاكم، يعني أن يقبل ضمناً وضعه كسجين، وهذا ما لا يرضى به. فهو ما زال امبراطور الفرنسيين، وإن فقد عرشه، فالأمر متروك لحكم التاريخ.

كما أن هناك أسباباً أخرى أقل أهمية، تدفعه إلى رفض شروط الحاكم. ذلك أنه إن قبلها، فإنه لن يستطيع التشكي بعدها، من سوء المعاملة التي يتعرض لها وسوف يفقد كل أمل في إقناع الانكليز لمغادرة هذه الجزيرة. إذن،

استمرت الحرب الصغيرة بين لونغوود وبلانتيشن هاوس.

في ٢ نيسان، استقبل نابليون أول زائر منذ حوالي سنتين وهو : شارل ميلز ريكتس وهو موظف انكليزي قدم من كالكوتا، توقفت سفينته في سانت هيلين، أحب نابليون الالتقاء به لأنه ابن عم رئيس الوزراء اللورد ليفربول. لم يستقبله حسب البروتوكول الامبراطوري، واقفاً وبالزي الرسمي، فقد بات يريد إعطاء صورة الرجل المريض، وليس الامبراطور.

كتب ريكتس قصة هذا اللقاء: «دخلت إلى غرفة صغيرة حيث كان نابليون ممدداً على سرير عسكري، لابساً قميصه مع فولار ملون حول الرأس وذقنه لم تحلق منذ ثلاثة أو أربعة أيام. كانت الغرفة مظلمة بحيث أنني لم أتمكن من تمييز قسماته في البداية، حتى جاءت الشموع التي أضاءته بما يكفي . . . كان يشبه إحدى الصور التي رأيتها معروضة في قاطر نورثمبرلاند وصورة فرنسية أخرى كانت تظهره ورأسه مكلل بالغار. بدا لي وكأنه مصاب بشيء من الصمم. وحسبما شاهدت فقد وجدته أكثر سمناً مما يقال عنه عادة. كانت وجنتاه ورأسه غائراً بين كتفيه، ويداه بدينتان. وفي الإجمال بدا لي بأنه سوف يصبح بديناً جداً. كان يجلس على سريره ولم يتحرك سوى مرتين أو ثلاث، كان يبدو وكأنه يعاني من شيء من الألم. كانت لديّ ملاحظات قليلة، وقد طرح عليّ القليل من الأسئلة، وكان يكرر: هل تفهم؟ أثناء المقابلة التي استمرت حوالي أربع ساعات، أعاد نابليون طرح فكرته المعتادة: بأنه يقتل ببطء. اعتقد ريكتس بأن الأمر مصطنع ولم يصدق بأن نابليون كان مصاباً بمرض خطير. وقد أخطر بذلك لندن لدى عودته.. كتب سكرتير المستعمرات إلى هدسون لو: «لم يكن هناك أفضل من الزيارة التي قام بها السيد ريكتس إلى سانت هيلين».

وتلك هزيمة إضافية لنابليون.

والواقع، أن ريكتس لم يكن يخطىء تماماً. فقد كان نابليون في تلك الفترة في صحة جيدة. وبالطبع، كان يعاني من وقت لآخر، من تلك الأمراض غير المفسرة، التي كانت تصيبه منذ وصوله إلى لونغوود. كان يطلب مناشف دافئة ليلف بها ساقيه التي كان يشعر بالبرودة فيهما دائماً. وكان يقول لمارشان

بأنه كان يعاني من آلام في الطرف الأيمن، وكأنه يقطع بالشفرة. بالرغم من هذه الأعراض، كان نابليون في صحة أفضل في الوقت الحاضر ـ بالرغم من أنه كان بدون طبيب منذ عام ـ عما كان عليه منذ ثمانية عشر شهراً، حين كان يعتقد السير بالكومب بأنه سيموت عما قريب. كان من الأفضل إخفاء هذا التحسن. طلب نابليون من برتران ومونطولون اغتنام كل فرصة ليعلم العالم بخطورة مرضه. تقلصت الحاشية. تركت ألبين دو مونطولون سانت هيلين منذ مدة وأخذت معها أولادها الثلاثة. هل كانت خليلة الامبراطور؟ ابنتها نابليونة، التي ولدت في الجزيرة، هل هي ابنة الامبراطور؟ بازل جاكسون الضابط الانكليزي الشاب الذي كان يزورها مراراً في لونغوود، سيلتقي بها فيما بعد في بروكسل، فهل كان خليلاً لها، أم جاسوس هودسون لو، أم الاثنين معاً، أم لا شيء من كل ذلك؟

وفي جميع الأحوال، فإن الإشاعات في سانت هيلين، كانت كثيرة.

كتب المفوض النمساوي، البارون ستورمر بأن: «السيدة مونطولون قد انتصرت على منافساتها ووصلت إلى السرير الامبراطوري». أشار الكابتن نيكولز، الضابط الانكليزي المقيم في لونغوود، بأن زيارات ألبين إلى غرفة نابليون كانت منتظمة، ويشير إلى أن نابليون قد أرسل مرة خادمه سان دنيس للبحث عنها في الساعة الثانية صباحاً. قالت فاني برتران، التي كانت تكره ألبين، للدكتور جيمس روك فيرلينغ بأن الصغيرة نابليونة لا تشبه أبداً آل مونطولون، وترد فاني الحظوة التي كانت تتلقاها أسرة مونطولون إلى تواطؤ الكونت نفسه.

وسواء كانت ألبين خليلة نابليون أم لم تكن، فمن المؤكد أن سفرها مع أولادها قد جعل أيام لونغوود أكثر فراغاً. كانت ألبين مونطولون، على عكس فاني برتران الحزينة المترفعة، مرحة سهلة العيش. بالرغم من أن جمالها في الثلاثين بدأ يخف، فقد كانت تقدم إلى لونغوود أنساً أنثوياً يفتقده الساكنون بشكل كبير. لقد كانت تعرف كيف تتدبر أمورها. فقد ابتزت قبل سفرها مبلغاً كبيراً من المال من نابليون، وادعت سوء حالتها الصحية من أجل سفرها. وقد قدم لها الامبراطور أيضاً لعبة الشطرنج العاجية التي سبب شعارها الامبراطوري الكثير من المشاكل لهدسون لو.

حضر نابليون سفرها من خلال شقة الباب، وعندما استدار، كاد أن يدوس على جرذ. قال بعد فترة لبرتران بأن ألبين كانت «متآمرة» ولم تكن «تعطي قلبها إلا مقابل أموال لا بأس بها». عندما بات سفر ألبين مؤكداً، سمح نابليون لزوجها بالسفر معها، لكن مونطولون رفض. واليوم، حتى برتران المخلص، يتحدث عن السفر. والخدم راحوا يغادرون أيضاً؛ ففي العام الماضي لوحده غادرت نصف دزينة منهم، بمن فيهم الطباخ لوباج، متذرعين بحجج مختلفة. ومعظم الباقين سيغادرون دون شك، إن تمكنوا من ذلك. معظمهم يرغب في السفر، باستثناء لويس مارشان، الذي استمر في خدمة سيده بإخلاص. لم يشتك مارشان حتى عندما رفض الامبراطور طلبه في التصريح له بالزواج من فتاة بالجزيرة، التي ولدت طفلاً منه، (أو ربما من نابليون نفسه)، بالرغم من أن نابليون قد سمح لبعض خدمه الآخرين بالزواج.

بدأ عالم الامبراطور يقتصر شيئاً فشيئاً على مونطولون ومارشان. كان يمضي أيامه إما وحيداً أو مع أحدهما. في الصباح، كان يخرج أحياناً إلى الحدائق برفقة مونطولون، وبعد الظهر، كان يملي على مارشان. في المساء، وفي الليالي التي كان يعاني فيها من قلة النوم، كان يطلب من أحدهما المجيء والقراءة له. لم يعد هناك عشاء امبراطوري في البناء الذي بات شبه مهجور، وبات نابليون يتناول وجبات الطعام وحيداً أو مع مونطولون. كان برتران يأتي إلى لونغوود كل يوم، لكنه كان يعيش خارجه مع زوجته. ولم يكن موجوداً في كل مرة كان يطلبه نابليون. وعليه، نشأت بعض الجفوة بين نابليون ورفيقه القديم.

منذ شهر تموز ١٨١٨، عندما حصل هدسون لو على استدعاء أوميرا، لم يعد هناك طبيب في لونغوود. فقد كان الحاكم يرى أن أوميرا يخلص لنابليون أكثر مما يخلص لرئيسه، ووجد بأن تشخيصه لالتهاب الكبد لدى نابليون، غير مقبول، وأن أحدهم، الذي رفض ذكر اسمه، قد قال له بأن الطبيب يسم نابليون بالزئبق.

لقد أثر سفر الطبيب الإيرلندي كثيراً على نابليون. بعد وفاة سيبريانى ومغادرة بالكومب، كان أوميرا صلته الوحيدة مع العالم الخارجي.

عندما جاء الطبيب مستأذناً بالسفر، صافحه نابليون ـ وتلك حركة نادرة من طرفه ـ وقال له: «وداعاً يا أومييرا. لن نلتقي بعد اليوم. كن سعيداً. انتقم أومييرا في لندن من هدسون لو.

قال: «ذكر الحاكم المزايا التي ستتحقق لأوروبا من موت نابليون بونابرت، وذلك بطريقة مزعجة جداً، نظراً لعلاقتي بنابليون». أراد أومييرا أن يقول بذلك بأن هدسون لو كان يريد منه أن يسمم نابليون. لقد كلفه هذا التصريح الشطب من سلاح البحرية. لم يجر أي استقصاء لتصريحات هذا الطبيب الشاب. بعد مغادرة أومييرا، وجد مارشان كمية من المراهم والأدوية التي حضّرها لمريضه. قبل نابليون استعمال المراهم، وقال لمارشان: «أما بشأن هاتيك التي ستدخل إلى معدتي، فبإمكانك حرقها».

ومن أجل استبدال أومييرا، اقترح هدسون لو طبيبين إنكليزيين رفضهما نابليون، كونهما اقترحا من قبله. نابليون، كالحاكم، كان يطالب بطبيب مخلص له. قذف طبيب انكليزي آخر، اسمه جون ستوكو، وهو جراح في الباخرة كونكيرور في المعركة، بين الرجلين.

لقد التقى نابليون مرة في إحدى زيارات أومييرا إلى لونغوود. وعندما أصيب نابليون في كانون ثاني، بالإغماء وهو يملي على مونطولون، أرسل برتران رسالة عاجلة إلى ستوكو. وبتصريح من الحاكم، ذهب ستوكو مرتين أو ثلاث مرات إلى لونغوود. وقد نقل إليه مونطولون عرض الامبراطور بالإقامة بصفة طبيب خاص مقيم.

لكن هدسون لو اعترض. ستوكو على غرار أومييرا ارتكب خطأ في تشخيصه التهاب الكبد. وأسوأ من ذلك، فإن رقابة الحاكم قد ضبطت رسالة من رجل أعمال أومييرا، قادمة من لندن، موجهة إلى ستوكو، وتحتوي على طرد مختوم للمارشال الكبير برتران. شعر ستوكو بالخطر، فطلب توطينه لأسباب صحية. ركب أول باخرة مسافرة إلى إنكلترا، لكنه كان يجهل وجود رسالة في نفس الباخرة تطلب إحالته إلى محكمة عسكرية. في منتصف شهر آب ۱۸۱۹، عاد ستوكو مجدداً إلى سانت هيلين. كان عليه المثول أمام محكمة عسكرية في نهاية الشهر. فقد اتهم بأنه قدم أموراً لم يلاحظها، بشأن صحة الجنرال

بونابرت. (أعلن بأن نابليون يعاني من التهاب الكبد منذ ستة عشر شهراً). كما أنه اتهم باستخدام تعبير «المريض» بدلاً من «الجنرال بونابرت».

كانت وظيفة طبيب نابليون خطيرة بالنسبة للانكليز الخاضعين للنظام العسكري ولرغبة هودسون لو. لكن نابليون الشكوك بالطب، يريد أن يكون هناك طبيب في لونغوود لحالات الأزمة. وقد كان ينتظر أحد الأطباء، فقد كتب برتران منذ عام (وبتصريح من الانكليز) إلى أسرة بونابرت التي لجأت إلى روما، يطلب منها إرسال رئيس خدم بديلاً عن سيبرياني الذي مات، وطباخ وقس كاثوليكي (لا يوجد أي قس في سانت هيلين). لم يكن نابليون بحاجة إلى قس، فلم يكن مكترثاً بالدين، لكن كان يحب النقاش في قضايا اللاهوت. من ناحية أخرى، فقد كان بعض خدمه مؤمنين، كما قال ذات يوم إلى لاس كاسس، لو كان هناك قداس يوم الأحد، فإن ذلك سيساعدهم على إمضاء الوقت. وقد أضاف برتران، طبيباً، إلى القائم، في وقت لاحق.

في آب ١٨١٩، كتب مونطولون إلى هدسون لو، يذكره بضرورة مجيء طبيب إلى لونغوود والإقامة فيها. في نفس الوقت، وصلت المجموعة الصغيرة القادمة من روما إلى سانت هيلين، ولا أحد يعلم عنها شيئاً.

غوتبورغ نيسان ١٩٦٣

انتهى فورشوفود من قراءة التقرير الأخير، الذي وصله من العالم السكوتلندي هاملتون سميث، حيث يتسم أسلوبه بالدقة العلمية. لا شيء يذكر بالساعات القائمة في لونغوود، كان فورشوفود يرغب أن يترك له زميله إشارة استفهام واحدة من وقت لآخر. لكن الأمر غير وارد.

يتعلق تقرير هاملتون سميث بتحليل عينة جديدة من الشعر، كان قد أرسلها مباشرة إلى غلاسكو، الكولونيل دونكان ماكولي، أحد أحفاد الأميرال بولتني مالكولم. وعلى غرار كليفورد فري وميبل بروكس فقد قرأ الأميرال المقالات التي نشرت حول نظرية فورشوفود واكتشافات هاملتون سميث. وقد أرسل إليه الكولونيل بعض الشعرات من الضفيرة التي أعطاها نابليون إلى الأميرال أثناء زيارة الوداع في ٣ تموز ١٨١٧.

كشف التحليل المقطعي لهذه الشعرات وجود محتوى من الزرنيخ يتراوح ما بين ١,٧٥ و ٤,٩٤ بالمليون، ومع أن هذه الأرقام أدنى من سابقاتها إلا أن ذرى وتقعرات الخط البياني تشير، كالسابق إلى وجود تسمم مقصود.

أسف السويدي لأنه لم يتمكن من تحديد تاريخ فترات التسمم بدقة: إذ لم يشر أي من الأشخاص الحاضرين في لونغوود بتاريخ ٣ تموز ١٨١٧ إلى الظروف التي قصت فيها خصلة الشعر المهداة.

فإن كان الامبراطور قد أمر بقص ضفيرة الشعر، في الحال، لإعطائها إلى الأميرال، مثلما كان قد طلب ذلك من مارشان عند وداع بيتسي بالكومب - وإن كانت الضفيرة قد قصت بالقرب من الجذر، فسيكون، لدينا الدليل على أن نابليون كان يتناول الزرنيخ في نهاية عام ١٨١٦، وبداية عام ١٨١٧. لكن من الممكن أن يكون مارشان قد احتفظ ببعض ضفيرات الشعر عندما قص شعر

سيده في مرة سابقة. من ناحية أخرى، ما هي الوتيرة التي كان يقص نابليون فيها شعره؟ لم يكن ذلك الأمر يتكرر في أغلب الأحيان، حسبما يظهر من صوره لتلك الفترة. وإذا افترضنا، بأن هذه الشعرات قد قصت قبل أربعة أشهر من زيارة مالكولم، فإن ذلك يعني أن السم كان يدس له في بداية عام ١٨١٦ بل حتى في نهاية عام ١٨١٥. وعلى أية حال، فإن التحليل الأخير يكمل ثغرة هامة في التسلسل الزمني الذي وضعه فورشوفود. فإذا استثنينا الضفيرة التي أعطيت للكومندان تيد، في كانون ثاني ١٨١٦، والتي لا نعرف عنها الكثير، فإن الشعرات التي بحوزة الأميرال مالكولم، هي الوحيدة التي يمكن تحديد تاريخها بدقة منذ بداية الإقامة في سانت هيلين. إذن، فإن فورشوفود، يمتلك الآن، الدليل على أن نابليون قد تناول السم خلال السنتين الأوليتين من نفيه.

فيما يخص صحة الامبراطور، فإن روايات الشهود تتفق على القول، أنه خلال عام ١٨١٦، وطيلة الأشهر الأولى من عام ١٨١٧، كان نابليون يمرض أحياناً وتظهر عليه أعراض عديدة للتسمم بالزرنيخ، لكن لم تكن هناك نوبات خطيرة. وعلى أية حال، فإن هذا الأمر يتطابق مع كمية سم قليلة (لكنها أكبر من المعدل الطبيعي)، وفق ما تم كشفه في الشعرات المعطاة للأميرال مالكولم. إذن، لا يستطيع فورشوفود إعطاء تاريخ محدد، لكن التحليل المقطعي للشعرة يتطابق مع حالة نابليون الصحية حسبما وردت في مذكرات تلك الأيام.

لقد تقدمت الأمور منذ أن أعلن فورشوفود مع زملائه عن نظريته. فعوضاً عن الشعرة الوحيدة التي جاءت من أشياء نابليون، وصلت أربع عينات، تدعم نتائج التحاليل الأولية. وقد أتاحت له هذه النتائج أن يجيب على التساؤلات، وأن يتخطى الحاجز الذي أحاطت به مجموعة صغيرة من الأخصائيين الفرنسيين المعارضين لنظرية التسمم، ومكنته من أن يرد على سخريتهم.

وعلى ما يبدو، فقد حان الوقت، ليعلن، بشكل أوسع، نتائج أعماله التي توصل إليها مع زملائه. ولربما يؤدي ذلك، وكالمرة الأولى إلى ظهور مساعدة أو تشجيع على الأقل، يمكنه أن يجيب على الانتقادات القادمة من فرنسا.

اتخذ القرار بالانتقال إلى الهجوم، وكتب إلى هاملتون سميث رسالة بخط يده، بهذا الصدد.

باريس
شباط ١٨٢٠

«السيد» منزعج من الخبر الذي وصل إلى مكتبه في قصر مارسان: فقد قتل ابنه، دوق بيري، بطعنة خنجر منذ لحظات، وهو في طريقه إلى الأوبرا.

دوق بيـري، هذا الـرجل الـذي بلغ اثنين وأربعين عاماً ولعب اللعبة العسكرية لفترة طويلة، ليس الابن الأصغر للكونت أرتواز فحسب، ولكنه الأمل الأخير لأسرة آل البوربون.

بعد «السير» بالذات، لم يعد هناك وارث سوى دوق بيري. لويس الثامن عشر العجوز لم يكن لديه ولد، ولا كونت أرتواز الذي بلغ الستين، ولا الابن الآخر «للسير» ولا دوق أنغوليم، لن يكون لهم خلف على ما يبدو. كان دوق بيري هو الوحيد الذي يمثل استمرار الأسرة الحاكمة.

إن مأساة وراثة العرش، تكمن فيما يلي: بعد موت لويس الثامن عشر سيتسلم «السيد» العرش، يليه دوق أنغوليم وبعده دوق بيري. وإذا مات دوق بيري قبل أن يخلف طفلاً، فلن يكون هناك وريث. وبذلك تنطفىء سلالة آل البوربون.

وفي حين كـان الدوق ممـدداً على أريكة في الأوبـرا، يلفظ أنفـاسـه الأخيرة، تم القبض على القاتل على مسافة مائة متر من الأوبرا، وكان شاباً في السابعة والثلاثين من عمره اسمـه جان لـويس لوفيـل، يعمل في اسـطبلات الملك، تلقى وسام الشرف من يد الامبراطور نفسه أثناء حكم المائة يوم. وقد اعترف بأنه خطط لعملية القتل منذ أربع سنوات، لكنه لم يجد الشجاعة على التنفيذ حتى هذا المساء.

وأضاف مفتخراً: «لن أنسى أنه إذا كانت معركة واترلو حاسمة لفرنسا، فإن ذلك يعود لوجود فرنسيين في بروكسل وغاند (حيث كان المقر العام) لآل البوربون خلال منفاهم الثاني) زرعوا الخيانة في جيوشنا وقدموا مساعدتهم للأجنبي!».

أعدم لوفيل بالمقصلة بعد أن أعلن ولاءه الكامل ثانية للامبراطور في المنفى.

بكى قصر مارسان موت دوق بيري، وبموته فقد آخر أمل للفرع المسمى «بالشرعي». تلك ضربة من بونابرت، بونابرت بذاته..! خيمت ظلال «الغاصب» إذن، بشكل دائم على «السير» وعائلته الشهيرة، ملوك الحق الإلهي لفرنسا الخالدة؟



نابليون بونابرت في سن الرجولة.

لونغوود ـ سانت هيلين
آذار ١٨٢٠

نهض نابليون في الساعة الخامسة صباحاً ولبس رداء النوم والخف الجلدي الأحمر، وعلى رأسه اعتمر قبعة كبيرة ذات أطراف عريضة. كان ينتظر طلوع الشمس. . . . لنقرأ ما كتبه خادمه سان دنيس الملقب علي.

«كان الامبراطور جيد المزاج. يستيقظ ما بين الساعة الخامسة والخامسة والنصف وينتظر بفارغ الصبر خروج العاملين إلى الحديقة. كان يفتح نوافذ الغرف وخرج للنزهة بين الأشجار وهو يتحدث إلى خادم الغرفة. عندما تظهر الشمس في الأفق، كان يرسل الخادم لإيقاظ الجميع. وعندما لا أكون في الخدمة، كان يدعوني وهو يضرب بعض كتل التراب على زجاج نافذتي، قائلاً:

علي، علي، هل ما زلت نائماً؟

وكان يغني:

ـ ستنام كما تشتهي عندما تعود إلى بيتك.

وعندما أفتح النافذة، يصرخ:

ـ لنذهب أيها الكسلان، ألا ترى أن الشمس قد طلعت؟

وفي بعض الأحيان، كان يقول ببساطة:

علي، علي، يا الله، لقد طلع النهار.

كان لمارشان جولته في بعض الأحيان، لأن الطرف الذي كان يسكنه لم يكن يمر فيه الامبراطور. وكان يقول أحياناً:

ـ مارشان، يا آنسة مارشان، انهض، فقد طلع النهار.

وعندما يصل مارشان، ينظر إليه ويقول له وهو يضحك:

ـ هل نمت جيداً هذه الليلة؟ هل كان نومك متقطعاً؟ سوف تمرض طوال النهار لأنك استيقظت باكراً.

ثم يعود إلى اللهجة العادية:

ـ تعال وخذ هذا المعول والفأس، واحفر حفرة لزرع شجرة.

في حين كان مارشان يحفر الحفرة، يذهب الامبراطور بعيداً لينظر شجرة زرعت منذ فترة قريبة:

ـ ناولني يا مارشان قليلاً من الماء واسق هذه الشجرة.

ويقول لآخر وصل بالقرب منه.

ـ اذهب وقل لأرشامبو يأتيني بروث الحيوانات وللصينيين أن يقطعوا الحشيش. . . .

ثم يأتيني لأملأ التراب في نقالة:

ـ ألم تنته بعد من حفر التراب؟

ـ كلا يا سيدي، لكنني لم ألعب.

ـ هل أنهيت الفصل الذي أعطيتك إياه أيها الظريف؟

ـ كلا يا سيدي.

ـ لقد فضلت النوم، أليس كذلك؟

ـ لكنك يا سيدي لم تعطني إياه إلا البارحة مساءً.

ـ أكمله اليوم، فلدي فصل آخر سوف أعطيك إياه.

ثم ينتقل الامبراطور إلى بيرون الذي كان يزرع الحشيش:

ـ ألم تنته بعد من هذا الجدار؟ وهل لديك ما يكفي من الحشيش؟

ـ نعم يا سيدي.

ثم يعود إليّ.

ـ كم كانت الساعة عندما أيقظتك؟

ـ كانت الساعة الثانية، يا سيدي.

ثم يطلب مني:

ـ هل استيقظ مونطولون؟

ـ لا أعلم يا سيدي.

ـ اذهب وانظر الأمر. لكن لا توقظه، دعه نائماً.
ثم يتوجه إلى نوفيراز، الذي كان يعزق الأرض:
ـ اعمل بجد (مؤكداً على الكلمة الأخيرة). ماذا فعلت أيها الكسول منذ الصباح.
ـ لقد طلبت مني البارحة أن أضع الزفت لمغطس الحمام. لم أجد من يساعدني فاشتغلت لوحدي.
ـ انظر يا سيدي، لقد جاء السيد مونطولون...
ـ آه! مرحباً مونطولون.
ينحني السيد مونطولون باحترام:
ـ كيف حال سيادتكم؟
ـ حسنة، هل أزعجك أحد؟
ـ لقد كنت خارج السرير، عندما جاءوا إليّ...
ـ هل لديك أخبار تقولها لي؟ يقال بأن هناك باخرة قريبة؟
ـ لا أعلم يا سيدي، فلم أشاهد أحداً بعد.
ـ خذ منظاري، وانظر إن كنت ترى شيئاً.
ثم يستدعي نابليون طبيبه فرانسوا أنطومارشي، ويقول له:
ـ صباح الخير يا دكتور، هل أنت مسرور من مريضك؟ هل هو مطيع؟...
لندع أنطومارشي يروي المشهد بنفسه:

«كان نابليون يمسك بالمر مرفوعاً في الهواء، كان يضحك وهو ينظر إليّ ويهز رأسه ويشير بنظره لما فعله في الحديقة: انظر هذا أفضل من حبوب الدواء يا دكتور. لن أتناولها بعد اليوم». ثم عاود حفر الأرض بالمر. توقف بعد لحظات، وقال: «إن المهنة قاسية لم يعد بإمكاني الاستمرار. يداي لم تعد قوية، وتؤلمني» ترك بالمر وقال: «أنت تضحك، وأعلم ما يفرحك. يداي الجميلتين، أليس كذلك؟ دع عنك ذلك. لقد فعلت دائماً بجسدي ما رغبت. ما زلت أستطيع الانحناء للقيام بهذا العمل. والواقع، لقد تعود على ذاك، وأعجبه العمل. فللمرة الأولى منذ خمس سنوات أخذ يحرك جسمه، يفلح

الأرض، ينقل التراب، ويدفع كل سكان لونغوود على المشاركة في العمل. لم يكن يخرج عن نطاق العمل سوى السيدات. وكان يسوءه عدم مشاركتهن».

بالطبع، إن كل هذا النشاط المفاجىء والجديد لا يشبه في شيء تلك النشاطات التي جعلته يقطع أوروبا كلها؛ فالأمر هنا لا يعدو سوى بعض الخطوات لأرض شبه قاحلة تقع في نهاية العالم.

وبدلاً من ستمائة ألف رجل في الجيش العظيم، لم يعد تحت إمرته سوى مجموعة صغيرة من الخدم وأربعة عمال صينيين. وماذا يهم، فنابليون مرتاح: فهو يعمل. والكل يتفقون على القول بأنه مليء بالحيوية وأكثر نشاطاً للمرة الأولى منذ وصوله إلى لونغوود.

وعلى ما يبدو، فإن الدكتور أنطومارشي قد نجح حيث فشل سلفه باري أوميرا. فمنذ وصوله في أيلول دفع نابليون للخروج من مقره ولممارسة التمارين والحركة ونابليون كعادته، رفض الخضوع لمراقبة الحرس الانكليز.

«سأله نابليون وأين يمكن التحرك؟

أجاب أنطومارشي:

ـ في الحديقة، في البريّة، في الهواء الطلق.

ـ وبالملابس الحمراء؟

ـ إطلاقاً!

ـ عليك بحفر الأرض، والخلاص من الإهانة والكسل.

ـ أحفر الأرض؟ نعم يا دكتور، معك الحق. سوف أحفر الأرض».

وفي اليوم التالي بدأ العمل، فقد قاد أعمال البستنة وسمى نوفيراز رئيس عمال الحديقة. ثم قرر حفر مستنقعات صغيرة تغذيها قنوات الماء التي حفرها الانكليز مؤخراً. وفي أحد الأيام، خلع هو ونابليون ثيابهما وسبحا في إحدى هذه المستنقعات. كما عاود خروجه راكباً الحصان وراح يزور ورشة المنزل الجديد الذي باشروا ببنائه له. ومرة أخرى انتهز الفرصة للسخرية من الانلكيز. فعندما يخرج، كان يترك أحد الخدم لابساً مثله رداء الغرفة، والخف الأحمر وقبعة المزارعين ـ في الحديقة ـ لإيهام الضابط الانكليزي المكلف بمراقبته.

وصل أنطومارشي إلى سانت هيلين في نفس الوقت الذي وصلت فيه «المجموعة الصغيرة المؤلفة من رجلي الدين والخادمين، الذين أرسلهم عم نابليون الكاردينال فيش، من روما، بناء على طلب برتران. وكما هو معلوم، فإن أسرة نابليون كانت قد غادرت فرنسا بعد معركة واترلو ولجأت إلى روما. تقتسم السيدة الأم قصراً في شارع جيوليا مع أخيها الكاردينال فيش، وسط مجموعة رائعة من اللوحات الإيطالية والفلامنكية. بولين، المدللة بولين، تعيش أيضاً في روما، تزوجت رسمياً من الأمير بورغيز، كانت تحب جمع المعجبين. يتوقف لويس ولوسيان لفترات قصيرة في روما ثم يستأنفان السفر. تراسل السيدة الأم أبناءها وبناتها الآخرين بانتظام حيثما كانوا في المنفى.

كان اختيار الكادرينال فيش للأشخاص غريباً. فقد عرض فورد دو بورغارد، الطبيب الشخصي لنابليون في جزيرة إلبا وأثناء حكم المائة يوم، للذهاب إلى سانت هيلين، لكن الكاردينال رفضه لأنه طلب الكثير من المال ويرغب في اصطحاب زوجته معه.

والواقع، فإن الأمر عندما لا يخص اللوحات الفنية، يكون بخل الكاردينال أسطورياً. اختار فيش أنطومارشي بدلاً من دوبورغارد، وهو طبيب كورسيكي في الثلاثين، كان يعمل في مستشفى في فلورنسا وهو طبيب تشريح مرضي أكثر منه طبيب ممارس، ولم يكن في يوم من الأيام على علاقة بأسرة بونابرت.

واختيار القساوسة كان أغرب. فالكاردينال يعلم بأن ابن أخيه لا يحب الكنيسة كثيراً. ولم يخف عنه نابليون احتقاره للقساوسة وخاصة للرهبان. فقد سجن البابا، عندما كان على خلاف مع روما، ولم يسمح بممارسة نشاطات الكنيسة إلا بعد إخضاعها لنظام الكونكوردا (الاتفاقية) الذي حدد صلاحياتها بشكل كبير في المسائل المدنية. كان برتران قد طلب في رسالته «أن يتم اختيار رجل مثقف لا يتجاوز عمره الأربعين عاماً، ذو طبيعة ناعمة وأن لا يكون متشدداً في المبادىء الفاتيكانية». لكن اختيار فيش لم يتطابق مع أي من هذه الرغبات. وبدلاً من ذلك، أرسل الكاردينال أنطونيو بونافيا، وهو رجل عجوز مريض عمره سبع وسبعون عاماً، أمضى حياته كلها تقريباً في المكسيك والحديث معه صعب

الفهم بسبب إصابته بعسر النطق منذ فترة وجيزة. من ناحية أخرى، وبحجة أن قوانين الكنيسة تقضي أن يسافر الكهنة زوجياً، لا إفرادياً، كي يتمكن أحدهما من الاعتراف أمام الآخر، فقد بعث قساً آخر، كورسيكياً نصف أمي اسمه أنجيلو فنيالي. واختيار الخادمين لم يكن أفضل. فرئيس الخدم، جاك كورسو نشيط، لكنه لا يعرف حتى صنع القهوة. والطباخ جاك شاندليين: مؤهل للطبخ لكنه معتل الصحة.

قال نابليون موجهاً الحديث إلى مونطولون: «إن أسرتي لا تبعث إليّ سوى الهمج، ويستحيل اختيار أناس أسوأ من هؤلاء». وقد سجل مونطولون في مذكراته تلك الملاحظة.

لقد كان الكاردينال والسيدة الأم يعتقدان بأن هذا الاختيار لا معنى له، لأنهم يعلمون بأن نابليون «ليس في سانت هيلين».

فقد كانت أم الامبراطور وعمه منذ فترة ضحية لبصارة ألمانية قالت بأنها علمت بالأمر من العذراء نفسها... وقد كتبت بولين إلى أحد أصدقائها: «بأن صاحب الجلالة قد اختطفته الملائكة ونقلته إلى بلد آخر حيث تحسنت صحته». وعندما غادر الرجال الخمسة روما، كتب فيش إلى لاس كاسس، الذي كان يعيش بالقرب من فرانكفورت: «لقد غادرت المجموعة الصغيرة روما ونحن نعتقد بأنها لن تصل إلى سانت هيلين لأن هناك من أكد لنا أنه قبل ثلاثة أو أربعة أيام من ١٩ كانون ثاني، قد أعطى الامبراطور تصريحاً بالخروج من سانت هيلين والحقيقة أن الانكليز ينقلونه إلى مكان آخر. ماذا يمكنني أن أقول لك؟ كل شيء معجزة في حياته وأنا أصدق هذه المعجزة». وفيما بعد، كتب إلى لاس كاسس: «ليس هناك من شك بأن سجّان سانت هيلين يأمر الكونت برتران بأن يكتب إليك وكأن نابليون ما زال في الإصفاد». كانت بولين تسخر من قناعة والدتها وعمها، لكنها اضطرت أخيراً لمسايرتهما منعاً للانقسامات.

لقد أمضى فيش عاماً كاملاً لتحديد خياراته، «فالمجموعة الصغيرة» غادرت روما في ١٩ شباط، ووصلت لندن بعد شهرين. وفي العاصمة الانكليزية فإن مكتب المستعمرات أخرها مدة ثلاثة أشهر أخرى بحجة أن

الموظفين لا يعرفون تاريخ سفر السفينة الأولى إلى سانت هيلين. كان الانكليز يؤكدون بأن صحة نابليون ممتازة، وأنه بإمكان الرجال الخمسة التخلي عن مهمتهم وهم مرتاحوا الضمير.

انتهز انطومارشي فرصة إقامته في لندن لاستشارة اثنين من زملائه، الذين سبق لهم معالجة مريضه المستقبلي وهما: أومييرا وجون سوتكو. (لقد عاد الأخير لتوّه من سانت هيلين وعليه العودة ثانية للمثول أمام المحكمة)، وكذلك الاخصائيين الانكليز في الطب المداري. كما انتهز الفرصة أيضاً للتوقيع على عقد لطباعة كتاب باولو ماسكايني، عالم التشريح المرضي الشهير الذي أنهاه بعد وفاة المؤلف.

كان أعضاء «المجموعة الصغيرة» أثناء رحلتهم الطويلة إلى سانت هيلين شهوداً على مشهد رائع. عندما كانت سفينتهم «سنيب» في آخر محطة لها على الشاطىء الغربي لأفريقيا قبل دخولها إلى جنوب الأطلسي. كان أنطومارشي يقف على ظهر السفينة ويتأمل السود الذين يجذفون بزوارقهم نحو السفينة لنقل المواد الغذائية إليها، وكان أعضاء المجموعة مسرورين لرؤية المواد الغذائية الطازجة تصل إلى ظهر السفينة فقد كان القائد يحتفظ بأفضلها لتسليمه إلى سانت هيلين. في تلك الأثناء، سمع أنطومارشي محادثة بين أحد الزوارق وظهر السفينة:

ـ سأل أحد الأفارقة: إلى أين أنتم مسافرون؟

ـ إلى سانت هيلين.

ـ هل صحيح أنه هناك؟

ـ سأل القبطان: من تقصد؟

نظر إليه الأفريقي بازدراء، واقترب منا وكرر السؤال. أجبنا بأنه هناك. وقف، وهز رأسه وقال: «مستحيل». أخذ أحدنا ينظر إلى الآخر. فمن عساه يكون هذا المتوحش الذي يتحدث الانكليزية والفرنسية ولديه فكرة كبيرة عن نابليون.

ـ هل تعرفه؟

ـ منذ فترة طويلة.

ـ وهل رأيته؟

ـ في كل أيام مجده.

ـ غالباً؟

ـ في القاهرة، حفظها الله، في الصحراء، في أرض المعركة.

ـ وهل خدمت تحت قيادته؟

ـ في الكتيبة ٢١، كنت في بيرعنبر، في سمنهوط، في القصير، في قفطوس في كل مكان كانت فيه هذه الكتيبة اليقظة.

ـ وهل تتذكر الجنرال ديسكس؟

ـ وهل ينساه أحد من الذين شاركوا في حملة مصر العليا. كان شجاعاً وقوياً وكريماً. وقد خدمت معه طويلاً.

ـ بصفة جندي؟

ـ لم أكن كذلك في البداية. كنت أحد أبناء ملوك دارفور. أخذوني إلى مصر، أساءوا معاملتي وباعوني. وقعت بين يدي أحد مساعدي «العادل» (وهو الاسم الذي أعطاه المصريون لـ: ديسكس). لبست الزي الأوروبي، وكلفوني ببعض الأعمال الخدمية. كنت أقوم بذلك بعناية. كان السلطان مسروراً من حماستي، فجعلني من حاشيته. كنت جندياً، رامياً للقنابل اليدوية، وقد استهلكت نفسي في خدمة نابليون. كانت كلمة واحدة منه تنسينا تعبنا. كانت طلباتنا مؤمنة، وكنا لا نخشى شيئاً عندما نراه.

ـ هل قلت تحت قيادته؟

ـ جرحت في قفطوس، فأخلوني إلى الصعيد. كنت في مصر عندما ظهر مصطفى. اهتز الجيش، تبعت الحركة، فوجدت نفسي في أبو قير. أية دقة، وأية نظرة، وأية أعباء؟ من المستحيل أن يكون نابليون قد هزم، أن يكون في سانت هيلين».

شعر أنطومارشي بالاختناق بعد وصوله إلى سانت هيلين، من الحدود الضيقة في لونغوود هاوس. أما نابليون، وعلى الرغم من أنه كان ينفذ رأي طبيبه في القيام ببعض التمارين، إلا أنه كان يغضب من كل طبيب جديد. لكن هذا الشاب الكورسيكي المستقل الشخصية، لم يكن مؤهلاً للعيش في هذا

العالم الضيق من المنفيين. فقد استقرت الحياة اليومية في لونغـوود في رتابة شديدة، وعزلة كبيرة بعد أربع سنوات من المنفى. وأولئك الذين لم يتكيفوا، غادروا الجزيرة. ونادراً ما كان الضباط والخدم يخرجون، ولم يعـد لهم أي اتصال مع العالم الخارجي تقريباً. استمـرت الرتـابة اليـومية للحيـاة من خلال الوجود الصامت لسيدهم. كان نابليون خلال هذه الفترات من العزلة، يبقى أسابيع دون أن يوجه إليهم كلمة واحدة، إلا أن عليهم أن يكونوا تحت تصرفه، في كل ساعة من الليل والنهار.

أنطومارشي لم يكن مؤهلاً لهذا النمط من الحياة، عمره ثلاثون عاماً، أنيق وحيوي، وهو وإن كان قد جاء بمحض إرادته «لخدمة رجل «القرن» فإنه كان يرغب في أن يعيش حياته الخاصة أيضاً. كان يمضي الصباح في خدمة المريض الشهير، وبعد الظهر كان يمتطي جواداً ويذهب إلى جيمس تاون بحثاً عن الترفيه والتسلية، أي أنه كان غائباً في كل مـرة بعث نابليـون في طلبه. أنطومارشي كان بطبعه متمرداً على كل سلطة، ونادراً ما كان يتقيد بالمراسم الصارمة التي كان يحترمها كل من كان حول الامبراطور. فقد لاحظ مرافقوا نابليون باستهجان أن أنطومارشي كان يتوجـه بحديثـه إلى الامبراطـور بصيغة «أنتم» بدلاً من استخدام صيغـة الشخص الثالث كـأن يقول مثـلاً: «صاحب الجلالة». حاول لويس مارشان أن ينصح الطبيب: «كن جدياً مع الامبراطور عندما تجيب على أسئلته، وإياك أن تقول برتران ومونطولون بدون ألقابهما، بل قل الكونت مونطولون والمارشال الكبير. أن الامبـراطور فقط يتحـدث إليهما بدون ألقاب وليس من حقك أن تسمح لنفسك بأن تتحدث معهم مثله وبدون ألقاب.

بالرغم من هذه الملاحظات، فقد كان نابليون يتحدث مع أنطومارشي راغباً، تقريبـاً ، كما كان يتحدث مع أوميرا. سجل الطبيب على غرار سلفه، والذي يشغل ذات الغرفة في لونغـوود، محـادثة مـع الامبراطـور وملاحـظاته الشخصية عن حالة مريضه. سأله نابليون عن دراسة الطب وطلب منه مشاهدة اللوحات التشريحية للكتاب الذي نشره. وبعد فحصها، صرخ: «ساعتان من التشريح لرجل لم يتحمل رؤية جثة! آه يا دكتور، ألا ترى ذلك؟ ليس هناك

أفضل مما فعلت، وأفضل مما قلت. أنت أنسان ساحر. لقد أقنعتني بأن حبوب الـدواء نافعـة!» أثناء إحـدى الزيـارات الأولى للطبيب، لاحظ نابليون بـأن أنطومارشي ينظر إلى الساعة المنبه. قال له: «لِمَ تتفحص هذه الساعة الكبيرة؟ لقد كانت المنبه لدى فريد ريك الكبير، وأخذتهـا من بوتسـرام، وهذا كـل ما تستحقه بروسيا». ثم راح يتحدث عن الجزيرة التي ولد فيها هو وأنطومارشي، كورسيكا، حيث كان يعتقد بأنه سيرسل إليهـا أثناء منفـاه الأول. وقد وصف خططه لحكمها إن أتيح له ذلك: «فالمـلاحات بـالقرب من أجـاكسيو تصلح لزراعة القهوة، وقصب السكر. وقـد جرب ذلـك، وآمل النجـاح في ذلك. سأشجع الصناعة والتجارة والزراعة والعلوم والفنون. سوف أعطي التسهيلات للمواطنين، وأستدعي العائلات الأجنبية وأساعد على زيادة السكان. باختصار، سأجعل الجزيرة تكفي نفسها بنفسها، وتصبح مستقلة عن أسواق القارة. لدي خطة لإقامة التحصينات التي أفكر فيها منذ فترة طويلة والتي ستجـعل الجزيرة صعبـة المنال». ثم ينتقـل إلى موضـوع آخر ويتحـدث مع أنـطومارشي عن الإمساك المزمن لديه «ودواءه الفعال»، شوربة الملكة: التي تتألف من الحليب وصفار البيض والسكر. وقد أعطت هذه الشوربة مفعولاً شافياً وأراحتني».

وإذا كان أنطومارشي يضايقه أحياناً، فقد كان نابليون ينزعج صراحة من الراهبين اللذين أرسلهما عمه الكاردينال فيش. فقد كان يأمل بوجـود راهب يتناقش معه في قضايا الأديان، وبدلاً من ذلك، فقد بعث الكاردينال «ببعثـة تبشيرية ورجال دعاية، كما لو أنني كنت أطلب التوبة». فلم يكن يتحمل كلام القس العجوز الذي يبدو وكأنه جاء «إلى سانت هيلين للموت فيها». في أحد الأيام أخطأ القس الشاب إذ قال بأنه يعتقد بأن الاسكندر كان أعظم رجالات روما القديمة. كان ذلك أمراً شنيعاً. أمره نابليون بقراءة مائتا صفحة يومياً من التاريخ القديم لرولان، وأن يسجل الملاحظات ويقدمها له.

سمح نابليون للقسين بتحويل قاعة الطعام إلى مكان للصلاة صباح كل يوم أحد، وأصر بأن الصلاة لا تقام فيها إلا في المناسبات المعترف بها في الكونكوردا، التي فاوض البابا بشأنها قديماً. وعن غيظه من الكاردينال، روى لأنطومارشي إحدى ذكريات الطفولة: مرض راع عجوز كورسيكي، فاستدعى

القس فيش. وأخذه الحماس مـأخذه من القس، فراح يرتل التراتيل المعتادة، قاطعه المريض وقال له وقد طالت تراتيله: لم يعد أمامي سوى بضع دقائق من الحياة، أرغب في إمضائها مع أسرتي».

عندما كان نابليون يقوم بأعمال البستنة، يتوقف في حدود الساعة الحادية عشرة حيث يقدم له طعام الغداء الذي يشرب خلاله نصف زجاجة من نبيذه الخاص، وبعد استراحة قصيرة، كان يملي على مونطولون أو على مارشان.

لقد أنهى مؤلفه الكبير الذي أملاه على لاس كاسس خلال الأشهر الخمسة عشر الأولى من المنفى. واليوم، يرغب في تسجيل كل ما يخطر في باله مثل بعض الانتقادات للكتب التي يقرؤها.

فقد قال عن الألياذة مثلاً: «يعتبر الكتاب الثاني للألياذة عملاً رائعاً للشعر الملحمي. وهو يستحق هذه السمعة من حيث الأسلوب، لكنه لا يستحق ذلك من حيث المضمون. فالحصان الخشبي يمكن أن يكون تقليداً شعبياً، لكن هذا التقليد مضحك ولا يستحق هذا الشعر الملحمي. إننا لا نجد مثيلاً له في الإلياذة، حيث يكون كل شيء مطابق للحقيقة ولمجريات الحروب». ويعدد الأمور التي لا تصدق في أعمال فيرجيل ويقول: «يجب أن لا تسير الملحمة على هذا السياق. فلم يمش هوميروس بهذه الطريقة في الألياذة». وفي أحد الأيام، وجد نابليون بأن شخصية محمد، في تراجيديا فولتير، عمل يحتوي على الكثير من النواقص وتساءل: «هل يصعب نزع الأعمال التي لا تتصل بطبيعة الكتاب؟». ويجيب نابليون على تساؤله وهو يملي على مارشان، اقتراحاً طويلاً، لإعادة النظر في المسرحية، مشهداً، مشهداً. فمن بين التعديلات التي اقترحها، حذف الحادثتين التي يسمم خلالها محمد أعداءه، لأنه وجدها لا تناسب محمداً الذي يعتبره رجلاً عظيماً. وإذا أعيد النظر في المسرحية وفق ما يقترح، يمكن قراءة المسرحية «دون سخط في أعين الرجال المتنورين في القسطنطينية أو في باريس».

استمرت حرب نابليون ضد الحاكم، لكنها أخذت تتضاءل وكأن المنفيّ لم يعد يهتم بهذه الحرب الوضيعة. فعندما لم يكن نابليون يخرج إلى الحديقة ولا يركب حصانه، كان يلعب لعبة القط والفأر مع الضابط الانكليزي المكلف

«بمشاهدته مرتين في اليوم». وحيث أن القس الكورسيكي فنيالي بنفس طول الامبراطور وحجمه، فقد كان نابليون يستمتع بإلباسه لباساً يشبه لباسه ويطلب منه الجلوس بالقرب من النافذة. وعندما يقترب الضابط من النافذة، كان فنيالي يستدير فجأة للتعبير عن سخريته بالضابط الانكليزي.

كان نابليون يعبر أحياناً عن خشيته من أن يدس له السم. وقد عقد هودسون لو اجتماعاً لهذا الغرض مع المفوضين الأجانب. نقل مونشينو، المفوض الفرنسي هذه العبارات عن مونطولون: «إننا لا نعتقد بذلك، لكن الحديث عن الأمر لا يضر في شيء». أصبح مونطولون في النهاية، الشخص المهيمن ضمن المجموعة الصغيرة من المخلصين. وقد حل هذا المتملق، محل منافسه برتران، بصفته الناطق الرسمي في لونغوود. كان ينزل مراراً إلى جيمس تاون لزيارة أرستقراطي آخر هو الماركيز مونشينو. وعندما تعافى من مرض طويل ـ والصدفة العجيبة أن صحة نابليون كانت أثناءها جيدة بشكل كبير ـ قال له نابليون بأنه يفضل أن يتناول وجبات الطعام معه من الآن فصاعداً، وحيث أن أسرة مونطولون سافرت، فقد كرس كل وقته للامبراطور. ولم يتذمر من ذلك أبداً. أما برتران، فعلى العكس، كان يفضل الابتعاد عن لونغوود فقد طلب إجازة لمدة تسعة أشهر لمرافقة زوجته وأولاده إلى انكلترا، يعود بعدها إلى سانت هيلين. وفي حال سفر برتران، فإنه لن يبقى من بين الضباط الأربعة الذين طلبوا مشاركة نابليون في المنفى، سوى مونطولون. ذلك الرجل الذي التحق به بزمن متأخر.

نيويورك
شباط ١٩٧٠

غريغوري ترويبتسكوي رجل مولع بنابليون. واهتمامه ينصب بشكل محدد على عام ١٨١٢، مما يفسر التقليد العائلي والاهتمام الشخصي.

فقد ارتبطت أسرة ترويبتسكوي بالأحداث المأساوية لتلك الفترة. تحدث تولستوي، في روايته «الحرب والسلام» عن أسرة ترويبتسكوي تحت اسم مستعار دروبيتسكوي. كانت والدة تولستوي تنتمي إلى تلك الأسرة. عضو آخر من العائلة هو الأمير ألكسندر ترويبتسكوي كان مساعداً للقيصر ألكسندر الأول في تيليست عام ١٨٠٧ عندما وقع نابليون والقيصر حلفهما على طوافة، هذا الحلف الذي انتهى بعد خمس سنوات.

سيرج، عضو آخر من العائلة، نفي إلى سيبيريا، عام ١٨٢٥ بسبب مشاركته في تمرد كانون أول ضد القيصر نيقولا الأول.

وعلى غرار الكثيرين من الروس،فإن أهل ترويبتسكوي قد هربوا من بلادهم أثناء ثورة تشرين. ولد غريغوري في المغرب عام ١٩٣٠ وعاش في هذا البلد ثم في فرنسا، ثم سافر إلى الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية.

يحس غريغوري ترويبتسكوي بمشاعر متناقضة إزاء الامبراطور نابليون. بالطبع، كان نابليون عدو روسيا، إذ نشر جيشه الكبير، الحزن والموت في طريقه لكن نابليون حمل معه رياح التغيير أيضاً، رياح الثورة الفرنسية. وقد كانت هزيمته هزيمة لمبادىء الثورة الفرنسية كما كانت هزيمة لفرنسا.

اكتشف غريغوري في أحد الأيام في إحدى الصحف اليومية، في نيويورك مقالة عن تسميم نابليون. ودون أن يوليها أي اهتمام، قص المقالة

وصنفها ضمن وثائقه.

بعد عدة أعوام، وفي إحدى المبيعات بالمزاد، اشترى تروبيتسكوي مخطوطاً لنابليون. كانت صفحة مكتوبة في سانت هيلين، سطر عليها نابليون مخطط الفصل الثاني لروايته عن معركة يطاليا. وقد أضاف البائع إلى الصفحة المخطوطة، ضفيرة من عشرين شعرة من نابليون. وشرح لتروبيتسكوي بأنه قد اشترى المخطوطة والشعر في لندن أثناء إحدى عمليات البيع بالمزاد.

أثار تروبيتسكوي أولاً لون الشعرات البني ـ الأشقر؛ فقد تخيل دائماً أن شعر نابليون «أسود إيطالي». أعاد قراءة أحد الكتاب المفضلين لديه هو الشاعر والنصير دنيس دافيدوف (والذي يظهر في «الحرب والسلام» تحت اسم دنيسوف، الرجل يخلط في لفظ الجيم والزاي) وأعاد قراءة رواية لقاء تيليست حيث شاهد نابليون وجهاً لوجه؛ يقول دافيدوف «بأن شعر الامبراطور لم يكن أسود وإنما أشقر غامق».

تذكر تروبيتسكوي المقالة التي قرأها وقصها منذ أعوام. وبعد التقصي، عرف كاتب نظرية التسميم، اسمه ستين فورشوفود يعيش في غوتبورغ في السويد. كتب إليه واقترح عليه إرسال شعرات الضفيرة التي حصل عليها مؤخراً. فهو يعرف مصدرها. في عام ١٨٢٥، كان الكونت لاس كاسس يعيش في باسي، وقد اكتسب شهرة واسعة لدى نشر «مذكراته عن سانت هيلين». في ٢٢ تموز من ذلك العام، أرسل صفحة مخطوطة بخط نابليون وضفيرة الشعر الصغيرة إلى («و. فرازر) في دلهي». ذكر لاس كاسس بأن هذه الشعرات قد جمعها هو بنفسه فيلونغوود في ظروف ذكرها في مذكراته. وقد كان ذلك يوم ١٦ تشرين أول ١٨١٦، حيث قال: «في ساعة الحلاقة، كان سانتيني يقص شعر الامبراطور. كنت قريباً منه، إلى الوراء قليلاً، سقطت خصلة من الشعر على قدميّ. انحنيت لأخذها. سألني الامبراطور عن سبب انحنائي، فأجبت بأنه قد سقط مني شيء فأخذته. فرك أذني ضاحكاً، فقد عرف السبب».

تروبيتسكوي لا يعلم، ولا ذلك الذي باعه المخطوطة والشعرات، من يكون و. فرازر، كما لا يعرف لماذا أرسل لاس كاسس إليه هذه الهدية. كما

يجهل أين كانت خصلة الشعر بعد إرسالها إلى دلهي وحتى عودتها إلى لندن بعد أكثر من قرن من الزمن. بناء على طلب ستين فورشوفود أرسل ترويتسكوي ست شعرات ـ واحدة طويلة وخمس قصار ـ مباشرة إلى هاملتون سميث في غلاسكو.

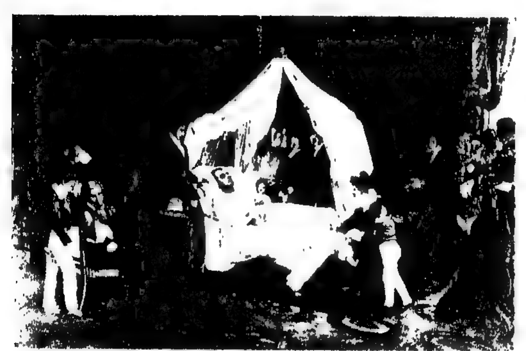
اليوم يقرأ ترويتسكوي رسالة فورشوفود التي ينقل فيها نتائج تحاليل هذه الشعرات. الشعرة الطويلة التي تم تحليلها مقطعياً، تظهر محتوى بالزرنيخ من ١١,١ إلى ١٨,١ بالمليون. والشعرات القصيرة يتراوح المحتوى فيها من ٩,٢ إلى ٣٠,٤. تقول رسالة فورشوفود:

«بالطبع، نحن لا نعرف مسافة قطع الشعرات عن جلد الرأس ومن المحتمل أن يكون مصدر الشعرات منطقة الرقبة وأن تكون قد اقتطعت قريبة من الجذر. وإذا كان الأمر كذلك، فإنه يدل على أن نابليون كان يتناول كميات كبيرة من الزرنيخ خلال الفترة ما بين ٣١ تموز و ١ تشرين أول ١٨١٦. وهذا يتفق تماماً مع ما نعرفه عن حالته الصحية خلال تلك الفترة. منذ منتصف نيسان ١٨١٦، لم يعد يركب نابليون الحصان لقطع مسافات طويلة. كانت ساقاه لا تقوى على حمله. وفي تلك الفترة، كان مرافقوه يشعرون بأنه قد تغير كثيراً. ومن خلال الصور المختلفة لتلك الفترة، يمكن أن نلاحظ كيف أن نابليون خلال أعوام ١٨١٦، ١٨١٧، ١٨١٨ بدأ يشبه صورة شخص مدمن على الخمر، أخذ بالبدانة، بالرغم من أنه كان يشرب القليل من النبيذ ولا يشرب الكحول إطلاقاً. خلال عدة أيام من شهر آب ومن ٩ إلى ١٣ أيلول تدهورت حالته الصحية.

إلا أنه ليس من المستحيل أن تكون الشعرات التي أرسلتها إلينا قد قصت على مسافة عشر سنتيمترات من الجلد. وفي هذه الحالة، فإنها تشير إلى تناول الزرنيخ منذ بداية كانون ثاني ١٨١٦ وحتى بداية آذار من نفس العام. وبالرغم من أن ذلك ليس محتملاً، فإن نتائج التحاليل لا تتناقض مع ما نعرفه عن تطور مرض نابليون.

أخذ نابليون بالبدانة، مع تناول الزرنيخ. مما يعني أنه بات «مدمناً على

الزرنيخ» إلى حد ما. بمعنى أنه أصبح بإمكانه تناول كمية كبيرة من الزرنيخ دون أن يقع مريضاً على الفور. بعد فترة، كانت تظهر أعراض التسمم، على أية حال، لقد قصت الشعرات التي أرسلتها إلينا، على ما يبدو قريباً من الجذر. فقد كان سانتيني مكلفاً بإعطاء مظهر أنيق للامبراطور لا تغيير حلاقته المعتادة بتقصير الشعر الذي يأخذ شكل التاج. وبذلك تم تقديم الدليل القاطع على أن نابليون كان يتناول السم منذ عام ١٨١٦».



نابليون على سرير الموت في أيار ١٨٢١

ساندي باي ـ سانت هيلين
تشرين أول ١٨٢٠

السير ويليام دوفتون، متقاعد من شركة الهند، في السابعة والستين من عمره، عضو في مجلس جزيرة سانت هيلين، وأحد المواطنين الأكثر احتراماً في الجزيرة، تقع مزرعته في طرف ساندي باي ، الوادي الأخضر الذي ينحدر نحو البحر من طرف الجزيرة المقابل لمدينة جيمس تاون. ترتفع قمة ديان الرهيبة فوق هذا الوادي الأخضر. الفصل ربيع والنهار يبدو جميلاً والسماء صافية.

بينما كان السير ويليام يتنزه في حديقته، لاح في الأفق زوار غير متوقعين يتقدمون على الطريق الجبلي الذي يلتف حول مسكنه ليصل إلى وسط الجزيرة وسهل لونغوود. تعرف على الرجل القصير، ذي المعطف الأخضر الذي يحمل قرنين، وهويتقدم في وسط المجموعة، إنه نابليون.

تقدم الكونت مونطولون، رفاقه، حتى وصل بالقرب من السير ويليام ليشرح له بأنهم خرجوا، صباح اليوم، من لونغوود، وأن الحاكم قد خفف الأنظمة الصارمة التي كانت تحد من حرية حركة الامبراطور، واستأذنه بالدخول إلى مزرعته للاستراحة قليلاً.

دعا السير ويليام المجموعة للدخول. ترجل نابليون عن حصانه ودخل برفقة برتران وأربعة من الخدم. لاحظ ويليام أن نابليون كان يستند بتثاقل، على ذراع برتران، وهو يصعد الدرج. جلس نابليون في غرفة الجلوس، وأخذ يتعرف على مضيفه وأسرته، المؤلفة من ابنته الصغيرة والسيدة غرين تري وأحفاده الثلاثة، وذلك من خلال الترجمة التي كان يقوم بها برتران. أشار

نابليون إلى إحدى الفتيات الصغيرات ذات السبعة أعوام للاقتراب منه، ثم سألها عن اسمها وعمرها وقدم لها قطعة حلوى من العلبة التي كان يحملها دائماً. دعاهم السير ويليام لمشاركته الفطور، إلا أن المنفيين عرضوا عليه وأسرته تناول الطعام الذي حملوه معهم من لونغوود في قفف خاصة.

وضع خدم نابليوم طعام الإفطار في الحديقة في ظل أشجار الأرز والسرو. أراد الامبراطور كعادته، أن يداعب السير ويليام ومشى معه عدة خطوات وهو ممسك بذراعه. دهش السير ويليام بالوجبة الفاخرة التي يحملها الفرنسيون: الفطائر، اللحوم الباردة، الفروج البارد، طيور بالكاري، جامبون، قهوة، تمور، فستق، برتقال، سلطة رائعة» حسبما سجله فيما بعد السير و يليام في مذكراته عن هذه الوجبة الرائعة والكمية الوافرة. طلب نابليون تقديم الشامبانياوشرب نخب الأسرة كلها. بالمقابل، قدمت السيدة غرين تري شراب البرتقال المحضر من قبلها. بعد الطعام، تحدث نابليون مع أسرة دوفتون في مواضيعه المفضلة وفي عادات الانكليز في تناول المشروبات. سأل نابليون السير ويليام:

ـ هل تشربون حتى الثمالة؟

ـ أشرب كأساً من الخمر من حين لآخر.

ثم توجه إلى السيدة غرين تري بالسؤال:

ـ كم مرة يقع زوجك ثملاً؟ مرة في الأسبوع؟

اعترضت السيدة غرين تري قائلة:

ـ كلا، على الإطلاق.

ـ إذن، مرة كل أسبوعين؟

ـ كلا.

ـ مرة في الشهر؟

ـ كلا، منذ سنوات لم أشاهده يشرب.

ـ أبدى نابليون اندهاشه، وغيّر موضوع الحديث.

غادرت المجموعة الصغيرة ساندي بالي بعد تناول الطعام بقليل. كتب السير ويليام فيما بعد بمذكراته: «وعلى ما يبدو، فإنه بالرغم من شحوب

الجنرال بونابرت» فإنه ما زال في حالة صحية جيدة. كان بديناً مدوراً مثل خنزير صيني».

عندما وصل الخيالة إلى هوتس غيث، في طرف سهل لونغوود حيث ينتظرهم السايس، شعر نابليون فجأة بتعب شديد، وبالحاجة للنزول عن الحصان وركوب العربة. وعندما وصل إلى لونغوود هاوس كان منهك القوى، وأحس بصداع شديد. بعد عدة أيام أغمي عليه وهو خارج من الحمام، وفي الأيام التالية عادت أعراض المرض بالظهور وهي خفقان القلب، النبض ضعيف، وغير منتظم. آلام وبرودة في الساقين، آلام بين الأضلاع وفي الكتفين والظهر، سعال جاف، آلام أسنان ولسان ثقيل، عطش شديد، طفح على الجلد واللون أصفر، قشعريرة، صمم، حساسية للضوء، صعوبة في التنفس، غثيان. . . .



د. هاملتون سميث الذي أكدت تجاربه فرضية د. فورشوفود

الدكتور فورشوفود الذي أثبت تسميم نابليون

مونت غبريل ـ كندا
أيلول ١٩٧٤

بن وايدر مولع بأمرين اثنين في الحياة. الأمر الأول المعمل الذي أسسه في مونتريال والذي يصنع تجهزات رياضية، والأمر الثاني نابليون. فهذه الشخصية تسحره منذ طفولته، فيلتهم كل المؤلفات التي كتبت عنه فور صدورها. ومن خلال مهنته، انكب بن وايدر مطولاً على القضايا الطبية والطبية الرديفة. الظروف التي أدت إلى مرض ووفاة نابليون أثارت اهتمامه باستمرار. كان نابليون قبل وصوله إلى سانت هيلين ذو بنية قوية. فهو رجل نشيط معتدل في طعامه وكان يتحاشى تناول الأدوية التي يصفها له الأطباء لاعتقاده بضررها في أغلب الأحيان. فلماذا ساءت صحته في المنفى مع أنه لم يتجاوز الخمسين من عمره بعد؟ تشريح الجثة والفحوص الدقيقة في الأشهر الأخيرة من حياته لم تتح له الإجابة على هذا التساؤل بشكل مقنع. فكل الفرضيات التي قرأها وايدر حول الموضوع لم ترضه تماماً. لكن الالتزامات المهنية لم تترك له سوى القليل من الوقت لتكريسه لدراسة معمقة حول ظروف وفاة الامبراطور إلا بعد تعرفه على ستين فورشوفود حيث أخذ هذا السؤال يحتل مكاناً هاماً في حياته.

بن وايدر، هو رئيس جمعية ذكرى نابليون الكندية، يلتقي فيها بصديق طبيب، يعلم الاهتمام المدني الذي يحمله للمسائل الطبية والطبية الرديفة. في أحد الأيام أرسل هذا الطبيب إلى وايدر بعض الصفحات المنشورة في مجلة طبية تتحدث عن فرضية التسمم. وفي أسفل الصفحة كان هناك توقيع(ستين فورشوفود). هذه الفرضية هي الوحيدة التي تفسر بشكل مقنع الوفاة المبكرة للرجل العظيم. لذا قرر وايدر أن يتصل بالباحث السويدي. أخذ الإثنان يتراسلان طيلة عدة سنوات قبل أن يلتقيا. فالكندي الذي يسافر كثيراً،

تمكن خلال إحدى سفراته من التأكد من الآراء المختلفة حول تسمم الامبراطور ضمن جمعيات ذكرى نابليون في أوروبا وأميركا الشمالية. وقد أتيحت له الفرصة لزيارة موقعة واترلو برفقة البرفسور دافيد شاندلير من الأكاديمية الملكية العسكرية في سانت هوست. يعتبر هذا الأستاذ قمة عالمية في مسألة تاريخ نابليون. وقد أظهر اهتماماً كبيراً بأعمال فورشوفود. بالمقابل فإن الأخصائيين في الموضوع في باريس كانوا في موقع الدفاع. فلهجتهم وإن كانت معتدلة أقرب إلى الوفاق أثناء الأحاديث الخاصة إلا أنهم كانوا يقفون في الأحاديث العامة جبهة موحدة في وجه هذا السويدي الذي قلب الآراء القائمة. وهذا الموقف سماه فورشوفود «بالحصار الفرنسي» وأدركه فيما بعد وايدر. فالدكتور غي غودلوفسكي عضو جمعية ذكرى نابليون الفرنسية الذي التقى به الكندي مطولاً أكد له ذات يوم وعن سوء نية، بأن الزرنيخ المكتشف في شعر الامبراطور لا يدل على شيء: إذ يمكن أن يأتي من الأرض وأن يتراكم في الجسم منذ دفنه. . . هذا علماً بأن المقالات التي كتبها فورشوفود تحدد بوضوح بأن الشعرات قد تم أخذها قبل دفنه وفي ظروف لا يجهلها أي أخصائي في تاريخ نابليون، والحجج التي كانت تعرض ضد أفكار فورشوفود لم تكن كافية تماماً. لذا فإن وايدر ذو الطبيعة المقاتلة، قرر أن يدعم الباحث السويدي.

التقى وايدر مع فورشوفود للمرة الأولى في مدينة لودي الايطالية الصغيرة وهي التي شهدت الانتصارات الأولى لبونابرت. تنزه الاثنان على الجسر الذي جمع عليه الجنرال الشاب بونابرت قواته المنهزمة ليقودها إلى نصر كبير. في المساء طلب الاثنان في المطعم وجبة دجاج «مارنغو» وهي الوجبة التي اخترعها طباخ نابليون أثناء المعركة التي تحمل نفس الاسم ومكونة من بعض المواد التي كانت متوفرة لديه. أحس وايدر فوراً بالتعاطف مع هذا الرجل السبعيني الطويل المنتصب القامة، المتوج بشعر كثيف فضي. طريقته في الكلام ودية ومباشرة وتتسم في أغلب الأحيان بالنكتة اللطيفة التي تجعل الاتصال معه سهلاً. لم يتأخر الاثنان في طرح الموضوع الأثير لقلبيهما. رأى وايدر أنه من الأفضل نشر أعمال فورشوفود خارج إطار الحلقة المحدودة من الأخصائيين في تاريخ نابليون. فورشوفود الحالم وجد بأن ذلك يحقق آخر أمنيات الامبراطور وهي:

الكشف عن الأسباب الحقيقية لوفاته. إلا أن وايدر قبل أن ينضم إلى جانب السويدي، رغب في أن يتأكد بعمق من عدد من النقاط التي كانت ما تزال غامضة لديه. أمضى الرجلان أسبوعاً كاملاً معاً يتفحصان المشروع من جميع جوانبه، برأس مرتاح.

بعد أن نجح الاثنان في التحرر من التزاماتهم المهنية لعدة أيام التقيا ثانية في فندق مونت غابريل في مقاطعة لورنتير على بعد حوالي ١٠٠ كلم شمال مونتريال. في تلك الفترة الوسيطة بين فصل الصيف وفصل الرياضات الشتوية يكون الفندق مقفراً، وتكثر في أيلول الألوان الذهبية والحمراء، وتكون الريح منعشة، والأيام مشمسة لطيفة. في الصباح أثناء النزهة في الغابات ذات الألوان المتباينة المتعددة والنحاسية، كان الرجلان يتناقشان طيلة ساعات عديدةبجميع جوانب الموضوع الذي يهمهم. وكان هذا الاستعراض يستمر حتى نهاية العشاء. بعد تناول القهوة، اقترح وايدر الذي يفكر في رفيقه المتقدم في السن، الاستراحة قليلاً. لكن فورشوفود هز رأسه وقال بالفرنسية: إن العمل هو الحرية. ابتسم وايدر لهذه الملاحظة التي كانت إحدى صفات نابليون. ملأ فورشوفود غليونه وعاد للعمل ثانية.

قام الاثنان أولاً بتفحص جميع النقاط التي ما زال وايدر يطرح الأسئلة حولها. إذا لم يكن يرغب في تحمل مسؤولية الحديث علانية عن التسمم، إلا إذا اقتنع بالبرهان الذي يقدمه فورشوفود. أخرج دفتر ملاحظاته وسأل:

ـ على مايبدوفإن السم قد دس لنابليون. كيف تفسر بأن أحداً لم يخطر في ذهنه موضوع الزرنيخ؟

ـ لقد طرحت هذا السؤال على هنري غريغون، رئيس مختبر السموم، لدى قيادة الشرطة في باريس، ولديه خبرة طويلة في هذا النوع من المسائل فهو يرى أن الأطباء لم يفكروا بهذا الاحتمال إلا بوقت متأخر، ومن الصحيح القول بأن الأعراض الناجمة عن تناول الزرنيخ تشبه أعراض عدة أمراض شائعة. والأطباء مهيئون عادة لتشخيص الأمراض. وفكرة التسمم لا تخطر لهم إلا في المرحلة الخطيرة.

لكن أنطومارشي كان طبيب تشريح مرضي وخبير يعلم بهذا النوع من

الأعراض، وحوادث التسمم بالزرنيخ كانت كثيرة في تلك الفترة، كيف ترون أنه لم يفكر في الأمر؟

ـ الواقع أن الأمر مدهش. لكن الأعراض الناجمة عن تسمم حاد لا تشبه هاتيك الناجمة عن تسمم مزمن. فقد قتل نابليون على نار هادئة، والأعراض الناجمة عن التسمم التدريجي كانت تحير أطباء تلك الأيام. والواقع أن هذا التناذر لم يشخص إلا عام ١٩٣٠ بعد نشر دراسة ألمانية. لذا فإنه لا يمكن لوم أنطومارشي ولا أوميرا لعجزهما عن وضع التشخيص.

ـ وما هو موقف رجال العلم والمؤرخين المعاصرين؟

ـ لا شيء كان يسمح بالتفكير في حدوث التسمم. فقد توجب الانتظار للحصول على الدليل الملموس أن يقوم هاملتون سميث بتصميم طريقته في التحليل. مذكرات برتران وعلى الأخص مذكرات مارشان الغنية بالتفاصيل عن الأيام الأخيرة للامبراطور لم تكن قد نشرت وحيث أنه لم تكن تتوفر جميع العناصر، فإن أحداً لم يكن يفكر بالتسمم بالزرنيخ. لقد مضت مائة وأربعون سنة شهدت ولادة فرضيات عديدة حول الموضوع، ولكل أخصائي وتلامذته العديدون، رأيهم المحدد حول سبب وفاة نابليون يتمسكون به بشدة.

ـ أضاف فورشوفود بأن المتشددين في إنكار قيمة أعمالي، هم أولئك الذين يخشون أن أضع قدماً في مملكتهم. فالمؤرخون يدافعون عن مؤلفاتهم. وكما تعلم فليس أفضل من القطة للدفاع عن صغارها.

وبعد أن وضع غليونه، أضاف فورشوفود:

ـ إنني أقصد المؤرخين الفرنسيين، فلم يهاجمني أي خبير في قضايا السموم أو طبيب تشريح، أو عالم في قضايا الإجرام أو خبير في الطب الشرعي. وهم عديدون في تأييدي. لكن التاريخ ملك للمؤرخين وليس لرجال العلم فالأخصائيون يمقتون الاعتقاد بأن بطلهم الوطني قد قتل على يد أحد المقربين إليه هذا أمر يصعب فهمه.

ـ أضاف وايدر: ربما لا يكون الأمر كذلك لو أن أعمالك أشارت بالاتهام إلى هودسون لو.

عندما سأكون أول سويدي، رئيساً لجمعية ذكرى نابليون الفرنسية. ذكر وايدر بعدها أنه من بين الأوساط المعنية من يعزو سبب وجود السم في شعر الامبراطور إلى أسباب عديدة تنفي جريمة القتل. فالبعض يعزو السبب إلى كريم الشعر الذي كان يستخدمه نابليون، والبعض الآخر إلى عدوى بالزرنيخ ناجمة عن الستائر في لونغوود وآخرون يعيدون السبب إلى دواء مقوي يحتوي على الزرنيخ كان يتناوله نابليون. إن أياً من هذه النظريات لا تستقيم أمام التفكير المعمق في رأي فورشوفود. فالزرنيخ الناجم عن كريم الشعر يوضع بشكل متساو في الشعر، في حين أن التحليل قد كشف توصفاً، غير منتظم، بشكل كبير. ونفس الحجة بخصوص الستائر في لونغوود فضلاً عن أنه كان من الممكن أن يصاب الأخرون بنفس الاضطرابات التي كان يحسها نابليون بالنسبة لهذه الحالة. وأخيراً، فإن الدواء ذو الأساس الزرنيخي لم يكن يستخدم في فرنسا قبل عام ١٨٦٠، وعلى أية حال فإن نابليون كان يرفض بعناد، تناول أي نوع من الدواء.

وهنا انتقل وايدر إلى موضوع آخر:

ـ لقد شكك معارضون آخرون في أصل الشعر المحلل. كيف يمكن التأكد بأن ضفيرات الشعركانت فعلاً للامبراطور؟

ـ والواقع إن فورشوفود لم يواجه هذا الاعتراض للمرة الأولى.

فقد أجاب:

ـ لنحدد أولاً بأن جميع الشعرات المحللة قد جاءت من نفس الشخص وحده. فلدينا البرهان العلمي بأن الزرنيخ ينتشر في جسم الشعرة بشكل يختلف من شخص لآخر كما تختلف بصمات اليد إذن، فخصلات الشعر التي نمتلكها تعود لنفس الشخص الذي تسمم بالزرنيخ. فضلاً عن ذلك يمكن أن نضيف بأن هذه الشعرات بنية مع بريق أحمر، بشكل استثنائي ناعم وحريري كشعر الامبراطور. ويمكننا الاستمرار في التساؤل، فهل هي فعلاً لنابليون؟ لنفحص من الذي أعطانا هذه العينات المختلفة: لاشوك من باريس، فري من سويسرا، ليدي ميبل من أستراليا، ماكولي من انكلترا، ترويبتسكوي من نيويورك، فهل يمكن لجميع هذه الشعرات التي يدعى خطأ بأنها تعود للامبراطور وتعود لنفس الشخص

أن تأتي من أناس غرباء عن بعضهم البعض ينتشرون في أنحاء العالم تقريباً؟ بالطبع هذا أمر مستحيل إن لم يكن هناك تواطؤ مقصود ويمكن التساؤل عن سبب هذا التواطؤ ـ إن وجد ـ قد يكون أحد هؤلاء المتآمرين. الكومندان لاشوك من باريس، الذي انضم إلى «الحصار الفرنسي». ولكن ما هي الأسباب الخفية لدى لاشوك، وبالاتفاق مع جميع هؤلاء أن يعطونا شعراً كاذباً لا يمت للامبراطور؟ إن هذا المسمى أقل ما يقال فيه بأنه لا معنى لـه يـدعم نظرية يرفضها هو، وهذا غير معقول. لنفحص الآن، المصدر، كما يقال في الأعمال الفنية. تشير الوثائق التاريخية إلى وجود كل ضفيرة من هذه الضفائر قبل أن يظهر مالكوها الحاليون أمامنا. ففي حالتين تم تقديم الشعر من قبل الأحفاد المباشرين للأقرباء الذين تلقوا هذا الشعر من الامبراطور وهما: بيتسي بالكومب والأميرال مالكولم. ضيرات الشعر لم تخرج إطلاقاً خارج إطار أسرهم. وثلاث ضفيرات لم تغير مـالكها سـوى مرة واحـدة قبل أن تصلنـا. والأخيرة، أي ضفيرة ترويبتسكوي قد وصلتنا مرفقة بصفحة صحيحة مكتوبة بيد نابليون. ونحن نعلم بأن لاس كاسس قد جمع خصلة الشعر في سانت هيلين، وأن هذه الشعرات هي بكل تأكيد من شعر الامبراطور. وهناك فرضية أخرى غـريبة، لكننـا لن نتوقف في منتصف الـطريق. باعتبـار أن خصلات الشعـر صحيحة، لنفترض بـأن التحاليـل خاطئـة، لقد تم العمـل من قبل هـاملتون سميث، وهو أخصائي شهير، ومن قبل مخابر هارول المعروفة عالمياً بجديتها، فأية مصلحة لهم في تزوير النتائج؟ لا شيء بالطبع، إلا لإرضاء سويدي مجهول ومخبول نوعاً ما! وهذا بالطبع غير معقول.

لاحظ فورشوفود أن وايدر ما زال متردداً، فأضاف بعد صمت قصير:

ـ يمكنك يا عزيزي وايدر أن تفكر بأن هذا السويدي قد استبدل بنفسه شعرات الامبراطور بشعرات أخرى كي يتوصل لهذه النتائج... ويمكنك أن تتخيل جميع الاحتمالات الممكنة. إلا أنه لا يمكنني عملياً أن أفعل ذلك. فإذا تركنا جانباً شعرات مارشان، ونوفيراز فإن العينات الأخرى قد أرسلت مباشرة إلى هاملتون سميث في غـلاسكو دون أن تمـر من خلالي. ولم يكن ذلـك مقصوداً، فقد لاحظت اليوم بأن الصدفة قد عملت الكثير من الأشياء.

أعـرب بعض المتشككين لـوايـدر عن شكـوكهم بخصـوص الـطريقـة المستخدمة في قتل نابليون.

ـ لماذا سمم نابليون على نار هادئة؟ فإعطاؤه كمية كبيرة كان بإمكانها أن تخلصهم منه بسرعة، وكل يوم يمر كان حظاً إضافياً لنابليون للهرب والعودة إلى فرنسا لقلب حكم البوربون.

ـ لقد طرح علي هذا السؤال سابقاً أيضاً. فما الذي يخشاه البوربـون في الحقيقة؟ إنهم بالطبع يخشـون نابليـون بالـذات.. كما يخشـون إنبعاث الحركة البونابرتية التي كانت تستفيد دائماً من التعاطف الكبير داخل الشعب. وأنت تعلم أنه أثناء حياة نابليون، كان بعض المعارضين للبوربون يذكرون اسم أيفلون أكثر من اسم نابليون. وفي تموز ١٨٣٠ تم التفكير جدياً بإعطاء التاج إلى إيفلون. ونحن نعلم أنه في عام ١٨٥٢ لدى وصول لويس نابليـون إلى السلطة، فإن البونابرتيين قد رجعوا إلى الحكم.

يمكنك أن تتخيل بأن كونت أرتواز قد أمر بقتل سريع لنابليون. وهنـا سوف يشـك بالسم وسوف تشرح الجثة التي تكشف عن وجود الزرنيخ، وسوف ينتشر الخبر في فرنسا بسرعة، والبوربون يعلمون جيداً مدى أهمية الإشاعات التي سوف تثار، وسوف تقوم انتفاضات شعبية يقودها رجال خبيـرون وسوف تتكاثر هذه الحركات مما يؤدي إلى انهيار حكم البوربون وقد يكلفهم أيضـاً حياتهم. هل تتذكر ما حدث بعد واترلو؟ فالبروسوي بودشير وآخرون، أرادوا إعدام نابليون رمياً بالرصاص، لكن الملك لويس الثامن عشر لم يوافق على ذلك، ومن باب الحذر يفضل أن يبدو الموت وكأنه طبيعي، وتلك ميزة التسمم التدريجي. هذا عدا عن أن الشكوى التي كان يتألم منها الامبراطور حسب هذه الطريقة كانت تمنعه من محاولة القيام بالهرب. أنني مقتنع بأن نابليون لو كان بكامل صحته لنجح في مغادرة الجزيرة، وعلينا أن نأخذ في الاعتبار هواجس القـاتل نفسـه. لنتخيل ردة فعـل المخلصين لـلامبـراطـور في حـال التسمم المفاجىء. فالقاتل سوف يقطع إرباً إرباً.

تأخر الوقت وقام الرجلان للذهاب إلى النوم وسوف يعودان في صبيحة

اليوم التالي لتناول الموضوع. خرج الإثنان لنزهة في الغابة. وكالعادة كان فورشوفود في المقدمة، يمشي بخطوات ثابتة وكأنه يخشى أن يتأخر عن ركوب القطار. توقف الاثنان على مرتفع يشرف على الوادي الذي انتشرت فيه شمس خريفية دافئة. جلس فورشوفود على صخرة كبيرة وراح يملأ غليونه فيما أخرج وايدر دفتر ملاحظاته.

ـ قال له: هل أنت مستعد للتداول بالمسألة التي رفضت الإجابة عنها خلال لقائنا الأول في لودي؟ بقي فورشوفود صامتاً بعض الوقت قبل أن يعلن:

ـ إنه من الصعب إتهام شخص حتى ولو كان ميتاً منذ فترة طويلة، بقتل أعظم رجل في الفترة المعاصرة. لا أريد أن أشير إلى القاتل قبل أن أكون متأكداً من هويته. لقد حان الوقت لنستعرض قائمة المشتبه بهم وأعتقد أنه بعد استكمال هذا الاستعراض فإنك سوف تكون مقتنعاً مثلي.

لنستعرض الأشخاص الحاضرين أثناء مأساة سانت هيلين. أولاً، يمكن استبعاد أولئك الذين لم يكونوا يعيشون فعلاً في لونغوود إذ لا يمكنهم تسميم نابليون دون أن يصيبوا كل من كان في المكان. وهذا يستبعد جميع الانكليز وحتى لو أغضب ذلك الفرنسيين. بعدها يمكن استبعاد أولئك الذين لم يكونوا حاضرين في الجزيرة طيلة فترة النفي، فقد قام الدليل بأن نابليون قد تناول السم منذ بداية فترة إقامته، في لونغوود حتى نهايتها وذلك دون انقطاع. وعليه يمكن تبرئة أولئك الذين غادروا الجزيرة أي لاس كاسس وغورغو وأومييرا وألبين مونطولون، وكذلك أولئك الذين ماتوا مثل سيبرياني، وأولئك الذين وصلوا عام ١٨١٩ مثل أنطومارشي. لم يعد هناك إذن، سوى ضابطين اثنين هما مونطولون وبرتران وحوالي عشرة من الخدم.

قال فورشوفود: يمكننا استبعاد برتران فوراً. فهو لم يكن مرتاحاً في سانت هيلين، وكانت لديه أسباب كافية للغضب من المعاملة السيئة التي كان يلقاها من نابليون ولا يمكن دس السم لشخص على فترة طويلة بسبب لحظة غضب. وعلى أية حال فإن برتران لم تكن لديه الإمكانية المادية لذلك. فلم يكن يعيش في لونغوود، ولم يكن يهتم في قضايا التموين.

ـ قال وايدر وماذا عن بييرون، رئيس الطباخين الذي بقي في لونغوود منذ بداية النفي وحتى نهايته.

ـ بدون شك فقد كان بإمكانه دس السم لنابليون، لكنه لم يكن يستطيع ذلك دون أن يصيب الآخرين. بييرون كان يقوم بأعمال الطبخ لكن الوجبات كانت تقدم من قبل الخدم... ولم يكن نابليون يقبل طعاماً من أشخاص سواهم. لم يكن يعرف بييرون أية قطعة مما حضره سوف تكون من نصيب نابليون، ونظراً لتواتر تناول الزرنيخ الذي كشفته التحاليل، فإنه لا يمكن الأخذ في الحسبان المرات النادرة التي تناول فيها الامبراطور، لوحده وجبات خاصة.

وماذا عن الخدم الثلاث الآخرين... لويس مارشان وسان دنيس الملقب علي والسويسري نوفيراز؟ لقد كان نوفيراز طيلة الوقت ممدداً في السرير مريضاً عندما كان نابليون قد تناول السم. من ناحية أخرى، فإن نوفيراز وسان دنيس لم يقوما بتقديم وجبات الطعام إلا نادراً ولا يمكنهما بالتالي أن يكونا متهمين.

لم يعد إذاً سوى مشبوهين اثنين: الضابط مونطولون والخادم الأول مارشان.

ـ صاح وايدر، يا لسخرية القدر؟ الاثنان كانا أكثر الناس إخلاصاً للامبراطور.

ـ قال فورشوفود: لا شيء يدهش في ذلك. فالأكثر إخلاصاً كان الأكثر قرباً من نابليون كي يتمكن من القيام بالفعلة الشنيعة.

راح السويدي يمشي جيئة وذهاباً، أمام وايدر الجالس على الصخرة الكبيرة.

لنفحص ماضي كل من هذين المشبوهين الاثنين، ولنتساءل عن دوافع سفرهما إلى سانت هيلين. أولاً لويس مارشان: لقد أمضى مارشان عشر سنوات في خدمة نابليون أي كل حياته وهو في سن الرشد. كانت أمه تخدم في القصر، ولم يكن يرتبط لا هو ولا أسرته، بأية طريقة بالملكيين. ولم يفعل مارشان شيئاً آخر في حياته، سوى خدمة نابليون. فقد كان إلى جانبه قبل جزيرة

إلبا، وأثناء فترة المائة يوم. كانت أمه في ڤيينا تعتني بـ «إيڤلون». إذاً لقد تبع نابليون إلى سانت هيلين وفي ذلك أمر طبيعي.

توقف فورشوفود وغليونه موجه إلى محدثه، وقال:

والآن مونطولون: إن وضعه مختلف تماماً. فالسؤال الأول يظهر سلسلة من التناقضات: لماذا جاء هذا الطفل وهو من أسرة أرستقراطية فرنسية قديمة إلى سانت هيلين؟ بالطبع كان ضابطاً، لكن بالرغم من إدعائه الدائم، فإنه لم يتميز على أرض المعركة ونابليون يكاد لا يعرفه. مونطولون لم يكن لديه أي سبب ليعرفه الامبراطور الذي كان يظهر له الاحتقار لسبب ماضيه العسكري. فقد رفض ترفيعه وكذلك السماح له بالزواج من ألبين. وحيث أنه لم يستمع لنابليون فقد عزله. وبعد خلع الامبراطور عن العرش ونفيه إلى جزيرة إلبا، بحث مونطولون عن حظوة لدى البوربون، وقد كانت لديه صداقات قوية في الأوساط الملكية. فوالد زوجته الكونت سيموند فيل، كان أحد المقربين لأسرة أرتواز. وعليه، فإنه أثناء التصحيح الأول رفع مونطولون إلى رتبة جنرال. وفي تلك الفترة حصلت حادثة ذات أهمية كبيرة، فقد اتهم بسرقة ستة آلاف فرنك من رواتب الجنود الموجودين تحت إمرته. وفي ذلك اتهام خطير يمكن أن يؤدي به إلى السجن لسنوات طوال. لكن مونطولون لم يقدم إلى المحكمة العسكرية إطلاقاً. وبعد عودة نابليون من جزيرة إلبا يقول مونطولون في مذكراته بأنه قد التحق بالامبراطور فوراً لكن لا شيء يبرهن على ذلك. فهو لم يشارك في معركة بلجيكا ولم يكن في واترلو في حين كان نابليون في أشد الحاجة للرجال.

عند هذه النقطة من البرهان، راح فورشوفود يمشي جيئة وذهاباً.

ـ الواقع... إن مونطولون لم يظهر في حاشية نابليون إلا بعد واترلو. في قصر الأليزيه وبلباس حاجب الامبراطور، نعم، بعد واترلو، وعندما انتهت ملحمة نابليون! لماذا التحق هذا الشاب الارستقراطي المحب للحياة والمتعة فجأة، بقضية خاسرة؟ كان يشاهد وهو يدور حول نابليون، يعبر عن رغبته في الالتحاق به إلى سانت هيلين.

لقد استعاد أمثاله السلطة، فوالد زوجته كان صديقاً حميماً «للسير» أخي الملك، وكيف يترك هذا الرجل التافه حياة المتعة التي كان يعيشها في فرنسا؟ وكيف يضيع أجمل سنوات حياته في جزيرة بعيدة، في خدمة رجل لا يمثل بالنسبة له شيئاً؟ كان عمر مونطولون آنذاك، ثلاثين عاماً، أي أقل من نابليون باثني عشر عاماً. وقد يستمر النفي لفترة قد تطول عشرين أو ثلاثين عاماً، وقد يعود مونطولون منها أشيب الشعر. كيف لا يمكن التساؤل عن الدافع لمثل هذه التضحية؟

لنتفحص الآن كيف كان مونطولون يتصرف في سانت هيلين. كان مونطولون يتحمل برباطة جأش، علاقة ألبين مع نابليون، ويستمع دون انفعال إلى سخريات غورغو، في هذا الشأن. لم يكن يشتكي إطلاقاً ولم يطلب إطلاقاً العودة إلى فرنسا، في حين أن برتران نفسه بسرتران المخلص، قد طلب التصريح بمغادرة الجزيرة. سافرت ألبين وطلب منه نابليون السفر معها... لكن مونطولون فضل البقاء. وهنا أيضاً، لا بد للمرء من أن يقف مشدوهاً.

توقف فورشوفود قليلاً ليستعيد أنفاسه، ثم تابع الحديث:

ـ ليس لدي سوى تفسير واحد لهذا الموقف المدهش. لقد أمر بالالتحاق مع نابليون ومرافقته إلى سانت هيلين وهو مكلف بمهمة دس السم لنابليون. وقد جاء الأمر من كونت أرتواز الذي حاول مراراً الاعتداء على حياة الامبراطور. وعلى ما يبدو، فإن مونطولون لم يكن بإمكانه رفض هذه المهمة الرهيبة. فقد سرق رواتب الجنود، ومن خلال والد زوجته، تم تهديده بإلقائه في السجن إن لم ينفذ مهمته.

إذن، مونطولون هو الذي قتل الامبراطور.

جلس فورشوفود على الصخرة، بقي الاثنان صامتين لفترة طويلة، كل منهما غارق في تفكيره. بالتأكيد، دهش وايدر لوجود رجل مثل مونطولون في سانت هيلين، لكنه لم يفكر في ربط هذا الأمر بما جرى، ولم تذكر حادثة سرقة رواتب الجنود في الوثائق إلا نادراً. إن برهان فورشوفود يجمع العناصر بطريقة منسجمة تماماً لكن وايدر ما زال في حيرة، وقد عبر عن ذلك لرفيقه.

ـ أجاب فورشوفود: لننتظر كيف كان يتصرف، وسوف ترى كيف أن جميع الوقائع تتفق فيما بينها. كان مونطولون مفروزاً مع سيبرياني لأعمال التموين في لونغوود. كان يهتم بشكل خاص ببيت المونة ولديه المفاتيح. ولم يكن أسهل من النبيذ لدس السم. كان نابليون يشرب دائماً نفس النبيذ، كونستانس. وكانت لديه زجاجته وأولئك الذين كانوا يتناولون الطعام معه، كانوا يشربون نبيذاً آخر. كان النبيذ يصل إلى لونغوود في الدن ويوضع بعدها في زجاجات في بيت المونة. وهل هناك أسهل لديه من وضع الزرنيخ في الدن قبل تعبئته في الزجاجات؟

لم يكن مضطراً لتكرار العملية كل يوم، وهو ما كان يتوجب عليه، فيما لو اختار دس السم في الطعام. ومخاطر كشفه باتت، بذلك ضئيلة. فلمرة واحدة، كان يضمن، تسمم ضحيته خلال أسابيع، بل خلال أشهر، وأهم من ذلك، إعطاء كميات مناسبة باعتبار أن نابليون لم يكن يشرب أكثر من نصف زجاجة في الوجبة الواحدة.

لقد كان النبيذ هو الوسيلة الأكيدة، وإليك دليلاً إضافياً: نادراً ما كان نابليون يقدم زجاجة من خمره، وكان المستفيد من هذه الهدية يمرض دائماً، وتظهر عليه أعراض مماثلة لهاتيك التي كانت تصيب الامبراطور. فقد أعطى زجاجة إلى أسرة بالكومب وقد وقعت السيدة بالكومب مريضة. أعطى غورغو زجاجة فظهرت عليه اضطرابات مماثلة. لقد عرض غورغو على نابليون شكوكه بشأن هذه الخمرة واقترح عليه أن يكون أكثر حذراً، وأن يشرب الآخرون من ذات الخمرة. لم يستمع نابليون مع الأسف، لهذه النصيحة، وقد كلفه ذلك حياته كلها.

بدا وايدر شارداً، فجميع عناصر المتاهة تتفق مع فرضية النبيذ المسمم وتبدو مقنعة. لكن الانطلاق منها واتهام مونطولون ما زال يثير تردده.

ـ قال فورشوفود مبتسماً: تحتفظ اللجنة دائماً بقرارها للحظة الأخيرة. على أية حال، لم أنته بعد. والكلمة الفصل في برهاني تأتي من الأحداث التي جرت خلال الأشهر الأولى من عام ١٨٢١. خلال هذه الفترة، توقف القاتل عن

دس سم الزرنيخ، وجعل الطبيب يصف الأدوية ـ غير الضارة على أية حال ـ التي قضت على الضحية السقيمة، متحاشياً بذلك في نفس الوقت إمكانية كشف الزرنيخ أثناء التشريح. . . على الأقل من خلال طرق التحليل التي كانت موجودة في تلك الفترة، وهنا يكمن الدليل الأخير على أن نابليون قد مات قتلاً وعلى أن القاتل هو مونطولون.

نهض فورشوفود وأضاف:

ـ إنني بحاجة إلى وثائقي للاستمرار في البرهان. إننا بحاجة إلى كأس من البيرة . . . ولنذهب فقد حان وقت الغداء. ربما أعد لنا رئيس الطباخين وجبة، من فروج مارنجو، ذكرى عن لقائنا الأول؟

بعد الظهر، جاء وايدر إلى غرفة فورشوفود حيث تناثرت أوراق كثيرة على الطاولة والسرير: نسخة، قرئت ألف مرة عن مذكرات سانت هيلين، المؤلفات العلمية والمقالات، صفحات وصفحات مغطاة بكتابة ناعمة. وعلى الأرض، يمتد الجدول الزمني الذي تحدث عنه فورشوفود. لم يصدق وايدر عينيه لما شاهده. حوالي عشرون صفحة، مربوطة ببعضها البعض بشريط لاصق. كان ذلك إعادة تركيب يومي دقيق، تجمع، وتعرض بوضوح، العناصر ذات الدلالة للأيام الأخيرة. وهناك، الخط البياني لتحاليل تظهر التركيز القوي للزرنيخ في المقاطع المختلفة للشعر المأخوذ لدى وفاة نابليون. وهناك، التصريحات، المصنفة بحسب التواريخ والشهادات العينية، وملاحظات باللغات السويدية أو الفرنسية أوالانكليزية. أي عمل يحمل إخلاصاً رائعاً!.

ـ ما رأيك في عملي؟ سأل فورشوفود.

ـ صاح وايدر: يمكن القول بأنه لوحة مخطوطات مصرية.

ـ بالضبط! هذه حجر رشيد التي تحدد اللحظات الأخيرة للامبراطور، والتي ستسمح لنا بتحقيق رغباته الأخيرة. سنقول للعالم: كيف مات الامبراطور ومن قتله.

لم يغادر ستين فورشوفود وبن وايدر هذه الغرفة المليئة بالأوراق إلا للذهاب إلى النوم. . إنهم يعيشون في لونغوود، بالقرب من الامبراطور

المحتضر. لم يتركا الجدول الزمني إلا للغوص في مذكرات الذين كانوا شهوداً للحظات الأخيرة لنابليون:

لويس مارشان الذي أعطت شهادته الفكرة إلى فورشوفود، للقيام بهذا البحث، والمارشال الكبير، وبرتران ذي الحظ السيء والذي لم تحل رموز مذكراته قبل منتصف القرن العشرين، والخادم الثاني سان دنيس الملقب علي، وفرانشيسكو أنطومارشي، الطبيب الشاب الوسيم الكورسيكي... وأخيراً مونطولون الغامض نفسه.

في الصفحات التالية، سوف نستعرض الشهادات المختلفة وشروح فورشوفود عليها. وبذلك سوف يعاد تركيب خاتمة الجريمة شبه الكاملة أمام أعيننا.

لونغوود ـ سانت هيلين
كانون ثاني ـ أيار ١٨٢١

١ كانون الثاني:

مارشان: عندما دخلت غرفته صباحاً، كان مستلقياً على السرير. قال لي؛ بعدما فتحت الأبواب الخارجية للنوافذ ما الذي سوف تبدأ به من أجلي؟

ـ قلت له: يا سيدي آمل أن أرى سيادتكم معافى قريباً وأن تغادر هذا الطقس الذي لا يناسب صحتك.

ـ لن يكون ذلك بعيداً يا بني، فقد اقتربت نهايتي، ولم يعد بإمكاني الذهاب أبعد من ذلك.

فورشوفود: من المعلوم أن نابليون من خلال تحليل الشعر وملاحظات أنطومارشي قد عانى من سلسلة من النوبات تتوافق مع أعراض التسمم الحاد بالزرنيخ. وقد استمرت أعراض التسمم المزمن في الظهور بين النوبات الحادة، قبل ثلاثة أسابيع ـ أي في ٥ كانون الأول ـ كتب مونطولون إلى زوجته يقول لها بأن نابليون يعاني من مرض انحطاط القوىٰ، وهو يعني بذلك مرضاً متطوراً بل سرطاناً. وفي رسالته إلى الحكومة الفرنسية فيما بعد، سوف يعلن بأن نابليون قد مات بنتيجة مرض انحطاط القوى.

٢١ كانون الثاني:

برتران: الطقس رديء. الامبراطور لا يخرج. طلب نابليون أن يوضع في صالة البيليار أرجوحة (خشبة التوازن) وسأل المارشال الكبير عما تعنيه. هل هذه آلة حربية، أم أنها تفيد في النزول على سور؟ إن المهندس الذي صممها يعوزه الخيال. قال في البداية بأنها أرجوحة للأطفال وها قد وصلت إليه. وعلىٰ ما يبدو

فإنها سوف تسمح له بإجراء تمرين جيد إن استطاع الصعود عليها لمدة نصف ساعة في اليوم ووستجعله يتعرق.

ضحكت السيدة برتران عندما رأت الامبراطور على الرجاحة وقالت بأن الأمر أشبه بالكاريكاتور: فالامبراطور من طرف وجميع الملوك الآخرين في الطرف الآخر لا يمكنهم رفعه، ومن السخرية أن هذه الآلة تشكل علاجاً لالتهاب الكبد والأمر المهم أن الامبراطور كان ثقيل الوزن: فقد كان يزن أكثر من نوفيراز الذي يزيد طوله عن ستة أقدام.

سان دنيس: لقد أثار هذا التمرين اهتمام الامبراطور لمدة أسبوعين ثم تركه.

٢٧ كانون الثاني:

مونطولون: موجهاً كلامه إلى هدسون لو: ... إن السيد أنطومارشي طبيبه الجراح لا يكفي في معالجته من مرضه الحالي وهو يرغب بطبيب من باريس وكل ما هو ضروري لا يمكن أن يتم إلا من خلال الحكومة الفرنسية أو الانكليزية.

برتران: تحدث الجنرال مونطولون فيما بعد عن الدكتور أرنوت (وهو طبيب عسكري انكليزي اقترحه هدسون لو للخدمة). يرغب الامبراطور في وجود طبيب فرنسي وهو يترك للملك أمر اختياره.

فورشوفود: حاول مونطولون إبعاد أنطومارشي. والواقع، فإن هذا الطبيب يشكل خطراً مزدوجاً عليه. فمن جهة، هو مؤهل بشكل جيد في علم الأمراض، وبذا فإنه سيكون مؤهلاً أفضل من سواه لتشريح الجثة بنجاح. ومن ناحية ثانية؛ فإنه إيطالي ولا يشعر بأي التزام إزاء أي من الحكومتين المعنيتين. فهو لن يتردد في إجراء التقصيات الضرورية للكشف عن التسمم. فإذا اختار البوربون طبيباً فرنسياً فإنه سوف يمتنع بحذر عن تشخيص التسمم، وكذلك الأمر بالنسبة لطبيب إنكليزي، يتبع أوامر هودسون لو، إذ أن الانكليز يخشون من الشك بأنهم، هم الذين دسوا السم لنابليون.

أنطومارشي: كان الليل سيئاً جداً، فقد كان الامبراطور في حالة ضعف شديد، النبض خفيف، عصبي قليلاً، سعال جاف، مظهر قاتم.

٢٨ كانون ثاني:

أنطومارشي: انحطاط شديد بالقوى، أعين داكنة شبه منطفئة، سعال حاد وعصبي فم متشنج، عطش شديد، شعور بالألم في المعدة.

٢٩ كانون الثاني:

أنطومارشي: نفس الحالة، حزن عميق.

٣٠ كانون الثاني:

أنطومارشي: كان الامبراطور في حالة يرثى لها، والمرض يزيد من كرهه للدواء.

فورشوفود: يكشف تحليل مقاطع الشعرة التي تعود لهذه الفترة كثافة عظمى في الزرنيخ.

٣١ كانون الثاني:

برتران: طلب أنطومارشي من المارشال الكبير أن يأتي إليه. طلب الامبراطور الطبيب في الساعة الواحدة صباحاً وقال له بأن عليه أن يعمل ما بوسعه وأن بإمكانه البقاء إن رغب بصفته طبيب جراح، وأن الامبراطور قد كتب من أجل الحصول على طبيب آخر وأطلعه على المقطع الذي كتبه بهذا الخصوص وأن جميع الإزعاجات التي يعاني منها لا تأتي من طبه وإنما من تصرفه، وإذا كان يرغب أن تكون علاقته جيدة معه، فيجب أن تكون كذلك مع مونطولون، وأن عليه ألا يذهب مساءً إلى بيت المارشال الكبير... وأن المارشال الكبير وزوجته سوف يسافرون وأن أنطومارشي رجل فظ، وأن عليه أن يتكلم بشكل أكثر تهذيباً ((.....)).

٩ شباط:

برتران: (يشرح نابليون أعمال العلماء الذين أخذهم معه إلى مصر): لم تفعل اللجنة العلمية في مصر شيئاً.. فهي لم توضح أي نقطة من التاريخ أو الجغرافيا. وجدت في جزيرة الزئبق وفي صحراء النوبة آثار محفوظة مثل آثار طيبة. ولم يذكر عنها شيئاً في كتاب هيرودوت ولا في كتاب أي مؤرخ آخر.

كيف بنيت هذه المدن التي تبدو مدناً دينية وتفترض وجود فنوناً قائمة وأمة

كبيرة؟ هل كانت هذه البلدان، فيما مضى كثيرة الأمطار؟ وهل حدث فيها انقلاب في الطبيعة؟

أعتقد أنه كانت هناك أمة كبيرة في قلب أفريقيا فمن الذي دمر هذه الآثار؟ وكيف لا تعرف الحبشة، ولا داخل أفريقيا؟ إن هذا أمر غير مفهوم وإن كان يبدو سهلاً يجب الانطلاق من مصر أولاً... والشيء الأول هو اكتشاف الحبشة ومعرفتها جيداً. ومن أجل ذلك يجب إرسال عشرة أشخاص مختلفين بعضهم إلى مصر والبعض الآخر إلى السودان.

((لماذا لا يوجد عميل يقيم في السودان))؟ حيث تمر جميع القوافل من أفريقيا إلى العربية...

١١ شباط

من مونطولون إلى ألبين: منذ أيام ((في ٣١ كانون الثاني)) وجهت مذكرة رسمية إلى الحاكم بخصوص استبدال الدكتور أنطومارشي والمارشال الكبير برتران... يعتقد الامبراطور بأن الوسيلة الوحيدة للتغلب على جميع المصاعب هي أن يترك للملك ووزرائه اختيار...

فورشوفود: لم يكن نابليون يثق بالأطباء الانكليز وأكثر من ذلك من المستحيل أن لا يخشى من طبيب يرسله البوربون. فهو يعلم جيداً أن كونت أرتواز قد حاول مراراً تدبير قتله. يكذب مونطولون لأنه كان يرغب باستبدال أنطومارشي بطبيب ممارس يخضع للبوربون.

٢٦ شباط

أنطومارشي: ساءت حالة الامبراطور مجدداً بعد أن كان في حالة لا بأس بها منذ ٢١ شباط. سعال جاف، إقياء، حرارة في الأحشاء، هياج عام، قلق، شعور بالحرارة لا يحتمل يترافق مع عطش شديد.

٢٧ شباط:

أنطومارشي: حالة الامبراطور اليوم أسوأ مما كانت عليه البارحة، بات السعال عنيفاً والإقياء مؤلماً لم يتوقف حتى الساعة السابعة صباحاً.

فورشوفود: يظهر التحليل ذروة جديدة في وجود الزرنيخ لتلك الفترة.

١٠ آذار:

برتران: يعتقد الامبراطور بأن الانكليز لا يرغبون في التخلص منه وبأنهم سوف يضعونه في أنكلترا في حديقة جميلة، وبأنهم سوف يأخذون منه تعهداً أن لا يبارح المقاطعة بدون موافقة الحكومة...

لو كان الاختيار يعود لي، لذهبت لأميركا... أسعى لتحسين صحتي أولاً، وأمضي بعدها ستة أشهر في زيادة البلاد، فقطع خمسمائة فرسخ في هذه البلاد يتطلب مني الوقت. أذهب إلى لويزيانا التي أعطيتهم إياها. لقد لامني البعض لأني بعت لويزيانا إلى الأميركان. لربما أعطيتها مقابل لا شيء لأن الحرب كانت تقترب على الأبواب ولم يكن بإمكاني الاحتفاظ بها ولربما استولىٰ عليها الانكليز... عند الوصول إلى نيويورك، سأرسل رسالة إلى أخي. سأستدعي القنصل الانكليزي أولاً وأطلب منه أن لا يقول شيئاً. وبعد ساعات قليلة يصل جوزيف ويمكننا عندها النزول.

سنأخذ أناساً من عناصر جوزيف، وعلى ما يبدو فإن منزله يقع على نهر في ترانتون على مسافة عشر فراسخ من فيلادلفيا وعلى عشرين فرسخ من نيويورك. وسيكون حولي عندها الكثير من العائلات الفرنسية...

١٣ آذار:

برتران: في الساعة السابعة صباحاً أرسل الحاكم أعداداً من صحيفة مورنينغ كرونيكال والتي يعود تاريخها إلى ٢٧ تشرين الثاني وحتى ٢١ كانون أول. لا تغيير في الوزارة. الانتخابات الفرنسية ليست حرة. إخفاق كبير لنا جميعاً وخاصة، بالنسبة للامبراطور الذي كان ينتظر أخباراً أفضل.

قال نابليون إننا نبني قصوراً في إسبانيا بأحلامنا.

١٥ أو ١٦ آذار:

برتران: (كتاب قرأه نابليون أتاح له بعض الأفكار حول القواعد التي تحكمت بتصرفاته) يجب التمييز بين مصالح الثورة ونظريات الثورة. فالنظريات تسبق المصالح، والمصالح لم تبدأ إلا في ليل ١٤ آب: بعد إلغاء طبقة النبلاء وضريبة العشر. احتفظت بجميع مصالح الثورة. ولم يكن لديّ أي دافع

لتحطيمها. وهذا ما كان يشكل قوتي، وهو الذي أتاح لي أن أدع جانباً نظريات الثورة. كان الجميع مرتاحين لأنهم كانوا يعلمون بأن الامبراطور لا يرغب ولا يمكنه بأن يرغب في قيام ثورة مضادة لم تكن حرية الصحافة معي ضرورية....

إن نظريات الثورة ليست جيدة إلا من أجل تدمير نظريات الثورة المضادة، على العكس، فإنه بفضل ميلي للحكم بطريقة ملكية قد احتفظت بمصالح الثورة وأبعدت عنها النظريات.

١٧ آذار:

أنطومارشي يتحدث إلى زميل ايطالي: وبالتالي، فإنه كي أزيح عن كاهلي كل مسؤولية أعلن لكم ولكل الأسرة الامبراطورية والعالم بأن المرض الذي أصاب الامبراطور، يعود إلى طبيعة الجو، وأن الأعراض التي تظهر عليه هي ذات خطورة كبيرة.

مارشان: تناول الامبراطور قليلاً من الجيلي التي قدمتها له «...» وخرج مستنداً على ذراع الكونت مونطولون. لدى وصوله إلى العربة لم يتمكن من الصعود إليها وعاد إلى البيت وهو يحس بقشعريرة جليدية تخترق جسمه. تمدد على السرير وغطيته بغطاء آخر في حين كان سان دنيس ونوفيراز يسخنون مناشف كنت أحيط بها قدميه وأبدلها مراراً؛ قال لي نابليون إنك تعيدني إلى الحياة، وأعتقد بأن النوبة آتية، فإما أن تنقذني أو تقتلني.

فورشوفود: إن الشعور بالبرد الشديد هو أحد أعراض التسمم بالزرنيخ.

١٨ آذار:

هدسون لو يكتب إلى وزارة المستعمرات في لندن: قيل لي بأن الجنرال بونابرت قد وجد طريقة بارعة للتمرين دون أن يخرج فهو يركب نوعاً من الحصان المتحرك.

٢٠ آذار:

أنطومارشي: وصلت السيدة برتران فجأة. بذل نابليون جهداً وظهر منتعشاً بعض الشيء. سألها عن صحتها (كانت فاني برتران مريضة جداً في أعقاب

إجهاض)، وبعد أن تحدث معها للحظات بمرح قال: علينا أن نستعد لحكم القدر. أنت يا هورتانس (ابنة برتران مريضة أيضاً) وأنا، مقدر علينا هذا المصير على هذه الجزيرة البشعة. سأموت أولاً وسوف تأتين بعدي يا هورتانس وسنلتقي نجن الثلاثة في الشانزليزيه، ثم راح يردد هذين البيتين من شعر ڤولتير في مؤلفه زائير:

إنني لن أدعي رؤية باريس ثانية

وكما ترون فإنني مستعد للنزول إلى القبر.

٢١ آذار:

أنطومارشي: أشعر بأن دواء الإقياء قد يكون مفيداً، لقد رجوت نابليون ألا يخطيء في حق نفسه وأن يقوم بجهد بسيط، لكن قرفه، يظهر لمجرد سماع اسم الدواء. إنه يجيبني مغالياً في عدم دقة الطب. سألني إن كان بإمكاني أن أقول له عن ماهية مرضه، وإن كان بإمكاني أن أحدد مكان الداء. شرحت له مطولاً بأن فن الشفاء من المرض ليس كالعلوم البحتة، وأن مكان الداء وسبب الإصابة لا يمكن أن يحددان إلا بالاستقراء، لكنه لم يقبل مثل هذا التمييز فقد كان يقول لي: في هذه الحالة احتفظ بأدويتك فإنني لا أحب أن يكون لدي مرضين اثنين: هذا الذي ينخر في جسمي وذاك الذي تعطيني إياه. وإذا ألححت كان يتهمنا نحن الأطباء بأننا نعمل في الظلام وأننا نصف الأدوية عرضاً وأننا نقوم بإنهاء ثلاثة أرباع أولئك الذين يأتون إلينا للمعالجة «....»

... حبذا لو تتناول شراباً فيه بعض الدواء المسبب للقيء.... وكيف تقول شراب فيه دواء للإقياء؟ وهل تدعو ذلك دواء؟

فورشوفود: يستخدم المسمّمون عادة المادة المقيئة للتهيئة للضربة القاضية: ابتلاع هذه المادة يقضي على الضحية المنهكة، بإزالة كل أثر للزرنيخ، في الجسم. قضت الماركيزة برانفيلين على والدها بإعطائه كأساً من النبيذ الذي يحتوى على مادة مقيئة... الذي وصفه الطبيب.

هناك ميزتان بالنسبة للطبيب في وصف المادة المقيئة:

الأولى: لهذه المادة مذاق واضح، خلافاً للزرنيخ، يبتلعها المريض بكل ثقة، ودون تحفظ.

الثانية: تمثل وصفة الطبيب الذي يعالج المريض بالنسبة للقاتل، أفضل حماية ممكنة.

كانت المادة المقيئة في أيام نابليون، كما في أيام الماركيزة، دواء متداولاً. فالأطباء، من خلال الإقياء يأملون في تحرير الجسم من المواد السامة التي تنهكه. ويمكن للقاتل أن يأمل في وصف المادة المقيئة لمريض تبدو عليه أعراض نابليون. إن عاجلاً أو آجلاً. إذن، فإن أنطومارشي لم يطلب سوى المعالجة الكلاسيكية في أيامه.

والمادة المقيئة هو ملح الأنتيمون الذي يؤثر على الجسم المنهك، يقدم ميزة (بالنسبة للقاتل) في أنها تعمل على تآكل الغشاء المخاطي للمعدة. وهذا التآكل يوقف انعكاس الإقياء الذي تدافع المعدة بواسطته عن نفسها. وبذلك تصبح المعدة غير قادرة على طرد المواد السامة. إن هذه المرحلة التحضيرية هي ضرورية لنجاح ضربة الخلاص، كما سنرى لاحقاً.

٢٢ آذار:

مارشان: قبل الامبراطور رغبات السادة برتران ومونطولون وأنطومارشي واقتنع بتناول المادة المقيئة التي وصفها له الطبيب على مرحلتين وقد نجم عنها نتائج عنيفة جداً... بعض البلغم بعد جهد متكرر...

أنطومارشي: تضاعفت الحرارة مع البرودة. صداع وتطبل البطن. يعاني المريض من ثقل شديد في المنطقة الواقعة فوق المعدة وشعور بالإختناق.

٢٣ آذار

أنطومارشي: ارتفاع في الحرارة، برودة جليدية، في الأطراف السفلية، تطبل في البطن، خفقان في القلب، شعور بالألم في أحشاء البطن ضغط في المعدة، إمساك شديد.

مارشان: ... طلب مني زجاجة صغيرة وشراب عرق السوس باليانسون. صب كمية قليلة، وطلب مني إضافة الماء، وأضاف أنه لا يرغب بشيء آخر غير هذا الشراب من الآن فصاعداً، ومنعني من تقديم أي شراب لم يسمح به.

فورشوفود: خلال الأيام التي تلت تناول المادة المقيئة، ظهرت على نابليون

الأعراض الخاصة بالأنتيمون أكثر من أعراض الزرنيخ. وقد أكدت ذلك تحاليل هاملتون سميث: محتوى أقل بالزرنيخ من الفترة السابقة، كما كشفت النتائج تركيزاً قوياً للأنتيمون في مقاطع الشعرات التي تعود للأشهر الأخيرة. يمكن الملاحظة بأن نسب الأنتيمون تختلف بحسب الفترات. إن هذا الأمر يدل على أن كمية تناول الأنتيمون مطابقة تماماً للهدف الرئيسي للقاتل: إضعاف مقاومة المعدة لتسديد الضربة القاضية بنجاح.

٢٤ آذار:

مارشان: يعرض على الكونت مونطولون الشراب الذي سيتناوله نابليون؛ قال له: إذا لم يفدني، فإنه لن يضرني. ابتسم الطبيب لكلام الامبراطور، وقال له بأن المعدة بحاجة إلى المادة المقيئة، وأنه ينصح الامبراطور بتناولها. أجابه الامبراطور: صف ذلك الدواء لنفسك فأنا لن أتناوله. في نفس اليوم، قال الدكتور للامبراطور، بأن نوفيراز طريح الفراش ويعاني من نوبة كبد حادة وأنه يقوم بمعالجته. خاف الامبراطور أن يطول مرض نوفيراز، بينما لم يتعافَ هو بعد من مرضه. أخشى الانتكاس بسبب التعب. لقد أمضيت ليلتي ١٨ و٢٤، كان يساعدني خلالها سان دنيس أو نوفيراز اللذين كانا ينامان في الغرفة المجاورة. عرض الكونت مونطولون نفسه فوراً للقيام بالخدمة أثناء الليل، بعد أن اعتاد الامبراطور على خدماته أثناء النهار. قرر الامبراطور أن يبقى مونطولون بالقرب منه من الساعة التاسعة وحتى الساعة الثانية ليلاً. وأن يأتي دوري بعد تلك الساعة، وعليه، فإن الكونت مونطولون سوف يأتي خلال هذه الساعات في الليل لخدمة الامبراطور بالإضافة إلى ساعات النهار... تحدث الامبراطور مع برتران عن الترتيب الجديد الذي قرره، عرض برتران على الفور خدماته، أجابه الامبراطور: تكفيني خدمات مونطولون، وإنني معتاد على عنايته وإذا غاب في أحد الأيام، فإنني سوف أقبل خدماتك...».

٢٥ أو ٢٦ آذار:

عبّر لي الدكتور عن قلقه وقال بأن المرض يتقدم بسرعة يوماً بعد آخر. لأن الامبراطور يرفض المساعدة الطبية التي يمكن تقديمها له. وقال لي: «إنني لا أرى سوى وسيلة وحيدة، ألا وهي إضافة المادة المقيئة إلى الشراب الذي

يتناوله في هـذه الفترة أو أي شـراب آخر يمكن أن يقـدم له، دون أن يعلم الامبراطور بذلك». وقد عرض عليّ هذا الاقتراح في غرفة الامبراطور الذي كان نائماً في حينها. أجبته بأنني أرفض أعطاء الامبراطور أي شراب يحتوي على المادة المقيئة، فقد تلقيت الأوامر في هذا الشأن، وأن الامبراطور لا يقبل التصرف على هذه الشاكلة معه. فضلاً عن ذلك فقد قلت له أن عليه أن يستشير الجنرال مونطولون والمارشال الكبير. أما بالنسبة لي فإنني أرفض المشاركة في هـذا العمل. توقفت المحادثة، ولم يتحدث معي في هذا الشأن بعدها.

٢٦ آذار:

أنطومارشي:

(أنطومارشي ينصح نابليون في استشارة طبيب آخر).

أجاب نابليون ولماذا الاستشارة، وما فـائدتهـا؟ إنكم تتصرفـون معشر الأطباء كالعميان. فالطبيب الآخر لن يعرف أكثر منك عما يجري في جسمي، وإن أدعى أنه يقرأ أعراضي بشكل أفضل فلن يكون إلا مشعوذاً وسيفقدني القليل من الثقة التي ما زلت احتفظ بها لتلامـذة هيبوقـراط. من ناحية أخرى ومن تريدني أن أستشير؟ الانكليز الـذين يتلقون إيحـاءات هدسـون؟ (. . .) كان الامبراطور منفعلاً ولم أشأ أن ألح في الكلام، انتظرته حتى يهدأ، ثم عدت للحديث في الموضوع. أجابني الامبراطور أنت تلح بنية حسنة، وسأوافقك على ذلك. لكن ناقش الموضوع مع الأطباء الموجودين في الجـزيرة الـذين تتوسم فيهم المقدرة.

توجهت إلى الدكتور أرنوت، وهو جراح في الكتيبة الثانية، وسردت عليه الأعراض والظروف الرئيسة لحياة الامبراطور وكان رأيه بأنه يتوجب إجـراء ما يلي:

١ ـ وضع دواء على كامل منطقة البطن.
٢ ـ إعطاء دواء مطهر.
٣ ـ مسح الجبين بالخل عدة مرات.

(. . .) سألني نابليون عن نتيجة الاستشارة، فأخبرته عن رأي الدكتور آرنوت. هز رأسه وبدا غير مقتنع وأضاف: هذا هو الطب الانكليزي.

٢٧ آذار:

مارشان: قال الامبراطور للكونت برتران: كيف حالك أيها المارشال الكبير؟ أجاب: في حالة جيدة يا سيدي، وآمل أن تكون جلالتك مثلي، كيف حال جلالتكم مع الشراب الحاوي على المادة المقيئة، هل شعرتم بتحسن؟ لكن الامبراطور الذي لم يكن يعلم شيئاً عن الاقتراح الذي قدمه لي الدكتور أنطومارشي وحيث أنه يشعر ما أسماه بشحوب في البطن، استدعاني على الفور حيث كنت في الغرفة المجاورة وقال والغضب بادٍ على وجهه: منذ متى يا محترم تسمح لنفسك بدس السم ليْ وأنت تضع على طاولتي المشروبات التي تحتوي على المادة المقيئة؟ ألم أقل لك أن لا تقدم لي شيئاً من غير موافقتي؟ ألم أمنعك عن القيام بمثل ذلك العمل؟ هل هذا ثمن ثقتي بك؟ اخرج من هنا. فوجئت بالأمر، والواقع أنني لم أسمع من الامبراطور مثل هذا الكلام من قبل، لكن غضبه كان في غير محله. فقلت له يا سيدي يمكن أن أؤكد لجلالتكم بأن هذه المشروبات لا تحتوي على المادة المقيئة، حسب علمي، وأنه من الصحيح أن الدكتور أنطومارشي قد تحدث معي البارحة مساءً في غرفة جلالتكم حول ضرورة إضافة المادة المقيئة للمشروبات التي تقدم لكم ودون إخباركم. إلا أنني منعته عن ذلك وقلت له بأنني لا أسمح بمثل هذا الأمر مع جلالتكم. أما فيما يخصني، فإنني أمنع إدخال أي شيء إلى هنا، وإذا نفذ الطبيب فكرته فإنه لم يخطرني بذلك. طلب الامبراطور استدعاء أنطومارشي (. . .) أراد أنطومارشي الاعتذار قائلاً للامبراطور بأن رفض المعالجة التي يقدمها سيعرض حياته للخطر. أجاب نابليون، حسناً يا سيد وهل يتوجب علي الاعتذار لك؟ ثم ألا تعتقد بأن الموت، بالنسبة لي، سيكون رحمة من السماء؟ .. لقد وضع هذا الحادث الامبراطور في حالة من الغضب طيلة النهار، وقد طلب مني أن أرمي كل المشروبات الموجودة على الطاولة من النافذة وقال لي: آمل أن لا يكونوا قد أضافوا شيئاً إلى شراب السوس الذي أحبه.

أنطومارشي: كان الامبراطور بحاجة إليّ، فقد أرسل للبحث عني وقد دخلت عنده وخرجت مرات عديدة ثم لم يعد يستدعيني. قال لي الامبراطور بوجه بشوش ربما أزعجتك كثيراً ولم أسمح لك أن تغمض عينيك . . . . سوف أطلب

لك سريراً يوضع بالغرفة المجاورة.
برتران: أنني سعيد لأنني لست متديناً وهذا مايعزيني ،فليست لي مخاوف خرافية ولا أخشى شيئاً من المستقبل.
مونطولون: ما زال الامبراطور يصر على رفض معالجات الدكتور أنطومارشي ويعتقد بأنه سيشفى بشراب اللوز وشوربة الملكة ونظام طعام مناسب.
فورشوفود: لنلاحظ ذكر شراب اللوز. إن نابليون في رأي مونطولون، يأمل كثيراًمن الخصائص العلاجية لهذا الشراب. فشراب اللوز كان يحضر في الأصل، من مسحوق الشعير ثم راح يحضراعتباراً من القرن الثامن عشر من طحن اللوز الحلو يضاف إليه في أغلب الأحيان اللوز المر والمعطر بزهر البرتقال. يشكل شراب اللوز العنصر الثاني من العناصر الثلاثة التي تهيىء لضربة الخلاص.
٢٩ آذار:
توماس ريد، مساعد الحاكم، موجهاً الحديث إلى القبطان لوتيانز الضابط المرافق في لونغ وود: باعتبار أنك علمت بمرض الجنرال بونابرت عليك أن تلح كي يسمح لك برؤيته خاصة وأنه لم يسمح لطبيب انكليزي بزيارته.
لوتيانز يوجه كلامه إلى الميجور غوركيز سكرتير الحاكم: لقد كررت القول للكونت مونطولون أنه من الضروري أن أرى الجنرال بونابرت.
٣٠ آذار:
برتران: جاء الحاكم إلى الجنرال مونطولون وقال له بأن الامبراطور لم يشاهد منذ اثني عشر يوماً. وأنه حالو المجيء لعنده منذ أيام، عندما علم باستدعاء الدكتور أرنوت، وأن أرنوت لم يشاهد الامبراطور، وأنه من الضروري أن يشاهد الضابط المرافق الامبراطور. وإذا قلتم بأن الامبراطور مريض فإنني لا أعلم عن ذلك شيئاً. أجاب مونطولون: بأن الامبراطور كان مريضاً. . . . .
أجابه الحاكم: بأن هذا الكلام مقبول لديه، لكنه ممثل للقوى الكبرى وأنه بذلك يتوجب عليه الحصول على شهادة ضابط انكليزي بذلك.
أجاب مونطولون: بأن الامبراطور مريض ولا يمكنه الخروج ولا يمكنه

بالتالي رؤيته. فهل سوف تدخلون لعنده عنوة؟

ـ نعم إذا كان ذلك ضرورياً سوف ندخل الأبواب عنوة ونكسرها.

ـ لكنكم سوف تقتلونه بذلك.

ـ لا يهم فسأقوم بذلك.

ـ إنكم مسؤولون عن هذا الأمر.

ـ إنني مسؤول أمام الملوك ولست وكيلاً للحكومة الانكليزية فحسب وإنما ممثلاً للقوى الكبرى أيضاً.

مارشان: منذ فترة، كان الامبراطور يقول ليتركنا هذا الحاكم هادئين. فماذا يعني ذلك؟ إنه يعلم دون شك من خلال الانكليز بأنني مريض.

لويتانز محدثاً غوركير: كنت ذاهباً إلى الحديقة، وبينما كان الكونت مونطولون مشغولاً بإغلاق الأبواب الخارجية للنوافذ جاء وقال لي أن أنظر من خلال نافذة ترك ستائرها مسدلة.

أنطومارشي: اضطر نابليون المصاب بالإمساك عادة لأخذ مواد غاسلة وضعنا مقعداً أمام النافذة، وفي حين كنت مع الجنرال مونطولون، بالقرب من المريض، فتح مارشان ستائر النافذة قليلاً وكأنه أراد أن ينظر إلى الحديقة: نظر الضابط الذي كان موجوداً وراء النافذة وتمكن من إعداد تقريره.

لوتيانز محدثاً غوركير: لقد نظرت وشاهدت الجنرال بونابرت كما أوصاني مونطولون، وقد كان يساعده الدكتور أنطومارشي عندما كان يدخل من غرفة لأخرى، ثم سمعته يذهب للاستلقاء على السرير.

١ نيسان:

مارشان: وافق الامبراطور على استقبال الدكتور أرنوت، وقال للكونت برتران: «إن الطبيب الانكليزي سوف يقدم تقريراً إلى هذا الجلاد (الحاكم الانكليزي) عن حالتي الصحية. وسيكون سعيداً بالتأكيد أن يعرف بأنني أحتضر أخيراً. ولقد قبلت استقبال هذا الطبيب، ليس إرضاء للأشخاص الذين يحيطون بي وإنما من أجلي وإن كنت لا أنتظر الكثير منه. قل له يا برتران أن يأتي لعندك، وأن يتفاهم مع أنطومارشي، وأشرح له عن مرضي ثم أدخله لعندي».

هودسون لو محدثاً أرنوت: على الـدكتور أرنوت أن يتـأكد فيما إذا كان الجنرال بونابرت هو الذي طلبه شخصياً، أم أن المبادرة قد جاءت من الكونت مونطولون أو من الكونت برتران، وفيما إذا كان هذا الطلب قد جاء بناء على رأي الدكتور أنطومارشي. فإذا تبين أن الطلب قد جاء من الجنرال بونابرت فعليه أن يقوم بفحصه بحضور طبيبه المعالج الدكتـور أنطومـارشي... فإذا كـان الكونت مونطولون أو الكونت برتران هما اللذان يعملان كي يقوم الـدكتور أرنوت بزيارة الجنرال بحضورهم وغياب طبيبه، فعليه أن يرفض ذلك بإصرار وعلى الفور، وأن يخطر الحاكم بذلك....

أرنوت محدثاً مساعد الحاكم: إن ما يريده الكونت مونطولون مغاير للتعليمات التي أرسلها إليّ الحاكم.

أرنوت: أدخلت برفقة أنطومارشي إلى غرفة مظلمة حيث كان الجنرال بونابرت ممدداً على السرير. كانت الغرفة مظلمة بحيث أنني لم أتمكن من مشاهدته. أحسست بوجود شخص، لكن لم أعلم إن كان هو أو أي شخص آخر. فحصت النبض، لاحظت ضعفاً شديداً، لكن ليس هناك ما يشير إلى أن أيامه في خطر في الوقت الحاضر.

فورشوفود: يمكن التساؤل حول عبارة «ما الذي يريده الكونت مونطولـون» و «مخالفة لتعليمات الحاكم». أمر هودسون لو الدكتور أرنـوت بأن لا يـذهب لفحص نابليون بغياب أنطومارشي. على ما يبدو، فإن مونطولون كان يرغب أن تتم هذه الزيارة بدون حضور أنطومارشي ربما لإخراج الامبراطور من دائرة تأثير طبيبه المعالج، والذي لم ينجح في إبعاده نهائياً، بالرغم من جهوده المبذولة. ولكن لماذا هذا المسعى؟

على ما يبدو، فإن أرنوت ليس حساساً لدرجة الشعور بالغيظ إن طلب منه فحص مريض دون أن يراه. كما أنه لا يتكلم الفرنسية ولا الإيطالية، ولا يمكنه التوجه إلى نابليون مباشرة، خلافاً لأنطومارشي وأوميرا. وعليه أن يتحدث مع الامبراطور من خلال برتران الذي لا يتقن الانكليزية.

كان أنطومارشي يثير غضب الامبراطور في أغلب الأحيان بسبب موقفه المستقل،

لكنه كان يتحدث مع الامبراطور بلغته الأم ويتابع تطور مرضه منذ فترة طويلة، وبالتالي فإنه أقدر من أرنوت على التحري عن الظواهر غير الطبيعية وكشفها.

٣ نيسان:

مارشان: وصل الدكتور أرنوت في الساعة التاسعة يرافقه الكونت برتران. طلب الامبراطور أن يرافقه الدكتور أنطومارشي... بعد طرح عدد من الأسئلة حول المعدة ودخول الطعام وخروجه من البواب، قال له الامبراطور وهو يضع يده على بطنه: «أشعر هنا بألم حاد، وعندما يشتد الألم أحس وكأن شفرة تقطع جسدي، هل تعتقد أن مركز الألم بواب المعدة. لقد مات والدي من هذا المرض وهو في سن الخامسة والثلاثين وهل هذا مرض وراثي؟

أجابه الدكتور أرنوت: بأنه يعاني من التهاب في المعدة، وأن البواب لا يبدو له مصاباً، ولا علاقة للأمر بالكبد، وأن الآلام التي يحس بها في الأمعاء ناجمة عن الغازات الموجودة فيها، وأنه إن قبل باستعمال الدواء، فإن الأعراض سوف تختفي. وصف له الكمادات والشراب يتناوله كل ساعة.

برتران: ينصح الدكتور أرنوت بأخذ الحبوب، ولم يوافق عليها أنطومارشي... رفض الامبراطور تناول الحبوب.

١ نيسان:

أنطومارشي: حزن عميق، نبض ضعيف، وغير منتظم. عدد دقات القلب تختلف ما بين أربع وسبعين إلى ثمانين دقة في الدقيقة. حرارة الجسم ٩٦ درجة فهرنهايت... يتعرق المريض كثيراً ويعاني من العطش، ويقول بأنه لا يستطيع الأكل. إلا أنه يعبر عن رغبته في تناول قليل من النبيذ. شرب النبيذ الممدد، ورفض بعناد أي نوع من الدواء... ازدياد شدة الحمى، مترافقة مع برد شديد في الأطراف السفلية... لا يبدو الامبراطور في خطر آني. أعلمت الدكتور أرنوت بمخاوفي، الذي بدا متفائلاً جداً بحالة الامبراطور الصحية. آمل أن يكون لدي نفس التفاؤل، لكنني لا أستطيع أن أكتم شعوري بأن نابليون يقترب من نهايته. أعلمت بذلك الكونت برتران والكونت مونطولون. تكفل الكونت مونطولون بإعلام الامبراطور أن ساعته قد اقتربت، وأن عليه أن يرتب أموره.

٤ نيسان:

أنطومارشي: استمرت الحمى طيلة الليل مع تناوب بين البرد والحرارة التي أصابت الأطراف السفلية خاصة. يعاني المريض من ثقل شديد في أسفل البطن وعطش شديد، وشعور مؤلم بالاختناق، واضطراب شديد، وقلق عام. خياله مضطرب بالكوابيس والأحلام المفزعة. إقياء لمواد مخاطية، غثيان، تعرق لزج غزير.

٦ نيسان:

توماس ريد محدثاً هودسون لو: أعلمني الدكتور أرنوت بأنه قد قام بزيارته (نابليون) عدة مرات، ولم يلاحظ في حالته خطر شديد، كما يراها أنطومارشي. وبحسب مصادر المعلومات الأخرى، فإن الجنرال بونابرت لا يعاني من مرض جدي. وعلى ما يبدو، فإن مصدر الاضطراب ذو منشأ نفساني. سأل الكونت برتران الدكتور أرنوت عن الوضع، فأجابه: بأن حياة الجنرال بونابرت لا تبدو في خطر.

بداية نيسان:

مارشان: قدمت له شراب اللوز الموجود على الطاولة. قال الامبراطور وهو ينظر إليّ: أعتقد أنه عليك أن لا تسمح لأحد بإضافة أي شيء، إلى مشروباتي.

أجبته: يا سيدي، لقد كان الدرس قاسياً، ولن يعود أحد لذلك.

٧ نيسان:

برتران: اقترح المارشال الكبير القيام بخدمة الامبراطور ثانية. وأنه بإمكانه القيام بذلك عن طيب خاطر، وقال له:

«صاحب الجلالة، إن الحماس والمحبة تدفعان للقيام بالكثير من الأشياء.. لقد أمضيت الكثير من الليالي مرافقاً لك. وأعتقد أنه بإمكاني أن أمضي أياماً أخرى بصفة خادم. أريد أن أكون مفيداً لك، لا تهم الطريقة، يكفيني أن أقوم بأمر مفيد...».

أجابه الامبراطور: ليس ذلك ضرورياً.

٩ نيسان:

برتران: وصل أنطومارشي في الساعة السابعة والنصف لعند الامبراطور. قال الامبراطور بغضب: كان عليه أن يكون عندي في السادسة صباحاً؛ لكنه يمضي جلّ وقته لدى السيدة برتران.

استدعى الامبراطور المارشال الكبير الذي وصل في الساعة الثامنة إلا ربعاً. كرر أمامه ما قاله عن أنطومارشي وأضاف بأن الدكتور لا يهتم إلا بالعاهرات. وقال:

«ليمضي كل وقته مع العاهرات، وليصلهم من الأمام أو من الخلف ومن الفم أو الأذنين. خلصوني من هذا الرجل الحيوان، الجاهل، المغرور، الذي لا شرف له. أرغب أن تستدعوا أرنوت لمعالجتي مستقبلاً. أدرس الموضوع مع مونطولون. إنني لم أعد أريد أنطومارشي». لقد حدث ذلك أمام مارشان وأنطومارشي، وكرر الامبراطور خلاله خمس أو ست مرات بأن السيدة برتران عاهرة.

وأضاف:

«لقد وضعت وصيتي: أوصيت بعشرين فرنكاً لأنطومارشي ليشتري بها حبلاً ويشنق نفسه».

أضاف الامبراطور أمام المارشال الكبير، بعد أن خرج أنطومارشي بأن الدكتور خليل زوجته، وأضاف أمام مارشان وعلي: بأن هذا أمر غير مشرف له وللسيدة برتران، وأن الدكتور قد ضيع نفسه عندما ابتعد عن مونطولون، واقترب من السيدة برتران، وأن ذلك كان متوقعاً، وأن السيدة برتران قد فقدت أنطومارشي كما فقدت غورغو.. . كان المارشال الكبير يستمع إليه دون أن يقول شيئاً.

قال أنطومارشي للحاكم بأنه يرغب في العودة إلى أوروبا لنشر كتابه الذي انتهى من إعداده، وأنه من سوء الحظ أن لا يكون مفيداً للامبراطور.

أنطومارشي: (لا شيء لهذا اليوم).

فورشوفود: من الواضح أن نابليون قد فقد صوابه في هذه المرحلة. فمن الذي

يدخل هذه الأفكار إلى ذهنه المضطرب؟

بالتأكيد، ليس برتران، فزوجته نالها الامبراطور في سمعتها، وإنما بالتأكيد مونطولون الذي سبق أن حاول، كما تعلم، مرات عديدة إبعاد أنطومارشي.

١٠ أو ١١ نيسان

مارشان: تحدث الامبراطور في هذا اليوم مع الكونت مع مونطولون عن إجراءات الوصية، وسأله أمامي إن كان يكفي مليونين لشراء أملاك لأسرته في البورغون. هل كان الامبراطور ينوي أن يعمل وصية أخرى؟ إنني أعلم بأنه يوجد وصية أخرى حملتها إلى الكونت برتران في المساء.

١١ نيسان

أنطومارشي: خلال الليل الفائت طرح الامبراطور مادة صفراوية كريهة الرائحة، وتقيأ مادة مخاطية تختلط فيها مواد غذائية. لقد بات هذا الإقياء نذير شؤم. حاولت إيقافه واقترحت عليه خليطاً من مادة مضادة للإقياء ومخففة للألم شبيهة بالأفيون. رفضها الامبراطور وطلب مني التمهل ولم ألح بعد ذلك. رجعت إلى بيتي وقد بعث بعد ذلك في طلبي. قال لي يا دكتور إن مريضك يرغب في إطاعة طلبك من الآن فصاعداً وهو مصمم على تناول أدويتك. ثم توقف مبتسماً، أمام خدمه الذين كانوا يقفون حول سريره، وقال: اعط كل هؤلاء من الدواء، واشرب أنت منه فأنتم جميعاً بحاجة إليه. وقد أردنا تشجيعه فتذوقنا الشراب. عندها قال لن أكون الوحيد الذي لا يجرؤ على مواجهة الدواء، أعطوني إياه بسرعة. أعطيته الدواء حمله فجأة إلى فمه وابتلعه دفعة واحدة. ومع الأسف لم يعط إلا القليل من المفعول واستمر الإقياء.

برتران: صرف الامبراطور أنطومارشي، ثم برتران قائلاً له باعتبار أنني قد استقبلت أنطومارشي، فليعبر عن اعترافه بالجميل من خلال عنايته بي.

١٣ نيسان

مارشان: استمر صاحب الجلالة في إملاء ما يريد. بقي الكونت مونطولون مغلقاً الباب على نفسه مع الامبراطور الذي كان يملي عليه رغباته الأخيرة حتى الساعة الثالثة.

برتران: في الساعة الرابعة والنصف وصل الطبيبان. . . أمضى الامبراطور ساعة كاملة في قدح الفئة الحاكمة الانكليزية وذمها. . . لقد ثار في أحد الأيام جون بول ضد حكم الأسر الحاكمة، وأعدمها جميعاً. سترون كيف سيحدث عندكم ثورة أعنف من ثورتنا. فالفئات الحاكمة هي ذاتها في كل مكان: كبار ومتعجرفون طالما هم في السلطة، جبناء عندما يصل الخطر. أراد الامبراطور أن يعطي أرنوت كتاباً عن معركة أعظم ضابط لديهم هو مارلبورو ليضعه في مكتبة الكتيبة. وقال سترون من خلال هذا الكتاب على أنه يشرف الشجعان في كل الأمم. طلب الدكتور أرنوت من المارشال الكبير أن يعبر عن امتنانه لهذه الهدية.

١٥ نيسان

مارشان: أرسلني الامبراطور لأخذ الكتاب من مكتبته، كان مؤلفاً جميلاً جداً، يتضمن لوحات، ومجلداً تجليداً فاخراً.

١٦ نيسان

برتران: قال المارشال الكبير للامبراطور بأنه يأسف أن يتحدث عن أحزانه عندما يلتقي بالامبراطور المريض. وهو حزين للمعاملة التي يلقاها من الامبراطور.

أجاب الامبراطور لا أدري ما الذي تريد قوله، فسّر ما تريد فإني مريض في سريري، ولا أتحدث إلا قليلاً وليس لديك ما تشكو منه.

ـ لقد نزع عني جلالتكم كل ثقة وفقدت المرتبة العليا والثروة والرفعة التي رفعتني إليها. لكن التعاسة الجديدة تؤلمني كثيراً. فلقد تركت الرفعة كما يترك اللباس المستعار، لكنني اعتقدت بأن لي الحق في تقديركم وفي صداقتكم ولا يمكنني أن أفقدها دون أن أشعر بألم كبير. فمنذ فترة قصيرة، قال صاحب الجلالة بأن سلوكي ممتاز. . . فكيف بي خلال فترة قصيرة من الزمن أفقد رعايتكم؟

ـ إنني لا أعلم ما الذي تريد قوله، فأنا أعاملك بشكل جيد جداً، وليس لي شيء ضدك. مارشان هو ذاك الذي تهمني رعايته أكثر من سواها لأنني معتاد عليها. وذاك هو كل تفكيري.

ـ إن زوجتي المسكينة، إن لم يقتلها الطقس، فإنها سوف تموت حزناً. ولقد صفحت عن الكثير من الأعداء، فكيف بك لا تصفح عن الأصدقاء القدامى؟ إن لها مساوءها بدون شك، لكن ألم تتخلص من هذه المساوىء؟ أليست تعيسة جداً؟ ألم تتعرض للاتهامات حتى الأكثر بشاعة منها؟

ـ ليس لدي ما ألوم به السيدة برتران. فهي سيدة ممتازة ولم أتعود على رؤيتها.

ـ لقد كان بإمكانها أن ترعاك بعناية، وهي تخلص لك أكثر مما تتوقع هل يمكن أن تراها غداً ولو للحظات؟

ـ سوف أرى السيدة برتران قبل أن أموت.

لم يتمكن المارشال الكبير من إمساك دموعه، وبقي نصف ساعة مع الامبراطور الذي لم يقل شيئاً.

هودسون لو محدثاً أرنوت: (طالباً منه ألا يضع الكتاب المقدم من نابليون في المكتبة): إن وظيفتك لا تلزمك أن تكون وسيطاً في هذا النوع من الأمور، وهم يعلمون ذلك جيداً، وبالتأكيد فإنهم لا يقدمون هذه الهدية بدون غاية مقصودة.

١٦ نيسان

مارشان: قال لي الامبراطور أن أعطيه نبيذاً من نبيذ لاس كاسس. سمحت لنفسي أن أعبر عن خشيتي من النتائج التي يمكن أن تنجم عن ذلك.. أصر الامبراطور أن يأخذ قليلاً منه، غطس قطعة من البسكوت فيه، ثم راح يكتب...

١٧ نيسان

برتران: قال مونطولون لأنطومارشي بأن الامبراطور قد اهتم البارحة بكل إجراءاته وتوزيع ممتلكاته لكنه لم يعمل وصيته بعد، وأنه إن مات فلن يحصل أحد على شيء.

أنطومارشي: أخذ الامبراطور الكمية المعتادة من مستخلص الكينا.

١٧ و١٨ نيسان

مارشان: أمضى الامبراطور عدة ساعات من يومي ١٧ و١٨ مغلقاً الباب على

نفسه مع الكونت مونـطولون. كـان تعباً من شـراب السوس شـرب قليلاً من المشروبات المرطبة الموضوعة على الطاولة الصغيرة مثـل الليمونـاد وشراب عنب الدبس وشراب اللوز. . .

١٨ نيسان

أنطومارشي: أمضى الامبراطور أسوأ لياليه. فهو يعـاني من ألم وامتعاض لا يحتمل في البطن. جسمه بارد يغطيه العـرق اللزج يشعر بـاستمرار بـالغثيان وبالإقياء الذي امتد حتى الرابعة والنصف صباحاً. إنه حزين منهـك يتحدث بصعوبة، وهو يعزو حالته إلى الشراب المقوي الذي تناوله مساء البارحة.

برتران: في الساعة الخامسة والنصف استدعى الامبراطور المـارشال الكبير سلمه ثلاثة رزم مربوطة بعناية ومختومة بأسلحته وقال له: لقد كتبت وصيتي كل شيء مكتوب بخط يدي، ضع هنا توقيعك وأسلحتك. ومونطولون يضعها هنا والأب فنيالي يضعها هنا ومارشان هناك. وستضعون تواقيعكم أيضاً على العلب الثلاث. إعمل ذلك بدون طلب.

(. . . نهض نابليون من سريره، أراد المارشـال الكبير أن يسنده. يجري ذلك منذ عشرة أو خمسة عشر يوماً. قال نابليون لا حاجة لذلك ومشى بخطوات ثابتة إلى كرسيه. . . دخل الأطباء، كان نابليون مرحاً يتحدث بارتياح ولا يستند كثيراً على مقعده. طلب وأكل لحماً مفروماً . . . ثم استفسر بعدها إن كان هناك ضلع وطلب أن تقدم له قطعة لحم طرية ليأكلها.

(. . .) في الساعة الثامنة والنصف أخذ شراب الكينا وتقيأ بعده بقليل، الجزء الأكبر مما أكله في الساعة السادسة، لكنه لم يتقيأ الكينا.

١٩ نيسان

أرنوت: سأل الامبراطور الدكتور أرنوت قائلاً: قل لي يـا دكتور أرنـوت هل شراب الكينا محضر هنا أم في المدينة؟

ـ في المدينة يا سيدي.

ـ هل الشخص المكلف بالصيدلية قد جاء مع الحاكم؟

ـ كلا يا سيدي.

ـ هل جاء مرسلاً من قبل السيد توماس ريد مساعد الحاكم.؟

ـ كلا يا سيدي، إنه هنا قبل مجيء الحاكم وهو موظف في شركة الهند الشرقية وهو رجل مضمون.

٢١ نيسان

برتران: طلب من برتران أن يقرأ له وصول القيصر إلى اليونان قبل معركة مارشان. ثم أملا ملاحظة على مارشان ليضيفها إلى معارك القيصر.

مارشان: بقيت وحيداً مع الامبراطور واقفاً بالقرب من سريره قال لي بأنه قد سماني مع الكونت مونطولون والكونت برتران أحد منفذي وصيته. كانت دهشتي كبيرة من هذا الشرف الذي كرمني به. راح قلبي يخفق خوفاً من أن لا أستحق ثقته والموقع الذي يريد أن يرفعني إليه. كان انفعالي عميقاً. قال لي الامبراطور عند المارشال الكبير وصيتي له تفتح من قبله بعد موتي. قل له أن يعطيك إياها واحملها إلي. عندما أعلمت المارشال الكبير بهذا الطلب من قبل صاحب الجلالة، بدا مندهشاً، لكنه ذهب وجلبها من الدرج. وسلمني إياها بدون تعليق. كان الامبراطور يرغب في وضع إجراءات جديدة. أخذ الامبراطور المغلف، فتحه قرأ صفحات الوثيقة، مزقها وطلب مني أن أحرقها. كانت صفحات جميلة تستحق الحفظ مكتوبة بخط الامبراطور. أمسكتها بيدي لكن الامبراطور أراد إتلافها... التهمتها ألسنة النيران دون أن أعلم محتواها.

أنطومارشي: استدعى الامبراطور في الساعة الواحدة والنصف القس فنيالي وقال له: هل تعلم أيها القس ما تعنيه تعبير المحكمة المحرقة؟ (عبارة عن محكمة كبيرة كانت تبت في القضايا الاستئنافية والتسمم) نعم يا سيدي، أجاب القس.

ـ وهل استخدمتها قبلاً؟

ـ أبداً.

ـ إذاً، استخدمها معي. وراح يسرد التفاصيل الكثيرة في هذا الصدد ويعطي للقس تعليمات طويلة (...) عليك القيام بجميع الاحتفالات المعتادة ولا تتوقف إلا عندما أسقط أرضاً.

٢٢ نيسان

مارشان: كان هذا اليوم بالتأكيد من أكثر الأيام تعباً للامبراطور خلال مرضه وهو الأكثر إيلاماً... في الصباح كتب الامبراطور ملاحق وصيته: فبالرغم من تعبه، طلب مني الجلوس بالقرب من سريره وأملى علي التعليمات الرسمية لمنفذي وصيته، هذه التعليمات التي بيضتها ووقعها يوم ٢٦ بعد أن قرأتها عليه.

أثناء العمل عاوده الإقياء عدة مرات مما أجبره على التوقف عن الإملاء عدة لحظات. كل ما استطعت أن أقوله له هو أن يتوقف تماماً عن العمل الذي يسبب له أعراضاً خطيرة ولكن هذا لم يثنه عن عزمه قال لي، أنني تعب جداً لكنه لم يبق لدي سوى القليل من الوقت ويجب الانتهاء من هذا الأمر أعطني قليلاً من نبيذ كونستانس، نبيذ لاسس كاسس. وحيث أنني وجدت الشجاعة لتذكيره بما سببه له منذ أيام، أجاب نقطة واحدة لا يمكن أن تسبب لي سوءاً... لكن نبيذ كونستانس لم يتأخر في تحريض الإقياء، الذي منعه من متابعة العمل لحين وصول المارشال الكبير والأطباء.

برتران: قال الامبراطور للمارشال الكبير بأنه قد أعد ثلاث وصايا: الأولى، لا تفتح إلا في باريس، وإنه يتوجب القول بأن بونا فيتا قد حملها إلى أوروبا كي لا يفتش عنها الانكليز. والثانية ملحق وصية تفتح هنا وتعرض على الانكليز وهي التي سجل فيها الامبراطور كل ما لديه هنا كي لا يستولوا على شيء. والثالثة للامبراطورة.

(...) لقد أعلن في هذه الوصايا بأنه يموت في الديانة الكاثوليكية التي ولد فيها... لأنه يعتقد بأن ذلك مناسب للأخلاق العامة.

(...) وما يفضله هو أن يدفن في مقبرة الأب لاشيز.

(...) وقد سجل في وصيته بعض الوقائع وبعض المبادىء عن أيام حكمه. مثلاً فإن محاكمة الدون أنجيان الذي أعدمه... لأنه تآمر في باريس مع ٦٠ من القتلة الذين أرسلهم البوربون. وقد قبض عليه بشعور من العدالة والكرامة الوطنية. وكان له الحق في ذلك واليوم، وهو على حافة القبر لا يأسف لذلك.

(...) ليس له على مونطولون شيء وقد فقد ٣٠٠ ألف فرنك من ثروته

لإقامته هنا. ويأمل أن ينضم المارشال الكبير إلى مونطولون مستقبلاً.

لقد كان يريد ترفيع مارشان... لكنه لا يريد أن يكشف ما أعطاه وإن كان المبلغ كبيراً.. وهو يأمل أن نحمي مارشان وأن نساعده بمشورتنا.

(...) لقد أوصى بمليون فرنك للمارشال الكبير وبنفس المبلغ لمونطولون...

(...) لم يعد هناك إلا هذا الطبيب المسكين (أنطومارشي) الذي لم يترك له شيئاً. لقد أراد أن يترك له مائتي ألف فرنك، لكنه لم يفعل ذلك ليس لأنه لا يثق بعبقريته وإنما لأنه لم يظهر له وداً وأنه لم يقدم له كل العناية التي كان ينتظرها منه. لكن الوقت ما زال مناسباً للحصول على شيء من عطاياه، إذ يمكن إجراء ملحق وصية.

(...) كان على برتران إمضاء بعض الوقت أولاً في باريس لأنهاء شؤون الوصية وعليه أن يبقى سنة هادئاً في بيته، وأن يسمى نائباً... وعليه أن لا يترك منطقة البيري وأن يشتري مزارع وممتلكات بعشر فراسخ في شاتورو وأرضاً جيلة من خمسة أو ستة فراسخ إن أمكن.

(...) بحث الامبراطور بعدها مطولاً في ذاكرته وسأل مراراً إن لم ينس أحداً من خدمه السابقين. اهتم بنوع من القلق، بذلك حتى لا ينسى أحداً من أولئك الذين خدموه. قال الامبراطور بأنه يقوم بمراقبة للضمير ويرغب بدفع كل ديونه وكل ديون طفولته.

٢٣ نيسان

برتران: من الممكن أن لا يكون مونطولون قد اكتسب أي حق، لذا فقد حاول أن يحصل على ذلك... أرى أن مونطولون يقترب مني ليس من أجل إرثي، وإنما من أجل الحصول على أموال الآخرين الذين يجب علم خداعهم.

٢٤ نيسان

برتران: كرر الامبراطور بأن على أسرته السيطرة على روما بالتحالف مع كل أسر الأمراء في روما أي مع كل الأسر التي خرج منها بابا... ويمكنها أن تقبّل قفا البابا، لأنها ليست قفا شخص عادي ولا أية أسرة عادية أفضل من تقبيل قفا

ملك إنكلترا أو السويد أو نابولي.

٢٥ نيسان

برتران: سأل الامبراطور فيما إذا كان بالإمكان الحصول على اللوز المر من لونغوود إنها نادرة هنا، ولم يتمكن أحد من الحصول عليها منذ ثلاث سنوات.
أنطومارشي: كان الامبراطور في حالة أفضل. كان علي أن أقوم بتحضير بعض أنواع الشراب استفدت من الوقت ومررت بالصيدلية. عندما يجد الامبراطور نفسه وحيداً تأخذه رغبة شديدة في الأكل. يطلب الفواكه والنبيذ والبسكويت ويتناول الشمبانيا ويطلب الخوخ والعنب ويضحك لمجرد رؤيتي.

لوتيانس محدثاً غوركير: تساءل الكونت مونطولون فيما إذا كان بالإمكان استقدام اللوز المر من بلانتيشن هاوس، إن لم يمكن الحصول عليها من جيمس تاون ممكناً.
برتران: أرسل الحاكم اللوز المر في صندوق.
فورشوفود: يصنع شراب اللوز الحقيقي من اللوز المر. ويمكن كذلك أن يصبح سماً قاتلاً من خلال خليط مناسب. إن شراب اللوز الذي يتناوله نابليون غير ضار في الوقت الحاضر. لكن إضافة اللوز المر سوف يجعله قاتلاً.

٢٦ نيسان

برتران: يبدو أن الامبراطور قد فقد الذاكرة اليوم عدة مرات. منذ عشرة أيام كان الامبراطور يطرح نفس السؤال مرتين أو ثلاثاً أحياناً وينسى بأنه قد أجيب على سؤاله. جاءت السيدة برتران لعند الامبراطور.. أعلن مونطولون عن قدومها، أمام الامبراطور الذي أجابه (حسب ما قاله مونطولون للسيدة برتران): لم أشاهدها، أخشى من الانفعال. إنني غاضب منها لأنها لم تكن خليلتي. وأرغب أن أعطيها درساً.

حديث يوم ٢٦ نيسان السابعة مساءً.

- انتقل الامبراطور إلى الصالون يساعده المارشال الكبير من طرف ومارشان من الطرف الآخر. وبعد أن تمدد في السرير، قال للمارشال الكبير: على الامبراطورة أن تهتم بتربية ابنها ويأمنه، وعليها أن تحترس من البوربون

الذين يرغبون في التخلص منه بالتأكيد.

٢٧ نيسان

مارشان: طلب الامبراطور الدكتور أنطومارشي وأظهر عطفاً إزاءه. . . سأله فيما إذا كان يرغب الدخول في خدمة الامبراطورة والتي يمكن أن يكتب لها موصياً له، وقال ستكون مسروراً لما سأفعله لك. لقد سررت لما سمعت من عودة طيبة القلب للامبراطور نحو الدكتور أنطومارشي.

أنطومارشي: قبل نابليون أخيراً أن يترك غرفته الصغيرة، غير المريحة والسيئة التهوية للإقامة في الصالون.

٢٨ نيسان

أنطومارشي: أعطاني الامبراطور التعليمات التالية: بعد موت الامبراطور الذي لن يكون بعيداً، أرغب أن تفتحوا جثتي. وأرغب كذلك، وأصر على أن تعدوني بأن لا تسمحوا لأي طبيب انكليزي أن يمسني. وإذا احتجتم لواحد منهم، فإنني لن أقبل سوى بالدكتور أرنوت. أرغب كذلك أن تأخذوا قلبي، وأن تضعوه في الكحول، وأن تحملوه إلى بارم، إلى عزيزتي ماري لويز. . . أوصيكم خاصة، أن تفحصوا معدتي، وأن تعدوا تقريراً دقيقاً مفصلاً تعطوه لابني. . . أكلفكم أن لا تهملوا شيئاً من هذا الفحص عندما أموت أكلفكم أن تذهبوا إلى روما وأن تلتقوا بوالدتي وأسرتي. . وأن تقولوا لهم بأنه عندما مات، فإنه قد ترك لجميع الأسر الحاكمة الرعب والعار عن أيامه الأخيرة.

فورشوفود: لم يتحمل نابليون الموقف الاستقلالي لأنطومارشي. ففي لحظات اختلال عقله استمع للافتراءات التي أطلقت ضد الطبيب. إلا أنه من الواضح فإن الامبراطور لم يكن يثق إلا به من أجل تنفيذ تشريح جثته. ألم يكن أنطومارشي في نهاية الأمر أحد مواطني بلده؟

٢٩ نيسان

برتران: استدعى الامبراطور بييرون ليطلب منه فيما إذا كان قد ذهب إلى المدينة وفيما إذا كانت الباخرة التي وصلت عشية البارحة قد حملت معها برتقالاً. أجاب بييرون بنعم.

ـ . . . هل تحمل هذه الباخرة الليمون؟

ـ كلا.

ـ اللوز؟

ـ كلا.

ـ الرمان؟

ـ كلا.

ـ العنب.

ـ كلا. . .

ـ النبيذ؟

ـ كلا، ليس في وجاجات وإنما في الدن.

ـ إذاً لم تحمل شيئاً؟

ـ بعض الحيوانات.

ـ ما هو عدد العجول؟

ـ أربعون.

ـ وما عدد الأغنام؟

ـ مائتان.

ـ وما عدد الماعز؟

ـ ولا واحدة.

ـ وما عدد الدجاج؟

ـ ولا واحدة.

ـ إذاً لم تحمل شيئاً؟ وهل جاءت بالجوز؟

ـ كلا.

ـ أعتقد أن الجوز يأتي من البلدان الباردة، وأن اللوز يأتي من البلدان الحارة. هل الليمون جيد هنا؟

ـ نعم.

ـ والرمان؟

ـ لم أشاهد رماناً جيداً.

ـ هل حملوا الليمون والرمان واللوز؟

لقد استدعى بيبرون لتكرار نفس الشيء ثلاث مرات كأي إنسان فقد

الذاكرة تماماً. ولم يكن يشاهد الامبراطور إلا من خلال الأسئلة العديدة المستمرة دون انقطاع.

. . . لقد زاد صممه منذ البارحة بشكل كبير، وأضحى يطلب الكلام بصوت عال والصراخ وكأنه بات اصماً، وهذا ما لم ألحظه إطلاقاً من قبل بالرغم من أنني أعرفه منذ زمن بعيد، أو على الأقل منذ أعوام قليلة.

. . . عند الظهيرة، قدم للامبراطور شورية وبيضاً وملعقة من الخمر، كما أعطاه أنطومارشي ثلاثة ملاعق من القهوة. وعلى ما يبدو فإن مونطولون قال لهم أطعموا الامبراطور وحاولوا أن تعطوه القوة فلدي شيء أريد أن أوقعه عليه، وهي الرسالة الموجهة للامبراطورة والتي يوصي فيها بالدكتور. في الصباح، طلب عشرين مرة إن كان يسمح له بتناول القهوة، وكان الجواب: كلا يا سيدي. . .

انهمرت الدموع من عيني وأنا أنظر إلى ذلك الرجل الرهيب الذي كان يقود بافتخار، وبشكل مطلق، وهو يرجو من أجل الحصول على ملعقة قهوة ويطلب الأذن مطيعاً كالطفل . . . هذا هو نابليون العظيم، بائس ضعيف.

. . . من الساعة الواحدة وحتى الساعة الثالثة لم يتوقف من تكرار نفس الأشياء يطرح سؤالاً كل دقيقة: ما هو أفضل شراب الليمونادة أم شراب اللوز؟

مارشان: قبل أن يخرج الجنرال مونطولون، أخذني إلى طرف الغرفة ليسلمني مسودة رسالتين طلبهما منه الامبراطور، إحدها للسيد لافيت، والأخرى للسيد بويليري وأن أقربهما بعد التبييض كي يتمكن من تقديمهما وتوقيعهما من الامبراطور، فهو إذا لم يوقعهما اليوم فقد لايتمكن من ذلك غداً. . . أعطيت الكونت مونطولون، عند عودته الرسالتين، بعد نسخهما بدون أن أقول شيئاً سوى أنني أرختهما في ٢٥ نيسان كما كانت بالرغم من أننا اليوم في ٢٩ من الشهر.

إذا كنت قد تثاقلت في ذكر هاتين الرسالتين، ذلك لأن الكونت مونطولون في المؤلفين اللذين نشرهما عن سانت هيلين (حيث يفتقد الذاكرة غالباً) يقول بأن هاتين الرسالتين قد أملاهما عليه الامبراطور، وهذا ليس صحيحاً. إن هاتين الرسالتين هما من بنات الأفكار الكونت مونطولون. . . .

برتران: قال مونطولون بأن الامبرطاور فقد صوابه، وأنه قد يقال بأن الامبراطور ليس هو الذي أعد هذه الوصية وإنما مونطولون هو الذي أملاها عليه.

٣٠ نيسان

أنطومارشي: الساعة التاسعة صباحاً، زالت الحمى عنم المريض، وهو هادىء تماماً. النبض ضعيف. ويتراوح ما بين ٨٤ إلى ٩١ نبضة في الدقيقة. الكمادات الموضوعة على الساقين لم تعط أي تأثير، والتي وضعت فوق المعدة لم تسبب ألماً للمريض الذي يعتقد بأنه لم يعاني منه ظهراً. يعاني المريض من حرارة شديدة في الحنجرة. الساعة الثالثة بعد الظهر اشتدت الحمى...

برتران: سأل الامبراطور أين غورغو؟

ـ في باريس.

ـ لماذا سافر؟

ـ لأنه كان مريضاً.

ـ وهل أخذ موافقتي؟

ـ نعم يا سيدي كما أنك كتبت له رسالة.

١١ أيار

مارشان: ..في الساعة الحادية عشرة من الأول من أيار سمح للكونتيسة برتران بالدخول لمقابلة الامبراطور... تحدث معها لبعضة دقائق وطلب منها العودة ثانية.. انسحبت الكونتيسة برتران كي لا تتعب الامبراطور.. رافقتها حتى الحديقة، وهناك قالت لي وهي تبكي: كم تغيّر الامبراطور منذ أن رفض مقابلتي في المرة الأخيرة... لقد كان قاسياً عندما رفض استقبالي. إنني سعيدة لعودة الصداقة بيننا، وسأكون أكثر سعادة لو قبل خدماتي.

أخذ الدكتور أرنوت والدكتور أنطومارشي يناما في المكتبة.

أنطومارشي: النبض ضعيف، ومتسارع، ويصل إلى مائة نبضة في الدقيقة... تخف الأعراض شيئاً فشيئاً، والإحساس بالضيق يتراجع. كان هادئاً، صباح اليوم. عند الظهر، اشتد الفواق (حازوقة) أكثر من أي وقت مضى.

برتران: سأل الامبراطور: هل أومييرا هنا؟

ـ لقد سافر.
ـ لم أره. هل رأيتموه.
ـ هل أخذ منكم إجازة؟
ـ نعم.
ـ من سمح له بالسفر؟
ـ الحاكم.
ـ لماذا؟ لأنه كان متعلقاً بنا؟
ـ نعم.
ـ إذن، لن يعود؟
ـ كلا.
ـ هل تعرفون شيئاً عن أخباره؟ وهل تعلمون ماذا يفعل في لندن؟
ـ كلا.
ـ وأين السيد بالكومب؟
ـ لقد سافر.
ـ كيف سافر، ومتى؟
ـ منذ عدة أشهر.
ـ وهل سافرت زوجته أيضاً؟ هذا أمر عجيب، كيف سافرت. (كرر ذلك الامبراطور عشر مرات).

٢ أيار

أنطومارشي: في الساعة الثانية صباحاً، تضاعفت الحمى وترافقت مع هذيان .. استجمع نابليون فجأة قواه، وقفز إلى الأرض، وهم بالخروج للنزهة في الحديقة. أسرعت لأخذه بين ذراعي، لكن ساقيه لم تقويا على حمله وسقط إلى الوراء. تألمت لأنني لم أتوقع سقوطه... ظهراً: استعاد المريض قواه العقلية... فواق متكرر ينذر بالخطر... أخذ شراباً مخففاً للألم مكون من قليل من شراب ورد البرتقال وبعض نقاط من صبغة الأفيون والكحول... لم يعد نابليون يتحمل الضوء. نضطر لرفعه وتغيير ملابسه وإعطائه العناية التي تتطلبها حالته في ظلام الغرفة... كان المارشال الكبير منهكاً، ولم يعد بإمكان

الجنرال مونطولون الاستمرار، وأنا لست في وضع أفضل منهما: بناء على إلحاح الفرنسيين القاطنين في لونفود، قبلنا إشراكهم في الواجبات التي كنا نقوم بها. . . تأثر الامبراطور للحماس والاهتمام الذي أظهره هؤلاء الناس، فأوصى ضباط بهم كي يساعدوهم ويدعموهم وأن لا ينسوهم.

كما طلب الامبراطور أن لا ينسوا هؤلاء الصينيين المساكين وأن يعطوهم عشرين ليرة نابليونية: «وعليّ أن أودعهم أيضاً».

برتران: عرضوا عليه، نحو الساعة السابعة، شراب ورد البرتقال مع السكر، فقال: ما هذا يا كتيبتي!

ـ إنه شراب البرتقال. . .

ـ لقد انتهى الأمر. لا حاجة لذلك.

فورشوفود: إن الشراب الذي كان يتناوله نابليون يومياً، والمعطر بزهر البرتقال، هو بالتأكيد شراب اللوز المر. وبذلك توفر اثنان من ثلاثة عناصر ضرورية لنجاح الضربة القاضية (المادة المقيئة واللوز المر).

٣ أيـار:

أنطومارشي: أكل الامبراطور بانشراح بسكوتتين بالملعقة ونبيذاً وصفار البيض. لكن انحطاط القوى يتزايد. الأرق ـ الفواق ـ الغثيان المتكرر ـ الإقياء كالسابق ـ وصف عدة ملاعق من الشراب المخفف للألم المعتاد.

انتاب هدسون لو شعور إنساني، فجأة، وفكر بأن حليب البقرة يمكن أن يريح الامبراطور في النزع الأخير من حياته، فأرسل له الحليب. أعجب الدكتور أرنوت بفكرة رئيسه وأراد إعطاء الحليب للامبراطور. اعترضت على ذلك بكل قواي. . . وحصلت بيننا مناقشة حادة. . وقد نجحت في منعه من إعطاء الحليب للامبراطور المحتضر.

مارشان: لم يعد الامبراطور يرغب في تناول شيء سوى الماء المحلى بالكسر مع قليل من النبيذ. وفي كل مرة كنت أقدمه له، كان يقول لي: هذا جيد. . . هذا جيد.

برتران: يردد الامبراطور نفس الكلمات، طيلة النهار تقريباً عندما يقدم له النبيذ أو شراب زهر البرتقال مع السكر.

أنطومارشي: ظهراً: النبض غير واضح ومتقطع ويصل حتى مائة وعشر نبضات بالدقيقة. الحرارة دون معدلها الطبيعي. يشرب نابليون كمية كبيرة من شراب زهر البرتقال الممزوج بالماء العادي والسكر.

مارشان: في الساعة الثانية من هذا اليوم، كنت وحيداً مع الامبراطور عندما قدم سان دنيس بهدوء، وأعلمين بأن الأب فنيالي يطلب محادثتي. ذهبت إليه فقال: «لقد أعلمني مونطولون بأن أجيء لرؤية الامبراطور. وإنني بحاجة أن أكون معه وحيداً». كان الأب يلبس على الطريقة البورجوازية وكان معه شيئاً يخبئه في لباسه لم أحاول كشفه، معتقداً بأنه قد جاء للقيام بأمر ديني.

أنطومارشي: الساعة الثالثة صباحاً، فواق قوي ومستمر تقريباً... ما زال نابليون يتمتع بحواسه. طلب من منفذي وصيته. «...سأموت، وسوف تذهبون إلى أوروبا، ومن واجبي أن أقدم لكم بعض النصح لسلوككم مستقبلاً. لقد شاركتم في المنفى، كونوا مخلصين لذكراي، ولا تفعلوا شيئاً يمكن أن يمسها... كونوا مخلصين للأفكار التي دافعنا عنها، وللمجد الذي حصلنا عليه، وما عدا ذلك عار وفوضى».

برتران: قال أرنوت بأن الأطباء لا يفهمون كيف ترك الامبراطور، ثلاثة أيام بدون خروج، وأنه من الضروري العمل على دفعه للخروج من خلال الأطباء أو من خلال حقنة شرجية... وقد رفض ذلك أنطومارشي، وقال الاتجاه نحو الحقنة وما ينجم عنها، يمكن أن يعرض المريض للخطر، وأنه ضعيف جداً، وأنه، أي الدكتور أنطومارشي، لا يمكن أن يتحمل هذه المسؤولية ... بقي أرنوت مصراً على موقفه.

مارشان: عدت لعند الامبراطور فوجدت عينيه مغلقتين والذراع متدل على طرف السرير. انحنيت وقربت شفتاي من يده، لم يفتح عينيه... بقيت واقفاً لوحدي أمام سرير الامبراطور وأنا أحبس نشيجي، لكن دموعي كانت تنهمر....

برتران: جاء الحاكم إلى الجنرال مونطولون، حوالي الساعة الثانية والنصف. قال بأن لديه أمراً من حكومته أن يرسل الطبيب الأول في الجزيرة وطبيب الأميرال لمساعدة الامبراطور، في حال وجود خطر فوري عليه.. طلب الدكتور

شورت والدكتور ميتشل أن يتحدثا إلى الجنرال مونطولون، فاستقبلهما في حجرته.
أنطومارشي: عرض على الطبيبين أعراض المرض لم يكتفيا بذلك، وأرادا أن يتأكدا بنفسيهما عن حالة نابليون. حذرتهما من القيام بأية محاولة. انضما إلى رأي الدكتور أرنوت الذي اقترح استخدام مسهل يتكون من عشرة حبات من الكالوميل (دواء مسهل). عارضت هذه الوصفة، فالمريض ضعيف جداً، وهذا العلاج قد يقضي عليه. كنت وحيداً ضد ثلاثة وقد تغلب العدد.
الماركيز مونشينو: عرض الخلاف على مونطولون الذي أيد رأي الأطباء الانكليز الثلاثة، وبالتالي فقد أعطي الدواء.

فورشوفود: إذن، يذكر مونشينو مناورة مونطولون ضد أنطومارشي الذي حاول إبعاده عن علاج ضحيته، لقد تقرر الأمر، وتم توقيع قرار الموت بثلاثة أصوات ضد واحد.

كان الكالوميل هو العلاج المعجزة لتلك الفترة، وهو يشبه البنسيلين في أيامنا. وقد كان الأطباء يصفونه هو أو المقيء في جميع الحالات التي تفشل فيها الأدوية الأخرى. كان أرنوت يأمل في فضائله المطهرة لتخليص نابليون من إمساكه المزمن.

الكالوميل، في حد ذاته مادة ليست ضارة، لكنها تصبح قاضية إذا ترافقت مع اللوز المر الذي كان يتناوله نابليون ضمن شراب اللوز يومياً. يحتوي اللوز على حمض السيانيدر، الذي له خاصية تحرير كلورات الزئبق من الزئبق الخامل عادة في الكالوميل. تفقد الضحية الوعي بعدها بقليل، وتصاب بالعمى والصمم وتصاب العضلات المخططة بالشلل. (العضلات التي تتحكم بالحركات الإرادية). يستمر الجهاز العصبي الودي المستقل بالعمل لفترة وجيزة. يمكن لمعدة الضحية أن تطرد المركب السمي من الكالوميل وشراب اللوز. ولإيقاف ردود الفعل الطبيعية الدفاعية لدى المعدة، فقد أعطيت الضحية المادة المقيئة قبل فترة. فإذا لم يقذف الجسم بسرعة، المادة السامة، يصبح الموت حتمياً خلال يوم أو يومين.

إن التركيب القاتل للكالوميل وشراب اللوز في جسم منهك سلفاً، من

تناول المقيء معروف لدى المسممين المحترفين في تلك الفترة. وقد جربه طبيب باريسي بنجاح على الكلاب منذ عام ١٨١٤، أي قبل سبع سنوات من جريمة سانت هيلين.

إن إعطاء نابليون كمية عشر حبات، هو جنون محض. فالانكليز لم يكونوا يصفون في تلك الفترة، عادة سوى حبتين توزعان على عدة جرعات. والألمان السويديون كانوا يصفون حبة واحدة. فهل دفع مونطولون الأطباء لوصف هذه الكمية التي تقتل الحصان؟ ليس لدينا أدلة مباشرة، وإنما لدينا مقطع من مذكراته حيث يشير إلى زحار كان يعاني منه نابليون (دون أن يشير إلى التاريخ).

فقد كتب: عشنا ثلاثة أيام من القلق الكبير. المرض لا يتقدم ولكن أيامه كانت في خطر، طالما أن الكالوميل لم يعط مفعوله.

يكاد المرء لا يصدق ذلك. إذ لم تذكر أية مذكرات، بأن نابليون قد تناول الكالوميل في ظروف أخرى. وأنطومارشي لم يصفه إطلاقاً ولو فعل، لرفضه نابليون، كما كان يرفض أي دواء آخر.

مارشان: في أعقاب هذه الاستشارة الطبية، استدعيت لإعطاء الامبراطور الكالوميل. قلت للمارشال الكبير والكونت مونطولون بأن الامبراطور قد قال لي بأنه لا يرغب أي شراب لا يوافق هو عليه، وأن عليهم أن يتذكروا غضب الامبراطور من الدكتور أنطومارشي في مثل هذه الظروف. أجابني المارشال الكبير بطيبته المعتادة، هذه آخر فرصة، فقد ضاع الامبراطور، وعلينا أن لا نترك شيئاً يمكن أن نلوم أنفسنا عليه من أجل إنقاذه. شجعتني كلمات المارشال الكبير الأخيرة. ذوبت بودرة الدواء في الماء مع قليل من السكر، وقدمتها للامبراطور على أنها ماء محلى بالسكر. فتح فمه وابتلعه بصعوبة، حاول الإقياء دون أن يتمكن ثم استدار نحوي وقال لي بلهجة لائمة ودودة: حتى أنت تخدعني؟

برتران: تحدث برتران مع القس فنيالي ليشجعه على المجيء لعند الامبراطور عندما يشاء، دون أن يبقى بالقرب منه باستمرار، حتى يشاهده الانكليز

والمغرضون والمنتقدون وأعداء الامبراطور ويمتنعوا عن القول بأن الامبـراطور، هذا الرجل القوي، قد مات كما يموت الرهبان، وأنه كان يـرغب في وجود كاهن بالقرب منه.

وقد استوعب فنيالي ذلك تماماً.

أنطومارشي: الساعة العاشرة ليلاً: لم تعط الحبوب العشرة للكالوميل أي تأثير. يجري التشاور لإعطاء جرعة أخرى. لم أعد أحتفظ بهدوئي، اعترضت بشكل قاطع، على هذا التصميم.

برتران: تحمس كل من أرنوت وأنطومارشي، لرأيه عندما خرج الامبـراطور وطرح برازاً أسود بكمية كبيرة، وأكبر من كل ما طرحه منذ شهر.

سان دنيس: لقد أعطى الشراب مفعوله. وقد أدى إلى طرح مادة سوداء كثيفة وبعضها قاس تشبه القطران أو الزفت. وباعتبار أن الامبراطـور كان شـديد الضعف، فقد فعلوا المستحيل لينقلوه إلى سرير آخر كما حدث منذ يومين، عندما تمكن من الجلوس على الكنبة، لكنه في هذه المرة، لم يكن بالإمكان سوى تغيير الشرشف السفلي، وقد تم ذلك بصعوبة كبيرة. صعدت السريـر وأدخلت يداي تحته ورفعته حيث قام مارشان وشخص آخـر برفـع الشرشف المليء بوسخ المريض. كانت وقفتي مزعجة ولم يكن لدي أي نقطة استناد أعتمد عليها في حين كان الامبراطور ثقيلاً جداً.

برتران: ربما ينقذ الأطراح الامبراطور.

فورشوفود: تطرح المعدة المتآكلة إطراحاً نبياً غامق اللون. والزئبق المعدني الناجم عن تفاعل الكالوميل وشراب اللوز أسود كالحبر.

٤ أيار:

أنطومارشي: وهن تام، تعرق بارد، نبض متقطع يكاد لا يحس. رغبة دائمة بالتبول... لم يتناول الامبراطور سوى كمية قليلة من شراب زهر البرتقال وعلى فترات متباعدة. كان الطقس مخيفاً، المطر ينهمر بدون انقطاع، والريح تهدد بتدمير كل شيء. اقتلعت شجرة الصفصاف التي كان يتفيأ في ظلها، عـادة نابليون، واجتثت النباتات التي زرعناها من جذورها، ولم تقاوم سوى شجرة

مطاط واحدة حتى أمسكتها عاصفة واقتلعتها ورمتها في الوحل. لا شيء مما كان يحبه نابليون قد بقي بعده.. الوهن عام ويتزايد باستمرار.

أرنوت محدثاً توماس ريد:أعطى الزئبق الحلو مفعوله المنتظر. لم تتردى حالة المريض، بل تحسنت. أعتقد أن هناك أملاً اليوم أفضل من البارحة، وأول البارحة. هذا ما يمكن أن تنقله إلى الحاكم.

مارشان: يرفض الامبراطور كل الإسعافات المقدمة. يستمر في شرب الماء، والنبيذ المحلى، أو الماء المحلى مع زهر البرتقال، وهو الشراب الوحيد المقبول لديه. وفي كل مرة أقدم له هذا الشراب، كان يقول: إنه جيد يا بني.

أنطومارشي: السابعة والنصف صباحاً: فواق شديد ومستمر. يرفض المريض أخذ أي دواء... شرب بعد قليل كمية كبيرة من شراب زهر البرتقال، الممزوج بالماء العادي المحلى بالسكر.. .ضحك مع تشنج الوجه، العيون ثابتة.

برتران: الساعة السادسة والنصف، إطراح.. ضعيف جداً.. الساعة الحادية عشرة إلا ربعاً أخذ الامبراطور يهذي: حسناً، برتران، زوجي...

الساعة الثانية عشرة: إطراح جديد.. الثانية إلا ربعاً: نظر إلى الجميع. من السابعة إلى الثامنة: إغماء متلاحق مع إطراح متزايد... الساعة الثالثة إلا ربعاً: إغماء لمرتين بين الأولى والثانية خمس دقائق. إطراح.. استقبل مونطولون وبرتران الطبيبين الذين قالا له بأن الحاكم يلح في أن يروا الامبراطور مساءً عندما يسمح لهما الظلام الاقتراب منه، وأن يتبينا النبض والبطن... الساعة الثامنة: طاولة الطعام مليئة..

أرنوت محدثاً هودسون لو: لقد تركت مريضنا نائماً، وعلى ما يبدو فإنه أفضل حالاً من قبل بساعتين. لا يوجد فواق، يتنفس بسهولة وقد تناول خلال النهار كمية كبيرة من الطعام لشخص في مثل حالته.

برتران: الساعة التاسعة والنصف، يعتقد أنطومارشي بأنه لن يعيش حتى منتصف الليل... كان يتحسس حتى اللحظات الأخيرة، من الذباب: لقد تنهد مرتين من الذباب في اليوم الأخير.

مارشان: نحو الساعة العاشرة، كان يبدو غافياً تحت الناموسية التي أنزلت قليلاً. بقيت قريباً من سريره أرقب أقل حركة من حركاته، في حين كان الطبيبان والكونت مونطولون والمارشال الكبير يتحدثون بصوت منخفض بالقرب من المدخنة. تقيأ الامبراطور بصعوبة، رفعت الناموسية، فوراً لوضع حوض من الفضة، أفرغ فيه مادة سوداء، بعدها سقط رأسه على المخدة.

فورشوفود: من جديد، تقيأ مادة سوداء اللون وهو اللون المميز للزئبق المعدني. حاولت معدة نابليون بذل جهد أخير لإنقاذ الجسم المسم، لكن بشكل متأخر: فقد أنجز السم عمله.

٥ أيار:

أنطومارشي: كان يتحرك طوال الليل. القلق عام، التنفس صعب... الساعة الخامسة والنصف صباحاً: نابليون يهذي، يتكلم بصعوبة، يطلق كلمات غير مترابطة ومتقطعة، يسمع منه كلمات: رأس... جيش.

برتران: ... أطلق الامبراطور بعض الكلمات التي لم تفهم وكلمة يتراجع أو على رأس الجيش.

مونطولون: قال الامبراطور: فرنسا الجيش، على رأس الجيش جوزفين..

مارشان: قال الامبراطور: فرنسا، إبني، الجيش. كانت تلك الكلمات الأخيرة التي تمكنا من سماعها.

برتران: طيلة الليل خف الفواق، وازدادت التنهدات العميقة نوعاً ما، والعالية أحياناً، والتي أيقظت أولئك الذين كانوا يغفون في الغرفة.

مارشان: الساعة السادسة: فتحت أبواب النوافذ الخارجية، أعلم المارشال الكبير الكونتيسة برتران بحالة المريض فجاءت في الساعة السابعة، وضع لها كرسي بالقرب من السرير حيث جلست طيلة النهار.

أرنوت محدثاً هودسون لو: السابعة صباحاً: قال أرنوت إنه سيموت قريباً. طلب مني مونطولون أن لا أغادر غرفة المريض. وأبدى رغبته في أن أكون بالقرب منه حتى اللحظة الأخيرة.

أنطومارشي: أعتقد أن روحه قد خرجت، لكن النبض يرتفع شيئاً فشيئاً...

تنهدات عميقة: نابليون ما زال على قيد الحياة.. وعندها حدث أكثر المشاهد ألماً قبل وفاة نابليون، فالسيدة برتران التي لم ترغب بترك سرير المريض الكبير لحظة واحدة، بالرغم من آلامها، استقدمت أولاً ابنتها هورتانس وبعدها أولادها الثلاثة كي يروا للمرة الأخيرة من كان ولي نعمتهم. يصعب وصف الأسى الذي ألمَّ بهؤلاء المساكين لرؤية الامبراطور المحتضر. فمنذ خمسين يوماً لم يتمكنوا من مشاهدة نابليون، كانت عيونهم المليئة بالدموع تبحث بفزع، في وجهه الشاحب النحيل عن آثار العظمة والطيبة التي تعودوا على رؤيتها فيه. هجموا نحو السرير وأمسكوا يدي الامبراطور وقبلوها وهم يبكون وغمروها بالدموع. لم يتمكن الشاب نابليون برتران من تحمل هذا المشهد الفظيع، طويلاً، فسقط على الأرض وأغمي عليه، وقد اضطررنا لإخراج هؤلاء الشبان واقتيادهم إلى الحديقة.

مارشان: في الساعة الثامنة دخل الفرنسيون المرتبطون بخدمة الامبراطور، والذين لا تسمح لهم وظائفهم بالدخول إلى الداخل... اصطفوا حول السرير بجانبنا.

برتران: كان عدد الحضور ١٦ شخصاً من بينهم اثنا عشر فرنسياً.

أنطومارشي: الساعة العاشرة و ١٢ دقيقة: النبض صفر، كنت أتابع النبضات بقلق وأبحث فيما إذا كانت روح الامبراطور قد خرجت عندما دخل نوفيراز مصفر الوجه مخربط الشعر. هذا المسكين الذي أضعفه المرض لمدة ٤٨ يوماً من التهاب حاد في الكبد، ترافق مع حمىً في الخصيتين، عندما علم بحالة الامبراطور الصحية السيئة، أراد أن يراه ويتأمله للمرة الأخيرة من خدمته الطويلة. طلب مساعدته للنزول ووصل وهو يبكي حاولت أن أرجعه لكن انفعاله كان يزداد كلما حاولت إقناعه، فقد كان يتخيل بأن الامبراطور مهدد وأنه يدعوه لإنقاذه وهو لا يريد التخلي عنه ويرغب في القتال والموت دفاعاً عنه. لقد فقد صوابه. أثنيت على حماسته وهدأته وعدت إلى مكاني.

مارشان: كانت عيوننا مثبتة على رأس الامبراطور العظيم ولا تتحول إلا للنظر إلى الدكتور أنطومارشي وقراءة نظراته، إن كان هناك ما زال أمل يرجى، لكن عبثاً فالموت لا يرحم.

برتران: من الساعة الحادية عشرة إلى الثانية عشرة ظهراً وضع لزقتين على القدمين ووضع أنطومارشي كمادتين، واحدة على الصدر والأخرى على الساق.
أطلق الامبراطور بعض التنهدات... الساعة الثانية والنصف وضع الدكتور أرنوت زجاجة مليئة بالماء الساخن على المعدة.
أرنوت محدثاً هدسون لو: الساعة الثالثة، النبض غير واضح لم يعد هناك حرارة على سطح الجسم.
أنطومارشي: كنت أضع نقاطاً من الماء، على شفتيه، وفمه. مخلوطاً بشراب زهر البرتقال والسكر لكن الطريق كان مغلقاً بتشنج ولم يبلع شيئاً: كان ذلك عبثاً.
أرنوت محدثاً هدسون لو: الساعة الخامسة والربع مساء: لقد ساءت حالته. التنفس صعب وسريع.
مارشان: الساعة الخامسة وخمسون دقيقة مساءً، سمع صوت مدفع الغروب غابت الشمس... الدكتور أرنوت كان يعد فترات التنفس بين الواحدة والأخرى وعينيه مثبتتان على الساعة: خمسة عشرة ثانية ثم ثلاثون ثم دقيقة، انتظرنا لكن عبثاً.

لقد مات الامبراطور.

فتح عينيه فجأة، أغلقهما الدكتور أنطومارشي الموجود بالقرب من رأس الامبراطور، الذي كان يتابع آخر دقات النبض على الرقبة.

أنطومارشي: بقي الجفنان مثبتان، غارت العينان وانقلبت وراء الأجفان العليا انقطع النبض ثم عاد كانت الساعة السادسة إلا إحدى عشرة دقيقة، مات نابليون.
أرنوت محدثاً هودسون لو: لقد مات الامبراطور في الساعة الخامسة و٤٩ دقيقة مساءً.

وادي جيرانيوم ـ سانت هيلين
حزيران ١٩٧٥

وقف ستين فورشوفود بالقرب من القبر الفارغ، كل شيء هادىء بجوار النبع الذي كان نابليون يحب أن يشرب من مائه، في هذا الوادي وحيث كان يـرقد، طيلة تسعـة عشر عـاماً، تحت شجـرات الصفصاف الحـزين جثمـان الامبراطور المسمم. لقد تقدم الزمن. لم تعد هناك شجرات الصفصاف وقد ارتفع مكانها شجرات من الصنوبر والسرو التي زرعها الفرنسيون والانكليز.

القبر، عبارة عن بـلاطة من الأسمنت، بـدون كتابـة يحيط بها حـاجز معدني، كان فورشوفود وحيداً، أمام القبر هـذا اليوم، لا يقـطع الصمت إلا أصوات العصافير. والشمس لا تنشر الدفء في العزلة التي تسيطر في هـذا الظل الكثيف.

لقد وصل فورشوفود إلى سانت هيلين منذ أسبوع، وسوف يغادرها غداً. فتنظيم الرحلة لا يخلو من الجسارة، لأن الوصول إلى الجزيرة بات أصعب من أيام نابليون. فمنذ فتح قناة السويس عام ١٨٦٠، لم تعد تتوقف البواخر العابرة إلى آسيا في الجزيرة.

يعيش في الجزيرة خمسة آلاف شخص، كلهم تقريباً من الانكليز، أي أكثر بقليل من عدد السكان الذين كانوا فيها أيام نابليون وأقل عدداً من ١٨٦٠، الجزيرة لا يوجد فيها مطار، وتتوقف فيها باخرة من حين لآخر. وفيماعدا ذلك، لا يوجد سوى سفينتين إنكليزيتين تقطعان المحيط بين ساوثاميتون، والكاب والتي تحجز المقاعد الاثني عشر فيها مسبقاً قبل أشهر بل قبل سنوات.

لم يتغير كثيراً ميناء جيمس تاون الصغير، خلال قرن ونصف من الزمن.

وقد تقلصت المدينة إلى شارع وحيد يحتوي على عدد من المخازن التي تمتد على طول الرصيف، وتعود معظم الأبنية إلى القرن التاسع عشر وبعضها إلى فترة نابليون. واليوم ما زالت السفن الكبيرة تضطر للرسو في عرض البحر. لذا، ركب فورشوفود قارباً للوصول إلى الدرج الحجري على بعد أمتار من ذاك الدرج الذي صعده نابليون ورفاقه في إحدى أمسيات تشرين الأول، في حين كان الجمهور الصغير المتواجد هناك ومن بينه الصغيرة بيتسي بالكومب يحاول رؤيتهم.

لقد حاول فورشوفود أن يتخيل كل شيء، بما في ذلك مقر لونغوود الذي رممه اليوم، الكاتب والقنصل الفرنسي جلبير مارتينو.

والمفاجأة الوحيدة هو الطقس، في سانت هيلين. فالمنفيون لم يتوقفوا عن الشكوى في مذكراتهم من الطقس غير الصحي الذي يسود الجزيرة. لكن فورشوفود الذي كان يتوقع الأسوأ دهش للطقس اللطيف في الشتاء لمنطقة تقع في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية. التقى في جيمس تاون بالسيد مارتينو وطلب منه إيضاحاً في هذا الخصوص، باعتبار أنه قد عاش فترة طويلة في الجزيرة وأنه يقر بأن ظروف الطقس باتت لطيفة على الشاطىء. لكنه يرى أن الأمر ليس كذلك في سهل لونغوود فوالدة مارتينو، وهي سيدة مسنة عمرها خمس وثمانون سنة عاشت طوال حياتها في لونغوود ترى الأمر من زاوية مختلفة: فالطقس لذيذ وهنا الجنة بعينها. لقد استنتج من ذلك بأن المنفيين كانوا يكرهون منفاهم بشكل خاص وأنهم كانوا يلقون باللائمة على الطقس غير الصحي في سانت هيلين، وتلك كانت وسيلة غير مريحة لإلقاء مسؤولية الألم الذي كان ينخر جسد الامبراطور على الانكليز. لقد اكتفى الكتاب الفرنسيون فيما بعد، بترديد ذات الأقوال. وبذلك كتب التاريخ على هذه الشاكلة. كانت أعين فورشوفود مثبتة على حجر القبر الصامد. كان يفكر في المشهد الذي جرى في هذا المكان في أحد أيام تشرين الأول ١٨٤٠ والذي قدم رفاة نابليون دليلاً قاطعاً نهائياً للتسمم بالزرنيخ. ففي تلك السنة استجاب الملك لويس فيليب لضغوط البونابرتيين المتزايدة وأرسل وفداً إلى سانت هيلين، لتحقيق الرغبات الأخيرة، للإمبراطور المحتضر، في جلب رفاته على ضفاف نهر

السين. وقد قام رفاق المنفى الذين ما زالوا على قيد الحياة برحلة العودة هذه وتواجدوا حول قبره.

كان عمر برتران آنذاك ٦٧ سنة، الشعر رمادي، والوجه منهك تعب، جاء مع أحد أولاده الذي بات الآن شاباً، فقد ماتت فاني برتران منذ أربعة أعوام، وجاء عمانويل بدلاً من والده لاس كاسس الذي بلغ عمره الآن، الثمانين وأصبح أعمى. وجاء غورغو صاحب المشاكل الذي راح يختلف مع عمانويل، بدلاً من والده لاس كاسس. لويس مارشان أصبح الآن في سن النضج وبرجوازي غني استحق الأموال التي تركها له نابليون. كما كان هناك الخادمين الاثنين الآخرين سان دنيس ونوفيراز (الدب السويسري) وكذلك بييرون وأرشامبو، قائد كلاب الصيد. مات الطبيبان الاثنان أوميبرا في انكلترا وأنطومارشي في سانتياغو في كوبا.

لم يأت مونطولون إلى هناك، بالرغم من أنه كان حراً ومستعداً يوم انطلقت الباخرة بيل بول، إلا أنه كان في السجن عند الاحتفال بإخراج الامبراطور من القبر. فقد عاد لدى رجوعه من المنفى إلى الحياة الفاخرة الفوضوية التي كانت تلازمه قبل مرحلة سانت هيلين. والإرث الذي أخذه ـ المبلغ المحترم مليون ونصف المليون فرنك فرنسي ـ أنفقه وأصبح مفلساً تماماً عام ١٨٢٩. عاش مونطولون حياة عسكرية غير مستقرة فقد كان ينتقل من وسط لآخر على الهامش دائماً، ولا يبدو بأنه ينتمي إلى أي شيء أو إلى أي شخص. ويقال بأنه التقى عام ١٨٢٧ سراً مع الملك شارل العاشر، وهو كونت أرتواز سابقاً، الذي أرسله حسب رأي فورشوفود إلى سانت هيلين لدس السم للامبراطور المخلوع. لم يكافىء شارل العاشر، مونطولون، إطلاقاً أو على الأقل لم يكافئه علناً، لكن الحكومات نادراً ما تكافىء الذين يقومون بالأعمال الخسيسة. كان شارل العاشر يدير شؤون البلاد بشل سيء الأمر الذي أدى إلى عزله عام ١٨٣٠. وهذا ما يؤكد قول نابليون في آل البوربون: بأنهم لم يتعلموا شيئاً ولم ينسوا شيئاً.

بعد الأيام الثلاثة المجيدة، ذهب شارل العاشر إلى منفاه الثالث وعندما سئل أحد رفاقه عن مصيرهم، أجاب أحد البحارة وهو غوكنار: إلى سانت

هيلين. مات شارل العاشر بالقرب من تريستا قبل أربعة أعوام من عودة رفاة عدوه، باحتفال كبير.

في عام ١٨٤٠، وقبل فتح قبر نابليون في سانت هيلين، ارتبط مونطولون بخدمة لويس نابليون، وهو إبن لويس فيليب وهورتانس بوهارني والذي سيصبح نابليون الثالث. قبل ثمانية أعوام لدى وفاة ابن نابليون الملقب أيقلون، أصبح لويس نابليون وريث آل بونابرت. في آب، تزعم مونطولون في انكلترا حملة مجنونة من أجل استعادة عرش فرنسا لحساب لويس نابليون. لكن القطعات الفرنسية التي أخطرت بذلك، كانت تنتظرهم في غابات بولونيا، وقد تم إلقاء القبض على المهاجمين بسرعة. حكم على مونطولون مدة عشرين سنة بالأشغال الشاقة، إلا أنه أطلق سراحه بعد ٦ سنوات. مات بعد ثلاثة عشر عاماً دون أن يقول شيئاً عن الجرم البشع الذي كان أداته. فهل اعترف لزوجته ألبين بقتل الرجل الذي كانت بكل تأكيد خليلته؟ وهل قال لها بأنه قد تحمّل علاقتها مع نابليون كي لا يبتعد عن ضحيته؟ لم يقل لها ذلك دون شك: فالمخاطرة كبيرة جداً. إذ لو علم رفاق الامبراطور القدامى لانتقموا منه. وهل كان مونطولون ضحية ابتزاز كونت أرتواز أم أنه كان يعتبر نفسه ضابطاً مكلفاً بمهمة خاصة بشعة، تكتنفها المخاطر لحساب أسياد فرنسا الشرعيين؟ وهل جفاه النعاس عند تذكر الآلام الفظيعة للرجل الذي كسب ثقته، ودس له السم؟ إن جميع هذه الأسئلة وغيرها لن تجد لها جواباً على الإطلاق: فقد أخذ الماضي القسم الأكبر من تاريخ مونطولون.

لقد كان من الأفضل له أن يكون هناك في ذلك اليوم الماطر والضبابي من عام ١٨٤٠ عندما كان رفاق المنفى ينظرون إلى العمال وهم يفتحون قبر الامبراطور. ربما يكون الشهود قد فهموا فجأة معنى الظاهرة المثيرة التي انكشفت أمام أعينهم وانكشف بها مونطولون. فجسم نابليون لم يكن محنطاً، وإنما وضع كما هو بعد التشريح. وقد وضع في أربع توابيت، إثنان منها مدنيان، لكن لم يكن أي منهما محكم الإغلاق، بحيث لا يسمح بدخول الهواء. ولقد دفن منذ ١٩ عاماً. توقع الشهود بعد فتح التابوت الأخير أن يظهر أمامهم الهيكل العظمي لكن جثمان نابليون لم يُمس وبدا الامبراطور وكأنه

نائم. بعد ١٩ عاماً لم يتغير وجهه أكثر من ذلك التغير الذي طرأ على وجوه الرجال المجتمعين حول قبره. لقد أتى الزمن على ملابسه لكنه حفظ جثمانه. هناك تفسير لهذه المعجزة.. الزرنيخ. فالزرنيخ سم قاتل له خاصية الحفاظ على الأنسجة الحية من التعفن: تستخدمه المتاحف كثيراً للحفاظ على النماذج. وجسم الإنسان الذي تعرض لتسمم مزمن بالزرنيخ، يتفسخ ببطء شديد. لذلك فإن جسم نابليون الصامت كان يروي قصة جريمتهم واليوم، أيضاً يمكن أن يشهد على ذلك: إذ يكفي أن يقبل الفرنسيون بفتح قبر الانفاليد حيث يرقد رفات نابليون، في ٦ توابيت. من أجل ذلك، ليتكفل بالأمر شخص آخر، فقد أنهى الآن فورشوفود العمل الذي أوحت له به، منذ عشرين سنة، قراءة مذكرات لويس مارشان. لقد ربح عن جدارة، النحلة النابولونية المعلقة في هذا المكتب في الطابق الثالث، حيث صمم على حل لغز سانت هيلين.

إن هذه الحجيج، أمام القبر الفارغ البعيد، يغلق إحدى المراحل الأكثر إثارة في حياته، فقد حان الوقت للتفكير في العودة. بعد نظرة أخيرة، إلى بلاطة الإسمنت، خلف الحاجز المعدني، ابتعد فورشوفود بخطى سريعة فسوف يعود غداً، إلى بيته في غوتبورغ.

ملاحظة:

خلال الأعوام التي تلت لقاء ستين فورشوفود وبن وايدر في مونت غابريل، كتبا دراسة جامعية تحت عنوان: «حادثة قتل في سانت هيلين» والذي نشر في كندا، عام ١٩٧٨ من قبل دار النشر ميتشل ليمتد في فانكوفر.

وقد ساعد ستين فورشوفود، الذي ما زال على قيد الحياة، ويعيش في غوتبرغ، في كتابة هذا المؤلف.

لونغوود هاوس، مقر إقامة نابليون في سانت هيلين.

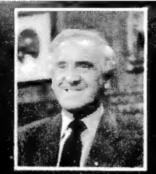


*الصور التالية تبين مراحل تطور مرض الامبراطور.
نابليون على ظهر الباخرة نورثمبرلاند التي أقلته إلى سانت هيلين
أخذت هاتان الصورتان في سانت هيلين، والصورة أخذت قبل شهرين من وفاته.

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

نشر هذا الكتاب للمرة الأولى باللغة الانكليزية ١٩٨١، وبالفرنسية ١٩٨٢



المؤلف الدكتور بن وايدر

- عضو في «النظام الكندي».
- رئيس الاتحاد الدولي لكمال الأجسام.
- «رئيس جمعية نابليون» في كندا كما هو عضو في المكتب التنفيذي لجمعية نابليون في باريس ـ فرنسا.
- عضو في «كلية التعليم» التابعة للأكاديمية الرياضية للولايات المتحدة الأميركية.
- عضو في «مكافحة المنشطات الرياضية» ـ شيكاغو.
- تلقى «ميدالية يوبيل الملكة الفضي» من انكلترا.
- تلقى «درجة شرف» في التربية البدنية من جامعة بغداد ـ العراق.
- سُمّي «بمستلم جائزة نوبل للسلام» لعام ١٩٨٤.
- في تموز ١٩٨٧، تلقى شهادة فخرية «دكتوراه في فلسفة العلوم الرياضية» من الأكاديمية الرياضية في الولايات المتحدة الأميركية».
- في أيار ١٩٨٨ تلقى «جائزة استاذية فخرية» من معهد التربية الرياضية ـ في شنغهاي.
- في حزيران ١٩٨٨ تلقى من محافظ مدينة باريس جاك شيراك «الميدالية الفضية».
- في آذار ١٩٩١ تلقى أعلى جائزة من وزير الرياضة في الاتحاد السوفياتي كما تلقى أيضاً أعلى جائزة من رئيس جمهورية لتوانيا.
- السيد ويدر سافر حول ١٠٠ دولة في سبيل خدمة رياضة كمال الأجسام كما فتح أندية كثيرة لتشجيع الشباب الرياضي ودعمهم منها في: الولايات المتحدة الأميركية ـ كندا ـ ألمانيا ـ الجمهورية العربية السورية ـ الجمهورية اللبنانية ـ جمهورية الصين الشعبية.
- في نيسان ١٩٩١ تلقّى «جائزة شهادة استحقاق» من رئيس اللجنة الأولمبية السورية» السيد سميح مدلل لدعمه وتشجيعه لعبة كمال الأجسام في سوريا.

خلال سفره إلى تشيكوسلوفاكيا في حزيران ١٩٩١ تلقى «الميدالية الفخرية» من عميد جامعة كومينيوس في براتيلافا البروفسور جورج سفيك.

